أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة

الدكتور: نايف خرما

يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت



سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة

الدكتور: نايف خرما

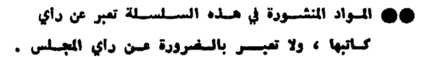
٩ - رمضان / شوال ١٣٩٨ هـ - سبتمبر (أيلول) ١٩٧٨ م

المراسلات:

توجه باسم السيد الامين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص.ب ٢٣٩٩٦ الكويت

أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة

تأليف
د. نايف خرما



توطئة

هذا الكتاب ينشر ضمن سلسلة كتب « عالم المعرفة » التي يتعهدها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بدولة الكويت ، وهي سلسلة تهدف الى نشر الثقافة العامة في وجوه المعرفة المختلفة ، ولذلك فانه يكتب بموجب مواصفات معينة نلتزم بها لكي تفي مادته بالهدف الذي يكتب من اجله .

فبادىء ذى بدء ، ليس هذا الكتاب موجها للمتخصصين في علوم اللغة المختلفة التي سيشار الى بعضها اشارات سريعة بينما يبحث بعضها الاخر بشكل اكثر تفصيلا . وعلى الرغم من ذلك فربما وجد بعض هؤلاء المتخصصين شيئا من المتعة في مطالعة الكتاب ، بل وربما أثار في البعض الآخر ـ خاصة أولئك الذين لم تتح لهم فرصة الاطلاع على الدراسات اللغوية التي تجرى في الغرب ـ حماسا للاطلاع على وجه معين من وجوه تلك الابحاث بشكل تفصيلي عميق لامكانية الاستفادة منه وتطبيقه في ابحاث اللغة العربية .

كما انه ليس المقصود أن يكون هذا الكتاب كتابا مدرسيا او جامعيا او مقدمة في « علم اللغة » ، هذا العلم الذي اصبح في وقتنا الحاضر جزءا لا يتجزأ من منهج الدراسة في أقسام اللغات الحية وخاصة الاجنبية منها بالجامعات . وذلك لاننا حاولنا ، لمصلحة القارىء المثقف غير المتخصص ، أن لانفترض معرفة مسبقة بأي من أوجه الدراسات التي سنكتب فيها أو حتى بالعلوم اللغوية الحديثة بوجه عام . كما أننا حاولنا بقدر المستطاع أن نتجنب الناحية الاكاديمية المحضة التي تستوجب التحديد الشديد وأن نبتعد عن المصطلحات الفنية الدقيقة التي أصبحت شيئا لا غنى عنه في دراسة تمهيدية لعلم اللغة الحديث والتي نعاني منها الكثير عند بدئنا

بتدريس هذا العلم في الجامعات . ولكن من الممكن ان يعتبر هذا الكتاب مقدمة لتلك المقدمات التي يقرر تدريسها في الجامعات ، فربما كان معينا لاولئك الطلاب على فهم ما يدرسون فيما بعد ، بأن يتعرفوا بشكل عام على مدى اتساع الدراسات اللغوية الحديثة ، وعلى فروعها واتجاهاتها المتعددة ، أو تعينهم على أن يقرروا بشكل مبدئي فيما اذا كانوا يميلون الى هذا النوع من الدراسة فيبدأون الاهتمام بها أثناء دراستهم الجامعية الاولى ، بهدف التخصص في احد فروعها في دراساتهم العليا .

ثم ان القارىء لن يجد في هذا الكتاب الاجابات الشافية الوافية على جميع المسائل التي ستثار أثناء البحث ، وذلك لسبب بسيط هو أن الابحاث في الاوجه المختلفة لموضوع اللغة مستمرة لا تنقطع ، كما أن علم اللغة بمفهومه الحالي حديث عهد بين العلوم العريقة الاخرى ، ولهذا فان الاجابات القاطعة على كثير من الاسئلة الهامة لا زالت غير متوافرة . هنالك آراء ونظريات وفرضيات ونتائج أبحاث وتجارب كثيرة جديدة ، ولكن قليلا منها يرقى الى مرتبة العلم الثابت الأكيد ، وجلها لا زال مفتوحا لمزيد من الدراسة والبحث والمناقشة والتجربة . وربما كان أهم ما سيجده القارىء في هذا الكتاب هي المسائل أو الاسئلة نفسها التي بدأت تثار في عصرنا الحاضر وبخاصة في ربع القرن الماضي ، وذلك بالنظر الى عمقها واتساع مداها من ناحية والى الامكانات التقنية التي أصبحت متوافرة من ناحية أخرى والتي يحاول علماء اللغة أن يفيدوا منها في تجاربهم .

ان تساؤلات لا حصر لها أصبحت تتناول نواحي جديدة لم يتطرق لها أحد من قبل ، كما أن أمورا ومسائل قديمة قدم الانسان على الارض أصبح يتناولها العلماء من جديد من وجهات نظر مختلفة وفي ضوء التقدم العلمي الهائل الذي أصبح يميز هذا القرن عما سبقه من قرون . وان من المفيد حقا ، لا بل من الضروري ، أن يصبح القارىء المثقف مدركا لاهمية تلك التساؤلات وطرق تناولها بالبحث والدراسة ، وذلك لكي

يتمكن على الاقل من التخلص من تلك النظرة الضيقة التي ساهمت كتب القواعد المدرسية ولا زالت تساهم في غرسها في أذهان النشىء من طلاب العلم والتي تكاد تنحصر في النواحي الشكلية المحضة من النحو والصرف تدرس بنفس المنهج الذي بداه سيبويه منذ كتب اول كتاب في قواعد اللغة العربية ، ولكي يصبح هذا القارىء على صلة بالآفاق الأكثر شمولا للدراسات اللغوية ، ولمدى أهمية اللغة في حياة الانسان .

لكل ما سبق ذكره ، وبلوغا للهدف الذي تسعى اليه هذه السلسلة من الكتب ، فقد حاولنا ان نبتعد في هذا الكتاب عن الصيغة الأكاديمية المحضة ، وأن نبسط الامور بالقدر الذي لا يجعل الكلام بعيدا عن الدقة أو مبهما على القارىء في نفس الوقت . وقد اضطررنا لاستعمال القليل من المصطلحات الفنية التي اصبحت تؤلف لها المعاجم الخاصة ، وعملنا عند استعمال كل منها على شرحها بطريقة سهلة ، وذلك لتمكين القارىء من ادراك أدق للمسألة التي تجرى معالجتها .

وبالنظر للتاريخ الطويل جدا لدراسات اللغة ، والتراث الهائل من المؤلفات في هذا الموضوع ، فقد حاولنا أيضا أن نتجنب الخوض في التطور التاريخي لتلك الدراسات ، بل أشرنا فقط الى ما له علاقة مباشرة بالمدارس الفكرية المعاصرة ، وبالابحاث التي تجرى حاليا ، لان هذا هو ما نطمح ان ننقل بعضا منه الى القارىء العربي .

ان هذه القيود التي وعدنا الالتزام بها قدر المستطاع قد جعلت من بحثنا هذا أمرا عسيرا ، وواجهتنا بكثير من الصعوبات التي احتاج تذليلها الى مجهود خاص . فقد حاولت بعض الجهات في السنوات الاخيرة أن تقدم شيئا مماثلا لما كتبنا فيه ، وذلك عن طريق القاء المحاضرات العامة في العلوم اللغوية على الجمهور المثقف ونشر بعضها مطبوعا ، كما حاولت جهات أخرى تقديم كتب مبسطة للقارىء العادي في هذا الموضوع ، وقد كانت جميع تلك

المحاولات باللغات الاجنبية ، وأكثرها باللغة الانكليزية بالذات ، وترجم بضعة منها الى اللغة العربية . ويمكننا تصنيف هذه الكتب الى ثلاث فئات :

الفئة الأولى : من هذه الكتب تفترض ان للقارىء معرفة سابقة واهتماما مسبقا بموضوع البحث ، ولذلك فان المؤلف يعتمد على تلك المعرفة وذلك الاهتمام ويعتبرها أمورا مفروغا منها ، ثم ينطلق من هناك ليقول ما يرغب في قوله . هذا النوع من الكتب ربما صلح مقدمة لمن شاء التخصص في علم اللغة ، ولكنه لا يصلح عادة للقارىء المثقف بوجه عام .

والفئة الثانية : كتاب نجح الى حد كبير في التخلص من « أدوات المهنة » أي من المصطلحات الفنية اللازمة لمهنة اللغوي الحديث ، فعرض الموضوعات اللغوية بشكل مفهوم للقارىء ولكن ذلك كان في كثير من الأحيان على حساب الدقة العلمية . هذا من ناحية ، ومن الناحية الاخرى نجد أن هذه الكتب قد تقادم عهدها بعد انقضاء عشر سنوات أو اكثر قليلا على صدورها . وهذا ليس في الواقع عيبا في الكتاب نفسه ، ولكنه واقع ينسحب على جميع الكتب التي من هذا النوع . ويمكن تلخيص السبب بأن الاهتمام بالدراسات اللغوية لم يعد مقصورا على عالم اللغة فحسب بل امتد الى أولئك العلماء الذين يعملون في فروع المعرفة الاخرى التي لها علاقة باللغة ، أو التي تستعمل اللغة في ابحاثها . وسنرى في صفحات أخرى قريبة من هذا الكتاب أن فروع المعرفة هذه تكاد تشمل كل ما له علاقة بالانسان من جوانبه المتعددة . ولقد زاد هذا الاهتمام لدى أولئك العلماء زيادة هائلة بعد ظهور نظريات حديثة في علم اللغة نفسه اعتبرت ثورات فعلية في العصر الحاضر ، ودفعت بكثير من المختصين في العلوم الانسانية والاجتماعية بوجه خاص الى اعادة النظر في كثير مما كانوا يؤمنون به كحقائق مسلم بها . ولهذا فقد رات تلك العلوم نهضة جديدة وزخما في الابحاث يكاد حتى المثقف أن يعجز عن متابعتها للاطلاع على احدث منجزاتها ، وذلك

نظرا لكثرتها وتشعبها وصدورها غالبا على شكل مقالات في مجلات ودوريات تعد بالمئات وتصدر في جميع أرجاء المعمورة . وكثيرا ما تكون بعض المسائل التي يدور البحث فيها أمورا مثيرة للجدل والخلاف ، فتجرى عليها الابحاث فيأتي بعضها بنتائج مغايرة للبعض الاخر ، فتعقد لها المؤتمرات لكي يواجه الباحثون بعضهم بعضا ويطلع كل منهم الآخر على احدث ما توصل اليه ، ويناقشون تلك النتائج ويوصون ببعض الاتجاهات ... الخ ...

وكثيرا ما لا يتسع مجال الدوريات لنشر هذه الأبحاث الا بعد انقضاء سنوات فاذا جمعت في كتب ، لا تصدر هذه الا بعد سنوات أيضا . وفي مثل هذه الحالات ، وهي كثيرة ، لا يستطيع حتى المتخصصون ، وبخاصة في البلدان غير الاوروبية او الامريكية ، متابعة ما يجري لنقص في وسائل تنظيم المعرفة وتوزيعها فيما بين هذه البلدان والدول الاخرى .

ولكي نعطي فكرة واضحة عن مدى الصعوبة التي يواجهها حتى المتخصصون فيالوصولالى أحدث الابحاث، وبخاصة ما يعرض منها في المؤتمرات العالمية فقط ، يمكننا ان نشير الى بعض ما تمدنا به بعض النشرات الدورية عن المؤتمرات اللغوية أو المتعلقة باللغة التي تعقد كل عام . ففي الفترة الممتدة بين شهر ابريل ونهاية عام ١٩٧٧ فقط عقد في العالم ثمانية وخمسون مؤتمرا لها علاقة باللغة ، أي بمعدل يزيد عن سبعة مؤتمرات في الشهر الواحد وامتدت رقعة الاماكن التي عقدت فيها بحيث شملت معظم انحاء العالم بدءا من الولايات المتحدة الامريكية وكندا ، ثم معظم اقطار اوروبا غربها وشرقها ، ومرورا ببعض بلدان الشرق الاوسط ، حتى وصلت الى استراليا واليابان . (١)

اما الفئة الثالثة : من الكتب العامة المؤلفة حديثا في مجموعات من المقالات التي ساهم فيها كبار المختصين في كل موضوع من

(١) The Linguistic Reporter, vol. 19, No. 6, March, 1977, pp. 4-5, (advance announcements).

مواضيعها . وهنا علينا ان نتصور ما يحدث عندما نطلب من عالم متخصص كبير ان يلخص موضوعه كله وأحدث الأبحاث فيه في عشر صفحات أو أكثر قليلا . لقد وفق القليلون جدا في ذلك بمحاولة الابتعاد عن الامور العلمية او الأكاديمية الدقيقة التخصص وقدموا خلاصات عامة ممتعــة للقارىء العادي ، أما الآخــرون ــ وهم الاغلبية ــ فيبدو أن ادوات المهنة قد أصبحت جزءا لا يتجزأ من طبيعة عمل كل منهم بحيث لم يستطع أن يتخلص منها ويعبر عما يريد قوله باللغة التي يمكن ان يفهمها الانسان العادي ، بل ان بعض تلك المقالات تشكك القارىء في معرفته بلغته التي نشأ معها وتعلم بهــا .

وهذه احدى الصعوبات الرئيسية التي واجهتنا في الكتابة في موضوع اللغة كما ينظر اليها المعاصرون في البلدان المتقدمة . ان الكتابة عن اللغة بوساطة اللغة أمر شاق للغاية بحد ذاته ، وذلك لانا اذا نظرنا الى الموضوع من زاوية المفردات فقط ، نجد ان معنى كثير من المصطلحات المستعملة في علم اللغة مرتبط في اذهاننا بمفهوم معين فرضته علينا ظروف كثيرة متشابكة ، ليس هذا مكان بحثها ، فاذا اردنا استعمالها للتعبير عن مفهوم خاص بعلم اللغة يختلف في كثير أو قليل عن المفهوم العام ، تولدت في ذهن القارىء أو السامع بلبلة لا تزول الا مع استعماله لتلك اللفظة استعمالا متواصلا اثناء دراسته اللغوية للدلالة على المفهوم الجديد . ولنضرب على ذلك مثلا بسيطا من واقع الحياة اليومية . انك كانسان مثقف درس قواعد اللغة العربية وتعرف على بعض التعابير المستعملة خصيصا لها **كالنعت والحال والمستثنى والمفعول به والمفعول معه والتمييز وحتى المبتدأ والخبر** على بساطتها بالنسبة لك اذا استعملت أيا منها عند الحديث مع انسان آخر لم يدخل المدرسة قط أو لم يتم سوى المرحلة الابتدائية منها مثلا ، فسيكون رد فعله اما عدم الفهم أو محاولة الرد باللعب على هــذه الألفاظ بمفهومها العــام أو ربما الغضب لاعتقاده انك تسخر منه أو تنتقص من قيمته . ومهما كان

رد الفعل ، فان النقطة التـي نود ايضاحها هي أن للدراسات اللغوية لغتها الخاصة التي يسمونها **ما وراء اللغة** (metalanguage) والتي لا يفهمها الا الدارس للغة أو المتخصص فيها ، وقد أعطينا مثلا بسيطا للغاية ولكنه يوضح ما نريد أن نقول .

ولسنا ندري ان كانت هنالك طريقة لفهم قواعد اية لغة بدون استعمال بعض التعابير الفنية الخاصة بها . وحتى لو نظرنا الى الناحية التطبيقية لا النظرية ، كأن يكون الهدف هو اتقان استعمال اللغة قومية كانت أم اجنبية ، فانا نجد ان محاولات كثيرة قد جرت للوصول الى ذلك دون اقحام الدارس في خضم تلك التعابير الفنية ، وقد كانت النتائج مخيبة للآمال . والتعابير الفنية ليست مقصودة لنفسها بالطبع ولكنها وسائل تساعد على ادراك الدارس للطريقة التي تعمل بها اللغة ، ولذلك فقد وجد انه لا بد من تعريف ذلك الدارس ببعض تلك التعابير لتساعده على فهم اكبر لتراكيب اللغة وترابطاتها وطرق عملها .

لقد قلنا ان هذا المثل بسيط جدا وهو فعلا كذلك اذا تصورنا أن الانسان المثقف في البلدان المتقدمة الذي يكون قـد درس لغته وتعرف على طريقة عملها أثناء دراسته الثانوية ، غالبا ما يكون قد تعرف على كثير من التعابير الفنية التقليدية التي ما زالت مستعملة في الكتب المدرسية منذ مئات السنين ــ وهذا ينطبق طبعا على الطالب العربي بالنسبة للغته ــ فاذا تناول احد الكتب اللغوية الحديثة وجد أمامه لغة ربما كانت أقرب الى لغة أجنبية منها الى اللغة التي يتكلمها ويقرأها ويكتب بها . لقد أصبـح عـلم اللغة والعلوم الملحقة به أو التابعة له او المتعلقة به علوما تخصصية يستعمل كل منها تعابير ومصطلحات خاصة به ، حتى أن المعاجم الخاصة أصبحت توضع لها ، لكي يفهم حتى أتباع مدرسة معينة ما يقوله اتباع المدرسة الاخرى . وأصبح مؤلف كتاب في أحد هذه العلوم يجعل في آخره ، معجما موجزا أو قائمة بالتعابير الخاصة المستعملة في ذلك الكتاب ومعنى كل منها في السياق الـذي تستعمل فيـه .

ومما يزيد الامر صعوبة بالنسبة للكاتب العربي أن جميع الابحاث اللغوية الحديثة تقريبا تتم بلغات أجنبية ، حتى أن الباحث العربي ذاته يجد نفسه مضطرا لاجراء ابحاثه باحدى اللغات الاجنبية لكي يفهمها من يشرف عليها او يناقشها في جلسة أو مؤتمر أو مجلة أو كتاب وخاصة أن معظم هذه الابحاث تتم في جامعات أجنبية . وكما هو الحال بالنسبة للتعابير الفنية المستخدمة في العلوم الطبيعية التي اصبح معظمها يدرس حتى في جامعاتنا العربيةباللغة الاجنبية ليست هنالك تعابيرعربية مرادفة لها متعارف عليها يستطيع أن يتفاهم عن طريقها حتى الباحثون العرب فيما بينهم . ومعظم ما اطلعنا عليه من تراجم الكتب الغربية يستعمل المترجم فيها تلك التعابير بشكلها الاصلي او يجتهد في ترجمتها ويخشى في نفس الوقت غموضها فيتبعها بالتعبير الاجنبي على الفور .

بالاضافة الى ذلك فان معظم اللغات التي اجريت عليها ابحاث حديثة لغات أجنبية ، واللغة الانكليزية بوجه خاص ، كما أن معظم الامثلة التوضيحية مأخوذة من تلك اللغات ، ولذلك لم نستطع أن نتجنب ايراد بعض الامثلة من تلك اللغات ، ولكن حاولنا في معظم الاحيان الاتيان بأمثلة من اللغة العربية ، التي لا ندعى التخصص في الدراسات اللغوية الخاصة بها .

أمر اخر لا بد من الاشارة اليه لانه يجعل من مهمة مؤلف كتاب من هذا النوع مهمة شاقة حقا . الا وهو هذا التطور المذهل في النظريات اللغوية المختلفة التي تتفق في بعض اجزائها وتختلف في بعضها الاخر ، بل يكاد بعضها يناقض البعض الاخر مناقضة كاملة ، كل ذلك خلال حقبة من الزمان تقل عن نصف قرن ، بل ربما بلغت أوجها حاليا مبتدئة في الربع الثالث من القرن الحالي ، حتى قيل أن ثورات ثلاث في النظرة الى اللغة وفي طريقة دراستها قد حدثت خلال القرن الحالي : أولاها في الثلاثينات وثانيتها في الخمسينات وثالثتها في السبعينات منه ، كما أن عدد الكتب

والمقالات والمؤتمرات اللغوية التي ظهرت او عقدت خلال الاعوام الاربعين السابقة تعادل أضعاف مثيلاتها ربما منذ بدء الخليقة .

وأخيرا ، لا بد ان نشير الى التشابك الكبير الذي أصبح واضحا الان بين دراسة اللغة حتى من الناحية الشكلية البحتة وبين الدراسات العلمية والانسانية والاجتماعية الاخرى ، وهل هنالك علم ليس له صلة باللغة ؟

ونظرا لكل ما سبق ذكره ، فانا نلفت نظر القارىء الا يتوقع ان تكون مادة هذا الكتاب من النوع القصصي أو الاخبارى الخفيف السهل ، ولكنا نأمل في نفس الوقت أن تكون قد وفقنا في جعل هذه المادة مقبولة ، سائغة ، يسيرة القراءة من ناحية ، ومثيرة لكثير من التفكير والتأمل من ناحية أخرى .

وبالنظر لكثرة الموضوعات التي تشغل بال علماء اللغة والعلوم المساندة لها والمتعلقة بها في الوقت الحاضر نجد انفسنا مرغمين على اختيار أهم تلك الموضوعات واكثرها حداثة وامتاعا ، وذلك لاستحالة الالمام حتى بجزء ضئيل من كل منها في حدود هذا الكتاب .

* * *

ولا يفوتني ، في نهاية هذه المقدمة ، أن اتقدم بوافر الشكر للاخوان الذين تكرموا بالاطلاع على مخطوطة الكتاب وابداء ملاحظاتهم القيمة ، وهم الاستاذ صدقي حطاب ـ بالمجلس الوطني ، الاستاذ علي حجاج والاستاذ صلاح جراده ـ بوزارة التربية ، والزملاء بكلية الآداب : الدكتور محمد سامي انور والدكتور رجاء الدريني والدكتور داود عبده ، واخيرا وليس آخرا الدكتور فؤاد زكريا ـ مستشار هذه السلسلة الذي اشار ببعض التعديلات التي أجريتها بناء على ملاحظاته .

والله ولي التوفيق

نايف خرما
يناير ١٩٧٨

الفصل الأول

لماذا هذه الدراسات اللغوية؟

١ ـ ما جدوى هذه الدراسات اللغوية ؟

قبل ان نبدأ بالاطلاع على **بعض** المظاهر اللغوية التي يهتم عالم اللغة واضرابه بها ، وعلى مدى العمق من ناحية والتشعب والشمول التي أصبحت الدراسات المعاصرة تتميز بها من الناحية الاخرى ، وعلى الرغم من أن المجال لن يتسع الا لذكر **عدد محدود** من مجالات الاهتمام هذه ، كما لن يتسع حتى لايفاء اي منها حقه من البحث والايضاح ، فربما كان من الافضل أن نحاول الرد على التساؤل الذي لا بد انه يراود بعض القراء عن فائدة مثل هذه الدراسات اللغوية ، هذا اذا كانت لها أية فائدة ، وعما اذا كانت هنالك أية ضرورة لدراسة اللغة التي نتعايش معها طوال يقظتنا وحتى في احلامنا ، بحيث انها اصبحت جزءا لا يتجزأ منا .

نود ، قبل ان نبدأ الاجابة على أمثال هذه الاسئلة أن نشير الى ان مجردالسؤال بهذه الصيغة يعتبرهالعلماء النظريون جميعا ـ بما فيهم علماء اللغة النظريون اهانة كبيرة لهم . فهم يقولون أن لكل انسان الحق بدراسة أي مظهر من مظاهر السلوك الانساني ـ واللغة اهم تلك المظاهر جميعا ـ ، او حتى أي مظهر من مظاهر هذه الارض التي نعيش عليها ، او اي مظهر من مظاهر الكون بأسره الذي لا تشكل أرضنا الا احدى جزئياته ـ يقولون ان لكل انسان الحق في دراسة اي مظهر او أي امر طبيعي او عقلي لمجرد انه يثير اهتمامه ، ويجد فيه متعة خاصة بغض النظر عما اذا كانت لتلك الدراسة اية فائدة تطبيقية أو عملية . وهم يؤكدون أن هذا الكون زاخر بالاسرار التي لم نتوصل الى اكتشاف طبيعتها بعد ، ولذلك فان على كل من يجد في نفسه الميل والكفاءة والاستعداد أن يقوم

بدراسة أي موضوع يتعلق باي مظهر او جزء او ناحية من نواحي هذا الكون الواسع . كما يؤكدون ــ وهم على حق فيما يقولون ــ أن النظرية تسبق التطبيق دائما ، سواء أكان التطبيق في الذهن كهدف من أهداف العمل النظرى أم لم يكن ، وهذا هو الغالب . وفي العادة يتولى الاستفادة من النظرية من الناحية العملية اناس اخرون هم من ندعوهم بالعلماء التطبيقيين . ولكن هذا لا يعني أبدا أن جميع النظريات التي أتى بها الانسان في نواحي العلوم المختلفة ، قد وجدت لها جانبا تطبيقيا او فائدة عملية ، فتاريخ الفكر الانساني زاخر بآلاف النظريات التي لم يستفد منها أحد فائدة عملية بالمعنى المفهوم ، ومع ذلك فلم يمنع هذا المفكرين والعلماء المعاصرين من متابعة أبحاثهم النظرية البحتة دون النظر الى امكانية أو عدم امكانية الاستفادة منها .

لقد قلنا أن هذا الكون الواسع يزخر بالاسرار التي يحاول الانسان منذ وجد على هذه الارض أن يكتشفها ، ولكن أقربها الينا هي أسرار هذه الارض التي نعيش عليها ، ولا ريب ان اهم من يدب على ظهرها هو الانسان ، وان **اللغة** هي أهم مظهر من مظاهر سلوكه . اذا فهي ، أكثر من غيرها ، بل وقبل غيرها ، جديرة بالدراسة والبحث ما دامت مرتبطة بالانسان الى هذا الحد .

وقد حاول المفكرون ــ لا اللغويون فقط ــ على امتداد العصور أن يزيحوا الستار عن كثير من الغموض الذي يكتنف اللغة البشرية والتي لم يستطع الانسان حتى الان أن يتوصل الى ازالته كله ، وان توصل الى الاجابة عن بعض التساؤلات التي اثيرت خلال آلاف السنين من عمر البشرية على هذه الارض . ومن هذه التساؤلات الكثيرة ما يتعلق بأصل اللغات جميعا ، وهل لها أصل واحد أم عدة أصول ؟ وكيف بدات ؟ وكيف انتشرت ؟ وكيف تغيرت ؟ واي منها تنتمي الى فصيلة واحدة ؟ وكم عدد لغات العالم ؟ وكيف تتغير اللغة الواحدة عبر القرون ، سواء من حيث

اصواتها ام قواعدها الصرفية والنحوية ام دلالات مفرداتها ؟ وما هي علاقة المجتمع بهذه التغيرات ؟ وكيف تنشأ اللهجات ، وكيف تتوزع ؟ وكيف تنشأ لهجات خاصة بأقليات عرقية أو دينية أو قومية صغيرة تعيش في مجتمع كبير ؟ وهل هنالك فروق بين نوعيات اللغة التي تستعملها طبقات اجتماعية معينة ؟ أو بين انواع اللغة التي يستعملها الفرد نفسه مع أفراد اخرين تختلف علاقته بكل منهم من العلاقة الحميمة جدا الى الجهل الكلي ؟ ثم ما هي طبيعة اللغة ومن اي شيء تتكون ؟ وما هي علاقة اللغة بالفكر — وهل يمكن ان يوجد أحدهما بدون الاخر ؟ وما هي علاقة اللغة بالانسان نفسه ؟ وهل هو مفطور عليها ؟ واذا كان الامر كذلك ، فما هي طبيعة هذه القدرة النظرية ؟ وكيف يمكن للطفل أن يتعلم أية لغة يسمعها بشكل مستمر ؟ وهل الفروق الظاهرية بين اللغات فروق اساسية أم ان وجوه الشبه الاساسية بينها أهم من تلك الاختلافات الخارجية ؟ واذا كان الامر كذلك ، واذا توصلنا الى طبيعة اللغات عامة من حيث تركيبها الاساسي ، فهل يمكن أن نتخلص من مشكلة تعدد اللغات بأن **نخترع** لغة عالمية يتكلمها ويكتب بها جميع الناس اينما وجدوا ؟ وما هي المشاكل الحالية في الترجمة من لغة الى اخرى ؟ واذا كانت اللغات متشابهة في الاساس ، الا يمكن التوصل الى طريقة **آلية** للترجمة مثلا ؟

- لا نريد ان نستطرد فنذهب في مثل هذه الاسئلة الى نهايتها ، لانه ربما لا توجد نهاية فعلية لها . وهي تدل على مدى الاهتمام الواسع الذي أولاه الانسان لدراسة **اللغة** منذ القدم حتى اليوم ، وهو لم يكن يفعل ذلك دائما وفي ذهنه فائدة معينة يريد أن يجنيها من تلك الدراسة . لا شك أن هذا الامر كان واردا في أحيان كثيرة ، وربما كان افضل مثال على ذلك ما هدف اليه اللغويون العرب الاوائل عندما وضعوا امهات كتب القواعد من ضبط اللغة العربية بالشكل الذي نزل به القرآن الكريم خوفا مما يمكن أن يطرأ من التغيير على اللغة عبر السنين ، فيؤثر على معاني الآيات

القرآنية وما تهدف اليه . وقد كانوا يهدفون أيضا الى تعليم تلك اللغة بالذات لاطفال العرب وللمسلمين من غير العرب عبر السنين أيضا ، كما ما زلنا نهدف حتى اليوم ، وذلك لكي لا تضيع علاقتنا بديننا وتراثنا وحضارتنا بل وبقوميتنا العربية من أساسها .

اذا كان الهدف التطبيقي واردا في بعض الاحيان ، ولكن لم يكن واردا دائما . ولم يكن ما قلناه في الصفحات السابقة يقصد الى الايهام بأن لا فائدة ترجى من اية دراسات لغوية ، بل العكس هو الصحيح ، كما سيتضح بعد قليل . ولكن كل ما اردنا قوله ، هو أن الدراسات النظرية ستبقى مستمرة الى ما شاء الله سواء اكانت لها فائدة عملية أم لم تكن .

أما الدراسات اللغوية فان فوائدها تعادل في اهميتها اهمية **اللغة** نفسها التي تكون مادة البحث ، وسنعمل على تجميع هذه الفوائد ومحاولة تصنيفها تحت أبواب كبيرة حتى لا تبدو مبعثرة لا رابط بينها . ولكننا سنبدأ بأقلها اهمية ثم نتدرج الى ما هو اكثر اهمية حتى نصل الى أهم تلك الفوائد جميعا في أواخر هذا الفصل .

٢ ـ عندما تضطرب الامور :

والامور يمكن أن تضطرب وتختل بأشكال مختلفة . وربما كان أوضحها وأسهلها بالنسبة للغة هو ما يصيب بعض أجهزة الانسان ذات العلاقة باللغة من اضطراب أو تلف كأن يولد الطفل كفيفا أو يصاب بمرض يفقده بصره بعد حين . ولكن القارىء لهذا الكتاب سيلاحظ في الحال أننا لن نذكر البصر من ضمن أجهزة النطق . وهذا صحيح لان حديثنا سيتركز في الغالب على الكلام أي على المظهر المنطوق والمسموع من اللغة وليس على المظهر المكتوب منها . كما أننا لم نات على ذكر حواس أخرى كالشم والذوق واللمس مثلا ، ولكن ليس لنفس السبب بالطبع . الا اننا سنفترض الانسان القارىء في جميع ما سنكتبه تقريبا . فلهذه الحواس جميعا

اهميتها في **اكتساب** اللغة بوجه خاص ، وفي استعمالها بوجه عام . وحاسة البصر بخاصة هامة جدا في اكتساب اللغة من حيث دلالة الالفاظ على الاشياء المرئية ، ولكن لا اللغويون ولا التربويون أولوا هذا الامر اهتماما خاصا من الناحية التطبيقية ، وسبب ذلك انهم وجدوا أن معظم الاطفال المكفوفين يكتسبون اللغة بطريقة طبيعية تقريبا بمساعدة الاهل والرفاق قبل دخولهم المدارس فلم يهتموا بالمظهر المنطوق من اللغة بالنسبة لهؤلاء بل أولوا عنايتهم الخاصة للشكل المكتوب منها ، لكي لا يحرم هؤلاء من هذه النعمة التي يمكن ان يتمتع بها الاسوياء عن طريق التحاقهم بالمدارس ــ وربما كان من أمتع ما كتب باللغة العربية عن هذه التجربة المبكرة في اكتساب اللغة هو كتاب **الايــام** لطه حسين ــ .

ولمعالجة هذا الامر بالنسبة للمكفوفين ، اخترعت طريقة **بريل** (Braille) المعروفة والتــي تعتمد في جوهــرها على استبدال حروف الابجدية في لغة معينة برموز أخرى تعتمد على النقــط البارزة التي تنتظم كل مجموعة منها بطريقة معينة ، لتدل على حروف الابجدية . وهي شبيهة الى حد ما بالرموز المستعملة في البرقيات والمعروفة باسم (Morse Code) الا أن هذه تستطيع نقل الرسائل **بطريقة النقر الصوتية** الى اماكن بعيدة ، حيث يمكن سماعها ، بينما تعتمد الاولى على حاسة اللمس فقط ، وتتوفر الان آلات طابعة خاصة بطباعة الرموز المستعملة في طريقة بريل .

بالاضافة الى هذا فان توافر أجهزة التسجيل في العصــر الحاضر قد زاد في امكانية افادة المكفوفين ، فقد أصبحت بعض المكتبات متخصصة **في الكتب المسجلة على اشرطة** والتي يستطيع المكفوفون استعمالها عندما يشاؤون .

وكلا الطريقتين محدودتان بالطبع ولا تغنيان عن البصر تماما، لان امكانية تسجيل **جميع** الكتب أو كتابتها بطريقة بريل غير واردة، ولكنهما طريقتان لعلاج نقطة ضعف معينة ، وهما طريقتان ناجحتان اذا نظر اليهما من هذه الزاوية .

اما **الصم البكم فان مشكلتهم** اكبر بكثير من مشكلة المكفوفين، فهؤلاء لا يمنعهم فقد البصر من اكتساب لغة وهم في طفولتهم ـ بمساعدة الاهل طبعا ـ ولكن اولئك الذين يولدون وهم فاقدون لحاسة السمع او يفقدونها في طفولتهم المبكرة تواجههم صعوبة كبيرة للغاية في انهم لا يسمعون الاصوات لكي يتمكنوا من اصدار مثيلاتها ومن فهمها ، ولذلك يظلون عاجزين عن النطق اذا لم تلاحق حالاتهم منذ سنوات طفولتهم الاولى . فاذا وجد عند فحصهم أن لديهم مقدرة ولو ضئيلة جدا على السمع ، فان مشكلتهم تهون هذه الايام وذلك لتوفر الاجهزة الالكترونية الحديثة التي تستطيع أن تكبر حجم الصوت وقوته آلاف المرات ليصل الى الدقة المطلوبة ، وبذلك يمكن ان ينمو أولئك الاطفال نموا يكاد يكون طبيعيا . اما أولئك الذين لا فائدة من حاسة السمع عندهم ، فانهم يقاسون من هذه العاهة طوال حياتهم . الا أن وسائل عديدة قد جربت للتخفيف من مصابهم وكلها تعتمد بشكل رئيسي على محاولة تعليم هؤلاء النطق بشكل أو بآخر وكذلك تعليمهم **قراءة الشفاه لفهم** ما يقال لهم . وهذه الطريقة ناجحة الى حد ما كما انها تعتمد على المواجهة ورؤية الاصم للمتكلم ، والا فلا فائدة منها . كما ان هنالك رموزا مرئية تعتمد على الجسم واليدين بشكل خاص اخترعت انواع مختلفة منها في بلدان عدة ، وربما كان اكثرها شيوعا الان هي لغة الصم البكم المستعملة في الولايات المتحدة الامريكية . وهذه اللغة تساعد هؤلاء على التفاهم فيما بينهم ، وكذلك على التفاهم مع غيرهم بوساطة من يعرف هذه **اللغة الخاصة** ـ وقد شاهدنا قبل اشهر قلائل على شاشات التلفاز كيف كان الرئيس كارتر يخاطب عددا من الصم البكم وكيف كانت احدى السيدات تترجم لهم ما يقول بسرعة كبيرة ، بلغة الاشارة تلك ، فاستطاعوا أن يتصلوا برئيس دولتهم ، وان كان ذلك قد تم عن طريق شخص ثالث .

أما مجال النجاح الحقيقي في تعليم اللغة لهؤلاء المرضى ، فهو مجال القراءة والكتابة . وهنا لا توجد مشاكل صعبة الحل ، فقد تم التوصل الى طرق خاصة وفعالة جدا في تعليم القراءة والكتابة لاي أصم أبكم طالما أن مقدرته العقلية عادية ، وبذلك يكسبه المجتمع لا الى صف المثقفين فحسب بل والى صفوف الاعضاء الفعالين المنتجين الذين يمكنهم ان يكسبوا قوتهم بالطرق العادية أيضا .

ولعل من أقرب الامثلة لانواع الخدمة والمساعدة التي يمكن تقديمها للصم البكم (أو ضعيفي السمع) ما يجرى في **معاهد التربية الخاصة** بدولة الكويت ، حيث تستخدم طرق تعليمية حديثة جدا واجهزة الكترونية عصرية ، ما كانت لتتاح للناس في هذه الايام لولا ذلك التقدم الهائل في دراسة الامواج الصوتية التي يولدها الانسان عندما يتكلم . (وفي نفس المعاهد أيضا قسم خاص بالمكفوفين حيث يتعلمون القراءة والكتابة على طريقة **بريل**) .

بالاضافة الى الحالات التي ذكرت حتى الان ، هنالك بعض الاطفال الذين يولدون **بحلوق مشقوقة** او **بدون السنة** . وقد تبين أيضا أن بامكان أمثال هؤلاء أن يكتسبوا اللغة بدون صعوبة كبيرة ، رغم عدم تمكنهم من **نطق** الكلام الذي يريدون قوله .

وهذه الامثلة المرضية جميعا تدعونا أن نفرق بين أمرين :ــ الامر الاول هو **اللغة** والثاني هو **الكلام** ، اي الكلام المنطوق فعلا . أما **الكلام** فهو نطق الاصوات البشرية المعروفة . ولكن **اللغة** هي المقدرة على فهم ما يقال وعلى **تركيب** جمل جديدة ، والكلام أحد مظهريها الخارجيين أما المظهر الاخر فهو **الكتابة** .

نقول هذا في هذا الموضع لنخلص الى نتيجة هامة جدا بالنسبة لاكتساب اللغة وبالنسبة للاضطرابات اللغوية التي يمكن أن تصيب الانسان . فقد تبين من الامثلة المرضية السابقة أن عدم توافر القدرة على الرؤية أو النطق ليس سببا يمنع من اكتساب

اللغة البشرية بأشكال اخرى . كما سنرى بعد قليل أن بعض الاضطرابات اللغوية يمكن أن تطرأ على **النطق** دون أن تؤثر في مظاهر اللغة الاخرى . ومع أن كلا من **الكلام** (أو النطق) **واللغة** يعتمد على وجود أجهزة (mechanisms) بيولوجية (أو على الاصح ، فسيولوجية) في الجهاز العصبي المركزي للجسم ـ ومكانه الدماغ ـ ، الا أن معظم العلماء المختصين في هذا النوع من الدراسة المتصلة بعلاقة اللغة بالدماغ ، يعتقدون بأن **اللغة** أساسية أكثر من **النطق** أو **الكلام** . يقول **لنبرغ** (Lenneberg) الذي كان استاذ علم النفس وعلم بيولوجيا الاعصاب في جامعة كورنيل بأمريكا (١) وواحد من أكثر العلماء اهتماما وكتابة في هذا الموضوع ، يقول ان واحدا من أهم الاكتشافات في السنوات الاخيرة هو أن بامكان الاطفال الذين لم تتح لهم فرصة الكلام من قبل ؛ اذا لم يتعدوا سنا معينة ، أن يكتسبوا وينموا قدراتهم اللغوية . وانه قام هو نفسه بدراسة حالات عدد من الاطفال الذين أصيبت أدمغتهم قبل الولادة أو بعدها مباشرة ، بخلل بسيط منعهم من اصدار حتى أصوات المناغاة المعروفة ، ناهيك عن الكلام العادي ، ووجد أن بامكان هؤلاء الاطفال أن يكتسبوا اللغة اذا نموا فيجو عادي يسمعون فيه كلام الناس ويتعاملون معهم ، وان كانوا لن يتمكنوا من النطق بالكلام كالبشر العاديين . لقد كان الناس حتى عهد قريب جدا ينظرون الى أمثال هؤلاء الاطفال على أنهم متخلفون عقليا ولكن هذه النظرة بدأت تختلف الان واصبح بالامكان فحص القدرة اللغوية الكامنة عند الطفل بأساليب حديثة ، فاذا وجد أن تلك القدرة موجودة فعلا ، أمكن تزويد الطفل بالتعليم والتربية العاديين ، لا بما يزود به المتخلفون عقليا ، واصبح من الممكن الاستفادة من هذا الطفل استفادة شبه كاملة كعضو فعال في المجتمع .

---

(١) Eric Lenneberg : "Biological Aspects of Language," in G. Miller (ed.) : Psychology and Communication, (Voice of America), 1974, pp. 55-66.

وكما سنذكر في الفصل الثالث فان الدراسات قد اثبتت بطلان الاعتقاد السابق بوجود علاقة بين اللغة وحجم الدماغ ، فهنالك بعض الاقزام الذين لا يزيد طول أحدهم عن ٨٥ سنتميترا ، وحجم الراس عن راس طفل صغير جدا ، ومع ذلك فجميعهم يتقنون لغة واحدة على الاقل وبعضهم يتقن عدة لغات . ولكن من الثابت طبعا أن الدماغ هو مركز اللغة ، وأن المنطقة اليسرى منه بالذات هي المسؤولة عن اللغة . ومن أهم الدراسات التي تجري الان هي ما يقوم به أطباء الاعصاب والدماغ بالتعاون مع علماء اللغة للتعرف على طبيعة اللغة وتعقيداتها المختلفة من ناحية ولمحاولة تحديد ادق لتلك المناطق من الدماغ التي يمكن أن تكون متخصصة أو مسؤولة عن مهارات لغوية معينة ـ واحدى النتائج التي يمكن ان تخرج بها تلك الابحاث هي معرفة الطريقة التي يمكن أن تعالج بها بعض الحالات المرضية الناتجة عن اضطرابات الدماغ بسبب من ضربة أو نوبة قلبية أو مايشابههما . كما أن من الممكن أن تساعد هذه الدراسة على معرفة مظاهر اللغة التي يمكن أن تكون قد تضررت بسبب الضربة مثلا وذلك بتحديد المنطقة المصابة تحديدا دقيقا ومعرفة اختصاصها بالنسبة للغة ، وهذا يساعد طبعا على علاج المصاب عن طريق تنمية المظاهر او المهارات اللغوية الاخرى التي لم تتضرر بعد .

وبدراسة ادمغة المصابين باصابات مختلفة ، بالاضافة الى اساليب حديثة تستعمل للتجريب على ادمغة غير المصابين ، تبين مثلا :

(١) أن ذلك الجزء الواقع في المنطقة اليسرى من المخ والذي يسمى **منطقة بروكا** (Broca's Area) (١) هو الجزء المسؤول عن **برمجة الكلام** او **النطق** بشكل خاص بحيث أن اصابته ينتج عنها اختلال كبير في النطق وفي التركيب النحوي

(١) انظر الصفحة ١٧٤ وما يليها .

للجمل ، يصل أحيانا الى حد عدم التمكن من النطق اطلاقا . ولكن هذا لا يعني فقد المقدرة اللغوية ، لان المصاب في هذه المنطقة قادر على استعمال أعضاء النطق لوظائف اخرى بما في ذلك غناء نغمة معينة بدون استعمال المفردات . كما أن المصاب لا يتأثر من ناحية مقدرته على فهم ما يسمعه وما يقرأه .

(٢) ان الجزء الاخر من المخ الذي يسمى **منطقة فرنيكه** (Wernicke's Area) (١) يبدو مسؤولا عن **القدرة اللغوية** ، لا عن النطق . لانه اذا أصيب ، لا تتأثر طلاقة المريض الشفوية ، ولكن المصاب يجد صعوبة في ايجاد الكلمات المناسبة للمواقف المختلفة ، كما يجد صعوبة في الكتابة وفي فهم ما يسمع او يقرأ .

وهذان النوعان من الاختلال اللغوى هما مظهران من مظاهر الاضطراب المسمى بالحبسة (aphasia) الذي اكتشفت انواع مختلفة منه حتى الان . وان كان النوع الثاني المذكور هنا هو اكثرها شيوعا بالتأكيد .

وربما كان من بين أشكال هذا النوع الثاني من **الحبسة** أن يفقد المصاب السيطرة على الكلام ، اي أن ينطلق بالكلام المتواصل الذي لا معنى له في الغالب ، ولا يستطيع أن يتوقف الا بصعوبة بالغة . وهذا المصاب غالبا ، يجد صعوبة في الفهم وفي القراءة والكتابة ايضا .

(٣) ان تلك المجموعة من الالياف التي تصل بين منطقتي المخ اليمنى واليسرى والتي تسمى **الجسم الجاسيء** (١) (corpus callosum) لها اهمية خاصة بالنسبة للغة . فقد تبين مثلا ان احد المصابين **غير قادر على القراءة** بينما يقوم بالمهارات اللغوية الاخرى جميعا بدون صعوبة .

---

(١) انظر الصفحة ١٧٤ وما يليها .

وبفحص دماغه بعد موته تبين أن جزءا من المنطقة المسؤولة عن الابصار في المنطقة اليسرى من الدماغ تالفة ، كما أن ذلك الجزء من الحاجز ــ الجسم الجاسىء ــ الذي يصل بين منطقتي الابصار في جزئي الدماغ الايمن والايسر تالف ايضا . ولذلك فلم يكن بامكان الرسائل البصرية أن تصل الى المنطقة اليسرى المسؤولة عن اللغة . كما أن حالة أخرى كان فيها ذلك الجسم الواصل بين المنطقتين تالفا كليا قد تسبب في حالة من الصمم بالنسبة للغة فقط ، اي عدم المقدرة على فهم الكلام المسموع على الرغم من القدرة على سماع الاصوات الاخرى التي لا علاقة لها باللغة (١) .

لقد زاد الاهتمام بهذا النوع من الدراسات زيادة كبيرة في السنوات الاخيرة والعاملون بها متفائلون بنتائجها من الناحيتين العملية (العلاجية) والنظرية (المتعلقة بطبيعة اللغة وتركيبها) .

اما اهم تلك النتائج جميعا فهي أن أعراض جميع الاصابات التي تمت دراستها حتى الان تتبع نمطا معينا ومبادىء عامة يمكن ايجازها فيما يلي :

- أن اصابة بعض الياف الدماغ واتلافها لا تتسبب في خسارة أجزاء مختارة من اللغة كأن تختفي بعض الكلمات أو بعض القواعد النحوية مثلا من لغة المصاب ، بينما تبقى كلمات وقواعد اخرى على ما هي عليه .
- أن الاصابة لا يمكن ان تلغى القدرة اللغوية الغاء كاملا بينما يبقى المصاب في نفس الوقت طبيعيا من جميع الوجوه الاخرى .

---

(١) Norman Geschwind, "The Brain and Language", in G. Miller, op. cit. pp. 69 ff.

ـ أن ما يميز جميع اصابات الحبسة (aphasia) انها لا تقضي على اللغة قضاء تاما بل تسبب خللا في وظيفتها الطبيعية وفي استعمالها ، مما ينتج عنه اضطراب في التنسيق الداخلي واختلال في الاداء اللغوى الخارجي . ويشبه الاستاذ لنبرغ ما يحصل في مثل هذه الحالات ، ليس بخزانة المال التي يختفي جزء من محتوياتها ، بل بالحاسب الالكتروني الذي يختل عمل جزء الكتروني في داخله فتنتج عن ذلك أخطاء في حساباته (١) .

لذلك فان الاطباء يتجهون الان في علاج المصابين بالحبسة لا عن طريق اعادة تعليمهم اللغة كما نعلم اللغة الاجنبية للطلاب بل عن طريق اكتشاف تلك المهارات اللغوية التي لا زال المصاب يحتفظ بها ، وتنميتها بشكل يمكن أن تعوض فيه الى حد ما عن الخلل الذي طرأ على لغة المصاب . واذا كان لهذه الدراسات ان تؤتى اكلها فان على الاطباء المختصين بهذه النواحي أن يتعاونوا مع علماء اللغة سعيا وراء فهم أكبر لطبيعة اللغة ومقوماتها المختلفة وطريقة تأديتها لوظائفها ، لان الجهل بهذه الامور لن يؤدي بتلك الابحاث الى شيء .

ومما يجدر ذكره هنا ، أن الكلام السابق لا ينطبق على الاطفال حتى حوالي الرابعة عشرة من عمرهم . فقد تبين أن بامكانهم استعادة أية مقدرة لغوية يفقدونها بسبب اصابات الحبسة ، بعكس البالغين ، الذين عادة يفقدونها الى الابد . وتتضاءل هذه الامكانية لدى الاطفال الى ان تتوقف قبل سن العشرين من العمر . ويعزو العلماء ذلك الى ان النمو اللغوى يستمر ما دامت عملية النضوج الجسماني مستمرة ، ويتأثر بها . فالاطفال ضعاف العقول مثلا يكون نضوجهم الجسماني بطيئا بوجه عام . ولذلك فان بداية النمو اللغوى ـ اى اكتساب اللغة ـ تتاخر ،

(1) Lenneberg : op. cit. pp. 62-63.

كما أن النمو اللغوي نفسه يسير ببطء مسايرا في ذلك النضوج الجسماني العام . وعندما يتوقف هذا النضوج في حوالي الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من العمر يتوقف نمو اللغة ولما تبلغ مرحلة الكمال التي تبلغها في الناس الاسوياء قبل ذلك بسنوات طويلة . فيبقى مستوى اللغة عند ضعاف العقول على حاله فيما تبقى من سني حياتهم .

....

هذه أمثلة على اضطراب الامور اللغوية الناتج عن أسباب جسمانية ، وقد رأينا كيف تتضافر جهود العلماء من ذوي الاختصاصات المختلفة لعلاجها وللاستفادة من الدراسات التي تجرى عليها . ولكن لا بد لنا ، قبل أن ننتهي من هذا الموضوع ، أن نشير الى تلك الاضطرابات اللغوية التي تحدث نتيجة لعوامل وأمراض **نفسانية** .

يقول برندان ماهر (Brendan Maher) أستاذ علم النفس بجامعة هارفارد (١) أن الاهتمام بالعلاقة بين اللغة وبين علم الامراض النفسية قد زاد كثيرا في الآونة الاخيرة بعد أن تبين لعلماء النفس المعاصرين مدى المبالغة الشديدة في نظريات **فرويد** واسلوب التحليل النفسي الذي ابتدعه لمعرفة أسباب الامراض النفسية المختلفة تمهيدا لعلاجها . وقد ساعد على نمو هذا الاهتمام التطور الكبير الذي سنشير اليه في الفصل الثالث في الابحاث المتعلقة بطبيعة أو سيكولوجية اللغة بالاضافة الى توفير وسائل التحليل السريعة للغاية وبوساطة الحاسب الآلي (الكمبيوتر) .

فمن مجالات هذا الاهتمام مثلا العلاقة بين اللغة والمصابين بالمرض النفساني المعروف **بالفصام او انشطار الشخصية**

---

(١) Brendan Maher : "Language and Psychopathology", in G. Miller, op. cit. pp. 289-300.

وللمزيد من التفاصيل ، راجع الكتاب التالي :
B. Maher : Principles of Psychopathology, (McGraw-Hill), 1966.

(Schizophrenia) وهنا يستفيد الاطباء النفسيون من بعض ما توصل اليه علماء اللغة وغيرهم من مفاهيم تتعلق بكمية المعلومات (information) التي يحملها تعبير او جملة معينة . ومن تلك المفاهيم ما يطلق عليه تعبير **الفائض** (redundancy) الذي سنعود اليه في مناسبة قريبة ـ . وخلاصة هذا المفهوم ان في كل جملة ينطقها الانسان **فائضا** ، بمعنى ان من الممكن حذف بعض أجزاء الكلمات او بعض الكلمات الكاملة من الجملة دون أن يعطل ذلك مقدرة المستمع على فهم الرسالة التي تحملها تلك الجملة . وهذا الامر يبدو واضحا لنا اذا تذكرنا امرين : اولهما اللغة التي نستعملها في البرقيات والتي نحاول أن نحذف منها أكبر عدد من المفردات التي لا تؤثر تأثيرا مباشرا على مدى فهم الرسالة . والامر الثاني هو مقدرتنا على فهم اذاعات الراديو واحاديث الهاتف والاحاديث المشابهة لذلك التي تتم في وسط ضجيج كضجيج المصانع او حركة سير العربات في الشوارع المزدحمة . وفكرة **الفائض** هذه تعتمد على نظرية **الاحتمال** (probability theory) عند تطبيقها على الجملة ، وبوجه خاص على احتمال وقوع كلمة في سياق لغوي معين . فاذا عرفنا الكلمات القليلة الاولى من جملة معينة اصبح بامكاننا أن نخمن الكلمة التي يمكن أن تتلو كل كلمة سابقة بعد ذلك ، مع وجود احتمال ـ يختلف مقداره من حالة الى اخرى ـ بأن يكون تخميننا صحيحا . وهذه النظرية نظرية رياضية طبقها العلماء على اللغة واوجدوا لها الحسابات الدقيقة التي لا نريد أن ندخل فيها في هذا الموضع . ولكن ما لا بد من ذكره هنا أن هناك علاقة وثيقة بين **الفائض والفهم** ، فكلما زادت نسبة الفائض في الكلام سهل الفهم على السامع وزاد مقدار ما يفهمه من الكلام ، والعكس صحيح أيضا . وهنا نأتي الى ربط هذا كله بمرض **الفصام** .

لقد دلت تجارب عديدة على أن لغة المصابين بمرض **الفصام** تتميز بمستوى منخفض من **الفائض** ، بمعنى أن فهم هؤلاء للكلام

يقل عن الانسان السوي لعدم استفادتهم من السياقات اللغوية فيما سبق من ذلك الكلام . وقد تأكدت هذه النتيجة بمناهج تجريبية مختلفة . وربما استطاعت هذه النتيجة ان تفسر مشكلة هؤلاء المرضى . فالملاحظة العامة عن لغة هؤلاء هي أن المريض يبدو وكأنه يتمتع بروح الدعابة وكأنه يستخدم في حديثه التورية والتلاعب بالالفاظ بينما هو في الواقع يجد صعوبة في الاستفادة من السياقات السابقة في كلامه هو ، تلك السياقات التي يستفيد منها الانسان السوي لاتمام كل جملة ولاستعمال المفردات استعمالا سليما .

لقد درست ايضا مسالة تحسين السياقات للمساعدة على تذكر كلام قيل في وقت سابق . وقد تبين من التجارب أن هذا يساعد الاشخاص العاديين على التذكر ، بينما لا يكون له نفس الاثر على المصابين بالفصام .

كما أن تجارب اخرى اظهرت أن من الممكن ان تكون مشكلة هؤلاء المرضى هي عدم المقدرة على التركيز ، وسرعة تشتت افكارهم من موضوع الى اخر . يقول احدهم : « عندما يتكلم الناس معي فكأنهم يتكلمون لغة أخرى ، فمن الصعب علي أن أستوعب ما يقولون مرة واحدة ، فرأسي يزدحم بكلام فوق ما يحتمل ، ولذلك فاني لا افهم ما يقولون بل اني انسى ما أسمعه في الحال لاني لا استطيع ان أستمع الى كلامهم لمدة كافية ، وكأن ما اسمعه يتألف من نتف مبعثرة تحتاج الى أن تجمع مرة ثانية في الذهن » (1) .

لقد اجريت تجارب اخرى على مضمون او مادة كلام المصابين بالفصام ، وقد دلت هذه على أن من الممكن معرفة مدى شدة الاصابة بالمرض من معرفة نوع المواضيع التي يتكلمون فيها . فالكلام في المواضيع العاطفية ، كالحب مثلا دليل على شدة الاصابة، بينما الكلام عن الطقس او الاصدقاء مثلا يدل على أن الاصابة خفيفة .

---

(1) نفس المصدر السابق ص ٢٩٣ .

وخلاصة ما يمكن قوله بالنسبة للفصام حتى الان ، أن النظرة اليه قد اختلفت من اعتباره مرضا عقليا محضا ومعالجته على هذا الاساس ، الى اعتباره مرضا لغويا له علاقة باللغة والعقل على السواء ، ولكن الابحاث لا زالت مستمرة للكشف عن نواح اخرى تساعد على علاجه .

وليس الفصام هو المرض النفسي الوحيد الذي اختلفت النظرة اليه ، واصبحت الاكتشافات اللغوية المعاصرة تلعب دورا اكبر في محاولة فهم اسبابه وفي علاجه بل هناك امراض كثيرة اخرى غيره ، الا ان هذا المثل على ما نعتقد كاف لتوضيح الاتجاهات الحديثة في هذا المجال . كما انه ليس من الضروري أن يصل الاضطراب اللغوي الى حد المرض النفسي ، بل أن هناك كثيرا من اللبس واساءة الفهم يمكن ان يحصلا في الاتصال اليومي العادي الذي تلعب اللغة فيه أكبر دور بدون منازع . كما انه ليس من الضروري ان يكون سوء الفهم هذا غير مقصود ، بل ان من الممكن استخدام اللغة استخدامين : أحدهما حسن ، يهدف الى ايصال الافكار السليمة الى الاخرين ، والاخر سيء ، يقصد منه ايصال مفاهيم معينة ليست كلها جيدة بالضرورة الى الاخرين بقصد التأثير عليهم لسبب أو لآخر .

وهنا نجد انفسنا وقد بدانا الدخول في مبحث جديد واسع هو مبحث الاتصالات (communications) الذي يتصف بأهمية خاصة في أيامنا هذه ، والذي لم يصبح مبحثا منفصلا عن الدراسات اللغوية فحسب ، بل انه قد تفرع الى عدة مباحث فرعية مختلفة ، منها ما يعتمد على اللغة ، ومنها ما يعتمد على الصوت البشرى الذى هو مادة اللغة الانسانية ، ومنها ما يعتمد على اللغات الصناعية التي بني بعضها على اللغة البشرية ، ومنها ما يعتمد على لغتنا مضافا اليها بعض النظريات الرياضية . ولذلك يحسن

ان نبحث هذا المظهر أو الوظيفة الخاصة باللغة وهي وظيفة الاتصال بأنواعه في جزء خاص من هذا الفصل ، وهذا ما سنفعله في الصفحات القليلة التاليـــة .

٣ ـ اللغة كوسيلة للاتصال :

ان تعريف بعضهم بأن **اللغة وسيلة للاتصال بين البشر** ليس تعريفا دقيقا تماما . فمن ناحية ، يمكن أن يحصل الاتصال بين البشر بوسائل غير لغوية تتراوح بين ردود الفعل العفوية كاحمرار الوجه دلالة على الخجل أو العبوس تعبيرا عن الغضب والايحاء المتعمد بأحد أجزاء الوجه أو الجسم والوسائل الكثيرة الاخرى كالرسومات والنقــود والاعداد ..... والقصيدة الشعريـــة أو القطعة الموسيقية . ومن ناحية أخرى ، فان الاتصال ليس مقصورا على الانسان ، فعدد من الحيوانات تستعمل وسائل بعضها معقد جدا للاتصال فيما بينها ـ كما سنذكر فيما بعد ـ ومن ناحية ثالثة ، فليس الاتصال هو الوظيفة الوحيدة للغة البشرية ، فهي بالاضافة الى أنها وسيلة للاتصال بين البشر تقوم بوظائف أخرى متعددة ، فاللغة الواحدة المستعملة في مجتمع معين تعطى الفرد شعورا بالانتماء الى ذلك المجتمع . وهي كثيرا ما لا تعني غير هذا الشعور بالانتماء والامان كمعظم انواع التحية التي تستعمل في أوقات النهار المختلفة والتي فقدت معظم معانيهـا الحرفية ، وكمعظم الكلام العام الذي نتبادله مع غربــاء عنــا في الحفــلات والمناسبات المختلفة . واذا كان هذا النوع من الكلام يعطى الفرد شعورا بالامان والانتماء الاجتماعي ، فهنالك أيضا تلك الصلوات والادعية الدينية وما شابهها مما يحاول الفرد ان يقيم بها علاقة مع خالقه . كما أن هنالك نوعا من الكلام الذي يؤلف **حدثا** بمجرد النطق به ، كقول الرجل لزوجته « انت طالق » او قول البائع للشارى « بعتك كذا بكذا دينار » أو كقول القاضي للمتهم « حكمت عليك المحكمة بكذا » ، فهذا الكلام يؤدي معنى الحدث أو الفعل بمجرد قوله . وقريب من هذا تلك الاوامر والطلبات وانواع الرجاء

المتعددة التي يطلب بها الفرد أن يؤدى غيره عملا ما ، أي أنه يحاول عن طريقها التأثير في الجو أو البيئة المحيطة به . وهنالك أيضا وظيفة التعبير عن الفكر الانساني ، وان كانت العلاقة بين اللغة والفكر لم يمكن تحديدها حتى الان ، ولكن اللغة تستخدم أيضا للتعبير عن المشاعر والعواطف الانسانية في الادب عامة والشعر خاصة ، وهي تستخدم للتاثير في الناس تأثيرا حسنا أو سيئا . وهي في شكلها المكتوب ، او المحفوظ بطرق اخرى في عصرنا هذا ، تحفظ حضارة المجتمعات المختلفة للاجيال القادمة .

ولكن ، على الرغم من تعدد الوظائف التي تؤديها اللغة تبقى وظيفتها كوسيلة للاتصال بين البشر أهم تلك الوظائف جميعا . ونحن لو درسنا كلا من تلك الوظائف الاخرى التي ذكرناها قبل قليل ، لوجدنا في كل منها تقريبا احد الجوانب التي لها علاقة بالاتصال بين افراد المجتمع الواحد او الجنس البشرى بأسره .

ولكننا عندما نتحدث عن وظيفة اللغة كوسيلة للاتصال بين الناس ، نجد أنفسنا نتحدث عن ثلاثة أشياء مختلفة تقريبا . فهنالك ، أولا ، ما نسميه في زمننا هذا **بالاتصالات السلكية واللاسلكية** التي اصبحت جزءا هاما جدا من حياتنا المعاصرة . ثم هنالك **الناحية الرياضية** أو الحسابية للغة والتي تتعلق بمدى المعرفة أو المعلومات التي تحملها الجملة أو الكلمة في الجملة ، وهذه الناحية تعني بها **نظرية المعلومات**. (Information theory) وأخيرا هنالك الناحية التي تتعلق **بوظائف اللغة** . (Language Functions) والتى اشرنا اليها قبل قليل ــ وبخاصة تلك الوظائف التي تتعلق بالتعامل مع الجماهير ، ومحاولة التأثير عليها وإقناعها ، ويدخل ضمن ذلك كل من **الدعاية والاعلان** وهما من أخطر الوظائف اللغوية التي تستغل في هذه الايام .

اما الاتصالات السلكية واللاسلكية فهي تعتمد بالدرجة الاولى على تحليل وقياس مادة اللغة البشرية ، اي الصوت البشرى (وغير البشرى بالطبع) وتحويله من طاقة الى طاقة

اخرى ، وتوزيعه عبر الاسلاك أو عبر الهواء الى أماكن قريبة وبعيدة واختراع ما يلزم من المعدات والاجهزة لذلك . وكلنا نعيش هذه الايام عصر الهاتف والبرق واللاسلكي واستعمالات الاخير في الراديو والتلفاز والتلكس والطابعة البعيدة (tele-printer) وغيرها كما نعيش عصر الحاسب الآلي (الكمبيوتر) الذي يستعمل ايضا في احدث استعمالاته كوسيلة للاتصال بين الناس الذين يعيشون على مسافات بعيدة من بعضهم بعضا . وطبيعة الصوت التي تعتمد عليها هذه الناحية من نواحي الاتصال ليست مما يختص به علماء اللغة بوجه خاص ، فبعضهم ممن يختص بعلم الاصوات يساهم في هذا النوع من الدراسة ، ولكن لاهداف نظرية اكثر منها عملية . أما دراسة طبيعة الصوت اثناء مروره في الهواء فهي من اختصاص علماء الطبيعة (الفيزياء) وهم الذين قاموا وما زالوا يقومون بالتجارب والابحاث المتعلقة بهذا الموضوع ولذلك فعملهم ونتائج دراساتهم لا تدخل في نطاق علوم اللغة بمعناها الدقيق . ولهذا السبب فانا لن نتعرض لها بأكثر مما قلناه هنا ، ويمكن لمن كان له اهتمام خاص بذلك متابعة الموضوع في كتب الفيزياء ، وبخاصة ما يبحث منها في طبيعة الصوت .

أما **نظرية المعلومات** وتسمى احيانا **نظرية الاتصال** (Communication theory) التي أشرنا اليها اشارة سريعة في الجزء الثاني من هذا الفصل ، فهي نظرية علمية تعتمد على الرياضيات بشكل خاص ، وقد طلع بها في بادىء الامر اولئك المهندسون المختصون بتصميم الدوائر الكهربائية اللازمة لشبكات الهاتف والتلغراف . فقد كان همهم أن ينتجوا معدات ذات حد اقصى من الكفاءة في استعمال القنوات (channels) وهذا يتطلب طريقة لقياس السعة (capacity) النظرية لكل قناة ، بالاضافة الى مقدار تلك السعة المستخدمة في البث بأي **نظام رمزي للاتصال** (code) . ولذلك فان موضوع **الاتصالات** أوسع بكثير من اللغة البشرية ، وان كان يشملها طبعا ، ويتطلب توافر العناصر

الاساسية للاتصال التي يتطلب الاتصال اللغوي توافرها من نظام رمزي (code) الى قناة (channel) او وسيط لنقل الرمز كالصوت والموجات الكهرومغناطيسية والضوء والنبضات الكهربائية وغيرها ، الى انسان او جهاز يقوم بتركيب الرسالة (encoder) الى تركيب رسالة ذات معنى الى فك رموز تلك الرسالة على يد انسان او آلة (decoder) . ولكن ليس من الضروري أن تكون هذه العناصر مما يتعلق باللغة البشرية ، فنظرية الاتصال تعتبر اشارات المرور جزءا من نظام اتصال معين ، وكذلك جهاز ضبط الحرارة في السيارة او المنزل ، وجهاز الانذار وما اليها .

وتهتم نظرية الاتصال بشكل خاص بقياس كمية المعلومات التي تحملها اشارة معينة (signal) في سياق معين . وهنا يجب أن ننتبه لما نقصده بتعبير « معلومات » في هذه النظرية فان المعلومات تزيد كلما زاد عدد الاشارات البديلة . فلو فرضنا أن احمد اتفق مع علي على نظام للاتصال الليلي مؤلف من حركتين ضوئيتين : الاولى اشارة ضوئية واحدة والاخرى اشارتان . الاولى تشير الى وجود شخص ما في بيت احمد مثلا والاخرى تشير الى عدم وجوده . فهذا نظام بسيط للغاية وسعته من حيث كمية المعلومات التي يمكن أن يبثها قليلة للغاية . أما اذا زادت تلك الاشارات فان كمية المعلومات التي يصبح بامكان النظام ككل بثها تزيد تبعا لعدد الاشارات . وقد اتفق على قياس المعلومات بوحدة تسمى (bit) أو (binit) يمكن أن نسميها وحدة المعلومات ، كما اتفق على أن سعة نظام للاتصال يعتمد على اشارتين اثنتين فقط ، احتمال وقوع كل منهما في السياق المعين مساو للاخر ، يساوى وحدة معلومات واحدة . فاذا زادت الاشارات الى اربع متساوية في احتمال الوقوع في السياقات المختلفة ، اصبحت المعلومات = ٢ وحدة لكل استعمال ، فاذا زاد عدد الاشارات الى (٨) ثمانية أصبحت السعة = ٣ وحدات لكل استعمال . وبعبارة اخرى تبلغ

سعة نظام كامل من هذا النوع : اللوغاريتم للاساس ٢ لعـدد الاشارات البديلة أو :

لو ٢ الاشارات البديلة .

ولكننا في هذا النظام افترضنا ان احتمال وقوع كل اشارة في السياقات المختلفة مساو للاشارة الاخرى ، وهـذا عمليا غـير صحيح . فاذا اخذنا مثلا على نظام بسيط للاتصال ذلك الجهاز المستعمل في المحلات التجارية للانذار من اللصوص ، نجد أن هذا النظام يعتمد على اشارتين فقط هما : الصمت وقرع الجرس . ولكن احتمال قرع الجرس أقل بمراحل من الصمت (لان الجرس لا يقرع الا في الحالات النادرة التي يهاجم فيها اللصوص المحل التجاري) . ولذلك فانا نقول أن قرع الجرس ذا الاحتمال المنخفض يعطي من المعلومات أكثر بكثير من اشارة الصمت العالية الاحتمال .

لقد قام العلماء بهذه الطريقة بحسـاب السعة أو كميـة المعلومات التي يمكن ان يبثها جهاز اتصال معين بأكمله ، كمـا توصلوا الى معادلة بسيطة بالنسـبة لسعة معلومات **ايـة اشـارة** في سياق معين ، هي المعادلة التالية :

كمية المعلومات = اللوغاريتم للاساس ٢ لمعكوس احتمـال وقوع الاشارة أو كمية المعلومات = لو ٢ $\frac{١}{\text{الاحتمال}}$ $(I = \text{Log}\,2\ 1/p)$

فلو فرضنا أن عندنا نظاما للاتصال مؤلفا من اشارتين اثنتين فقط ووجدنا من دراسة عدد كبير من الرسائل المركبة من تينك الاشارتين أن الاشارة س مثلا ترد مرة واحدة كل ١٥ مرة ترد فيها الاشارة الاخرى ص .

نقول ان نسبة ورود الاشارة س هي $\frac{١}{١٦}$ أو ٠٦٢٥ر. ، بينما نسبة ورود الاشارة ص هي $\frac{١٥}{١٦}$ أو ٩٤٧٥ر. ومجموعهما ، كمـا

هو الحال في جميع الحالات المشابهة هو العدد الصحيح ١ . أما **المعكوس** فهو مقلوب الكسر العادي . فمعكوس احتمال الاشارة

الاولى س هو $\frac{١٦}{١}$ اي = ١٦ . ومعكوس احتمال الاشارة ص هو $\frac{١٦}{١٥}$ أو ١٫٠٦٧ وهكذا تكون كمية المعلومات التي تحملها الاشارة س هي : —

لو ٢ ١/ (١/١٦) = وحدات .

اما بالنسبة للاشارة ص ، فان كمية المعلومات التي تعطيها هي :

لو ٢ ١ (١٥/١٦) = ٠٫٠٩٣ وحدة .

بعبارة أخرى فان الإشارة ص ترد ١٥ مرة اكثر من الاشارة س ، ولكنها تحمل فقط $\frac{١}{٤٣}$ من كمية المعلومات التي تحملها الاشارة س .

أما سبب قياس كمية المعلومات بهذه الوحدات التي تعتمد على اللوغاريتم للاساس ٢ ، بدلا من اللوغاريتم للاساس ١٠ الاكثر شيوعا في الرياضيات فهو أن معظم الاجهزة المستعملة لحفظ وتوزيع المعلومات كالحاسب الآلي (الكمبيوتر) تعمل على أساس ثنائي ، فالشريط المستعمل في الحاسب الآلي تسجل عليه المعلومات كسلاسل من نقاط ممغنطة أو غير ممغنطة ، كما أن المعلومات ترسل تلغرافيا على اساس سلسلة من النبضات الكهربائية ، القصيرة أو الطويلة ، الموجبة الشحنة الكهربائية ، أو السالبة وهكذا . وربما كان لهذه الطريقة في القياس فائدة خاصة عند تطبيقها على اللغة البشرية ، لان معظم المقارنات (contrasts) التي نلاحظها فيها تكون عادة على اساس ثنائي ، كما نرجو أن يتضح من بحثنا لانظمة اللغة المختلفة في الفصل الخامس .

لا نعتقد أن هنالك ضرورة للمضي في التفاصيل الرياضية لهذه النظرية لانها لن تكون سهلة الفهم على القارىء الا اذا أعطيت كاملة مفصلة ، ولا مجال لذلك في هذا الموضع .

ما نود أن نقوله هنا هو أن المنهج المستعمل في هذه النظرية قد استعمل احيانا لمحاولة التوصل الى بعض الخصائص اللغوية . ومن أهم هذه الخصائص خاصية **الفائض** (redundancy) التي أمكن حسابها بدقة الان والتي لولاها لما استطعنا فهم ما يقال لنا ، بسبب الضجة بانواعها المختلفة التي يتعرض لها الصوت اثناء مروره في الهواء وقبل وصوله الى اذن السامع ، ويلعب **قانون الاحتمال** دورا هاما في هذا الموضوع وربما كان اوضح مثل على **الفائض** هو تهجئة الكلمات الانكليزية التي يقع فيها الحرف (q) . فهذا الحرف يكون دائما في تلك اللغة متبوعا دائما وبدون استثناء بالحرف (u) . أي ان احتمال وقوع هذا الحرف الاخير بعد الحرف الاول هو ١٠٠٪ ، **فهو فائض** كله واذا أردنا قياس المعلومات التي يحملها ، نجد أنه لا قيمة اخبارية له على الاطلاق .

ومن الامثلة على هذا ايضا ما نطلق عليه تعبير (الكليشيهات) أي الامثال والتعابير المتداولة على نطاق واسع جدا بحيث تفقد معناها الاساسي ، وتكون في نفس الوقت سهلة جدا على الفهم ، حتى لو لم يكملها المتكلم كلها . فنحن حالما نسمع شخصا يبدأ جملة بقوله :

لا حول ....
نستطيع أن نتمها بقولنا
.... ولا قوة الا بالله .

ونحن واثقون الى حد كبير بأن هذا ما سيقوله المتكلم . والامثلة على ذلك كثيرة جدا .

ومن أسباب حدوث **الفائض** الضروري جدا لكل لغة بشرية تلك القيود المفروضة على طرق التركيب المختلفة في اللغة ، سواء تلك المفروضة على تركيب الاصوات بعضها مع بعض لتكوين الكلمات او تلك المفروضة على تركيب الكلمات بعضها مع بعض لتكوين الجمل ، وغير ذلك . فنحن اذا حسبنا رياضيا عدد الكلمات المختلفة التي يمكن ان تنتج من تركيب اية خمسة من اصوات اللغة الانجليزية التي تبلغ حوالي ستة واربعين ، فان العدد هو : ٢٠٥ر٩٦٢ر٩٧٦ ، (أي حوالي ٢٠٦ مليون كلمة) ولكن الواقع أن **جميع** كلمات اللغة الانكليزية الموجودة في اكبر المعاجم لا تزيد كثيرا عن نصف مليون . اذا ، العدد الحقيقي لتلك الكلمات المؤلفة من خمسة أصوات أقل بكثير من ذلك العدد . والسبب هو تلك القيود المذكورة سابقا ، والتي اذا عرفناها استطعنا ان نحسب عدد تلك الكلمات بدقة اكبر بكثير . (١)

وقبل ان نترك **نظرية الاتصال** تجدر الاشارة الى ظاهرة اخرى هامة من ظواهر الاتصال التي تنطبق على اللغة ايضا ، وهي ما تسمى **بالحمل الوظيفي** (functional load) . ولشرح هذه الظاهرة نأخذ أمثلة من النظام الصوتي للغة الانكليزية .

فهنالك **عدد كبير جدا** من الكلمات الانكليزية التي تختلف كل اثنتين منها ، الواحدة عن الاخرى بورود الصوت (p) في احداهما مقابل (b) في الاخرى مثل : pad/bad pack/back pit/bit وبسبب العدد الكبير من الكلمات التي تحصل فيها هذه **المقابلة** (contrast) في اللغة ، نقول بأن لهذين العنصرين : **حملا وظيفيا عاليا** .

---

(١) انظر تفصيلات اكثر عن نظرية الاتصال في المرجعين التاليين :

1. H. A. Gleason : An Introduction to Descriptive Linguistics (Holt, Rinehart & Winston), 1966, pp. 373-390.
2. J. Lyons : Introduction to Theoretical Linguistics (C.U.P.), 1968, pp. 84-98.

فاذا اخذنا صوتين اخرين مثل (ث) و (ذ) نجد ان المقابلة بينهما محصورة في عدد اصغر من الكلمات ، لذلك نقول ان **الحمل الوظيفي** لهذين العنصرين اقل منه في العنصرين السابقين ، واذا احصينا الكلمات الانكليزية التي تحصل فيها المقابلة بين الصوتين (ش) و (ج) في أوائل الكلمات ، نجد انها اقل عددا من المقابلتين السابقتين ، لذلك نقول ان **الحمل الوظيفي** لهذين العنصرين ، هو الاقل بين العناصر الستة المذكورة .

ان التطبيق العملي لهذه الظاهرة يتعلق بالناحية التعليمية للغة . فكلما ارتفع **الحمل الوظيفي** لعنصرين من عناصر اللغة ، اصبح من الضروري الاهتمام بالمقابلة التي تقوم بين ذينك العنصرين والتأكد من اتفاق تلك المقابلة خشية اللبس وسوء الفهم . كما ان هذه الظاهرة ايضا تفيد الدراسات اللغوية التاريخية . فقد اتضح ان المقابلات ذات الحمل الوظيفي العالي تقاوم الاختفاء من اللغة عند انحدارها من جيل الى جيل اخر بعكس تلك المقابلات التي يكون حملها الوظيفي منخفضا .

....

ننتقل الان الى بحث احدى الوظائف الاساسية الاخرى للغة بالاضافة الى الاتصال بالمعنى المذكور آنفا ، وهي التي تعتبر في نظر الكثيرين أهم وأخطر وظائف اللغة جميعا ، ونعني بها وظيفة **التأثير على الاخرين** او وظيفة **الاقناع** (persuasion) ، اي اقناع الاخرين بالرسالة التي تبعث بها اليهم .

وهذه ليست وظيفة جديدة تم اكتشافها مؤخرا ، بل هي قديمة جدا ، كما ان وعي الناس لاهميتها وعنايتهم بها كانا أمرين واضحين في عصور مختلفة نعرف منها بوجه خاص التاريخ الاغريقي القديم والعصور الرومانية القديمة والعهود العربية في أوجها ، وعهودا اخرى من تاريخ العالمين القديم والوسيط ، ولم ينقطع هذا الاهتمام في البلدان المختلفة في العصور الحديثة . ولكن ما اكسب

هذه الوظيفة أهمية خاصة بل واكسبها خطورة في احيان كثيرة هي وسائل الاعــلام الجماهيرية (mass media) التي اصبحت متوافرة في عصرنا الحاضر بشكل لم يسبق له مثيل من قبل ، والتي تتمثل بوجه خاص في الصحافة والافلام السينمائية والراديو والتلفاز .

لقد كان الاقناع فنا يعتمد على المنطق من ناحية وعلى البلاغة والفصاحة اللغويتين من ناحية اخرى ، ولكنه كاد ان يصبح علما الان بعد ان اصبح يعتمد على المنطق وعلم النفس من ناحية وعلــى الدراسات اللغوية الحديثة وبخاصة في علم المعاني من ناحية اخرى .

وربما كان من أهم العوامل التي تساعد على الحوار المقنع تحديد معاني المفردات المستعملة تحديدا دقيقا لئلا يكون كل مــن المتحاورين يستعملها بمعنى مختلف عن الاخر فلا ينتج عن ذلك اقناع واقتناع ، بل لبس وسوء تفاهم . وهذه الكلمات على نوعين : نوع له معان متعددة يختلف احداها عن الاخر كثيرا او قليلا ، وهــذه الكلمات كثيرة في كل لغة . ونوع اخر من الكلمات هي تلك التي تشير الى معان مجردة ، **كالحق والعدل والشرف والحرية والدمقراطية** وامثالها . وكثــيرا ما استعملت امثــال هذه الكلمــات ولا زالت تستعمل للدلالة على امور بعيدة كل البعد حتى عن المفهوم الشعبي الشائع لكل منها ، وقد اصاب الفيلسوف الفرنسي فولتير حــين قال « قبــل أن ابحث معك أي شــيء ، يجب ان تحدد معانــي كلماتك » .

وكما سنرى في الفصــل الخامس فان علــم المعاني الحديث (semantics) لا يقتصر على دراسة المفردات ومحاولة التوصل الى افضل الطرق لتحديد معانيها وايجاد الصلات بين كل مجموعة مترابطة منها ، بل يمتد الى معاني الجمل التي راينا ان بعضا منها يمكن ان يطاله الابهام ايضا بسبب من مفرداتها او تراكيبها فيصبح للجملة اكثر من معنى ، ويتسبب ذلك في كثير من سوء الفهم .

ان العلاقة بين اللغة والفكر علاقة وثيقة للغاية . ومهما اختلفت الآراء في نوعية تلك العلاقة ، وأي منهما سابق او مسبب للاخر ، فلا شك ان للغة اثرا كبيرا على الفكر ، ولذلك فان للدراسات اللغوية اهمية خاصة لكل موضوع يتعلق بالفكر ومن بين هذه المواضيع عملية المناقشة العلمية واقناع الناس بافكار معينة .

لقد كنا نتحدث حتى الان عن الجانب الايجابي من وظيفة **الاقناع** اللغوية ، ولكن خطورتها تتجلى في العصر الحاضر في استعمال هذه الوظيفة على نطاق واسع جدا وبالتعاون مع العاملين في حقول اخرى وبخاصة علم النفس ، للتأثير على الجماهير من الناحيتين الاقتصادية والسياسية . اما الناحية الاولى فيستخدم لها ما يسمى **بالاعلان التجاري** ، واما الناحية الاخرى فان من ضمن ما يستخدم لها **فن الدعاية** .

لقد أصبح الاعلان التجاري على نطاق واسع جدا من اسس النظام الاقتصادي الراسمالي . فليس باستطاعة الآت المصانع التي تنتج المواد والسلع المختلفة أن تستمر في دورانها ، وملايين العمال الذين يعملون فيها ان يستمروا في اعمالهم وفي كسب قوتهم اذا لم تقم اجهزة الدعاية لتلك المنتجات بالاعلان عنها بشتى الطرق والاساليب المغرية وبشكل متصل لحث المستهلك على المزيد من الاستهلاك وعلى المزيد من ابدال القديم بالجديد ، مع أن القديم ليس قديما بالفعل ولا الجديد جديدا بالفعل ، الا من حيث أن احدهما سابق للاخر زمنيا وربما لا يمتاز الجديد على القديم بشيء على الاطلاق ، بل ربما كان القديم أفضل من الجديد مادة وصنعا . ولكنها آلة الصناعة الرهيبة التي أن توقفت عن الدوران او حتى ان تباطأ دورانها في البلدان المسيطرة على معظم صناعة العالم ، وهي تعد على الاصابع فان كسادا اقتصاديا ومشاكل اقتصادية يمكن ان تخل بتوازن العالم باسره .

ان فن الاعلان التجاري كاد ان يصبح علما في العصر الحاضر ، تنفق عليه الاموال الطائلة ، وتجند له بعض افضل العقول في العالم لمعرفة افضل الطرق لتسويق المنتجات ، ويعتمد على عدة علوم ومباحث ، ولكنه يستعمل اللغة كاحدى الوسائل الرئيسية للوصول الى عقل المستهلك واقناعه بالمزيد من الشراء وبالمزيد من الانفاق .

اما الدعاية السياسية بالذات فيمكن ان تكون للافراد الراغبين في الوصول الى نوع من الحكم عن طريق نوع من الانتخابات ، كما يمكن ان تكون للحكومات او ضدها . وهذه الوظيفة التي تستخدم اللغة لها ، من اخطر الوظائف على الاطلاق . فبينما يمكن ان تكون بعض هذه الدعاية موضوعية الى حد ما ، فان معظمها ليس كذلك ، يحاول القائمون عليها اخفاء ما لا يريدون واظهار ما يريدون وهم يحاولون التأثير على الناس بطرق شتى واساليب تختلف من بيئة الى اخرى ، واخطرها ما لم يظهر كدعاية على الاطلاق ، بل يبدو وكأنه عرض موضوعي بريء لموضوع معين يتعلق بشخص او بحكومة او بهيئة او بحزب سياسي ، بينما يكون السم فيه مغلفا بالسكر . وهذا النوع الهادىء المدروس المتواصل هو الذي بامكانه ان يخاطب عقول المثقفين بوجه خاص ويستعمل في المجتمعات ذات المستوى الثقافي الجيد وذلك لتكوين **رأي عام** متفق مع اتجاه الحكم ، ولكن يبدو وكأنه صادر عن مجموع الافراد الذين يتألف منهم المجتمع . أما الدعاية التي تخاطب العواطف بشكل خاص وتحاول اثارة الناس عن هذا الطريق فهي تصلح وتستعمل فعلا لمخاطبة المجتمعات المتخلفة ثقافيا والتي يتصرف افرادها بعواطفهم اكثر مما يتصرفون بعقولهم . لكن اثر هذا النوع من الدعاية لا يستمر طويلا لان ثورة العواطف لا تستمر طويلا ، بينما عمر القناعة العقلية اطول بمراحل .

ومن انواع الدعاية ما نعرفه جميعا وما نسمعه ونراه في أوقات الازمات والحروب ومن هذه ايضا ما يلجأ اصحابه الى الكذب واخفاء الحقائق وهو اقل الدعايات اثرا ، ومنها ما يعتمد على

اظهار الحقائق بشكل اقرب الى الصدق ويكسب ثقة الناس الذين يستمعون اليه فيترك فيهم أثرا عميقا .

وتستعمل للدعاية ، كما تستعمل للاعلان ، **وسائل الاتصال الجماهيرية** ، وكلما اتسع نطاق هذه الوسائل فوصلت الى مسافات ابعد وجمهور اكبر زاد اثرها وفعلها في النفوس .

ان دراسات متشعبة للغاية تجرى بشكل مستمر على محتوى وطريقة استعمال هذه الوسائل بحيث تخدم الاغراض المختلفة ، بعد ان اصبح لها ذلك الاثر العميق الشامل على سلوك الناس في كل مكان ، واستعمال **اللغة** كعنصر اساسي في تلك الوسائل يخضع لدراسات لا حصر لها ، فقد اصبحت وسائل الاتصال الجماهيرية في متناول كل فرد واصبحت تدخل كل بيت بأحد أشكالها المختلفة ، ولذلك فان الدراسات النظرية التي يستند عليها استعمال تلك الوسائل ، ومنها الدراسات اللغوية امر لا غنى عنه بحال من الاحوال .

٤ ـ تعليم اللغات

لربما كان أهم المجالات التي ظهر فيها أثر الدراسات اللغوية الحديثة هو مجال تعليم اللغات القومية منها والاجنبية ، والاخيرة بوجه خاص .

(أ) تعليم اللغات القومية :

أما بالنسبة لتعليم اللغة القومية فقد كان عطاء علم اللغة الحديث قليلا نسبيا ، وربما كان سبب ذلك ان الطفل يكون قد اكتسب بالفعل اسس اللغة المنطوقة قبل ان يلتحق بالمدرسة ويستعملها على نطاق واسع لقضاء جميع حاجاته ، وهو يذهب للمدرسة ليتعلم القراءة والكتابة بشكل رئيسي ، وسنرى فيما بعد كيف ان لغويي القرن الحالي ركزوا جل اهتمامهم على اللغة المنطوقة

على اعتبار انها هي الاساس بينما اعتبروا اللغة المكتوبة مظهرا ثانويا للغة ولذلك لم تحظ بالعناية الكافية منهم . بل ان الواقع اننا نلاحظ وجود رد فعل ضد هذا الشكل من اشكال اللغة خلال القرن الحالي ناتج عن التركيز عليه خلال جميع القرون السابقة بدون استثناء . فماذا قدم علماء اللغة المحدثون ، اذا ، لمساعدة المدرسين على تحسين ادائهم في مجال تعليم اللغات القومية ؟

ربما كان اهم ما فعلوه في هذا المجال هو توضيحهم للعلاقة بين المظهرين المنطوق والمكتوب من اللغة . فاللغويون المحدثون لا يفضلون واحدة على الاخرى بل يعتبرون أنهما مظهران مختلفان في كثير من الوجوه ولكل منهما وظيفة خاصة به واشكال خاصة به فاذا فهمنا هذا اختلفت نظرتنا التقليدية التي كانت تعتبر لغة الكلام شكلا ممسوخا مشوها من اشكال اللغة المحترمة التي هي اللغة المكتوبة فالاخيرة في الغالب هي الشكل الرسمي من اللغة الذي يتمتع بخصائص معينة من حيث مفرداته وتراكيبه الخ . بينما لغة الكلام هي الشكل غير الرسمي في الغالب الذي يستعمل في مواضع الاتصال اليومية والذي يتمتع ايضا بخصائص مشابهة احيانا ومختلفة احيانا اخرى عن الشكل الاول . وبهذا المنظار يجب ان ننظر الى كل من هذين الشكلين ، ولا نفضل احدهما عن الاخر من الناحية اللغوية .

وهنا تواجهنا مشكلة اللهجات الواسعة الانتشار كاللهجة التي تستعمل في قطر بأكمله وتختلف في امور كثيرة من حيث الناحية الصوتية او الصرفية / النحوية او المفردات ومعانيها الخ عن لهجة اخرى تستعمل في قطر آخر يستعمل نفس اللغة الام في شكلها المكتوب كما هو حادث بالنسبة لمعظم اللغات المستعملة حاليا ، والتي كانت مستعملة في السابق . لقد بين علماء اللغة بكل وضوح ان اللغة كائن حي متغير باستمرار وان ذلك التغيير ظاهرة طبيعية ، استطاعوا في بعض الاحيان ان يكتشفوا قوانينها ، وانه لا يمكن التصدي لهذه الظاهرة بقصد ايقاف سيرها عن طريق المجامع

والاكاديميات اللغوية او بقرارات حكومية او غيرها . كما اصبح جليا الان ان معظم اللغات الرئيسية الواسعة الانتشار في العالم كالانكليزية والفرنسية والروسية والعربية وغيرها لم تكن كل منها الا احدى اللهجات التي انفصلت عن اللغة الام ، وانها كانت في وقت من الاوقات تعتبر صورة مشوهة غير محترمة من تلك اللغة الام .

تم تواجهنا في المدارس ايضا اللهجات المحلية الاضيق نطاقا مما سبق والتي نلاحظها بين مواطني القطر الواحد ممن يسكنون البادية او الريف او المدينة الصغيرة او الكبيرة ، بل وتلك اللهجات المحلية جدا التي تميز مدينة عن مدينة او قرية عن قرية بل وجزءا من مدينة واحدة عن جزء اخر منها . بالاضافة الى تلك اللهجات التي تميز الطفل القادم من اسرة غير مثقفة وذلك القادم من اسرة اخرى يتمتع افرادها بمستوى ثقافي رفيع .

ان الموقف من جميع هذه الاختلافات في اللهجات واحد من وجهة النظر اللغوية المحضة . فكلها اشكال معترف بها وليس لاي منها ميزة او فضل على الاخرى ، وكل منها تستحق الدراسة كمظهر من عدة مظاهر للغة الواحدة . ولكن وجهة النظر اللغوية هذه لا تساعد المدرس في تعليم شكل موحد من اللغة للجميع ، كما لا تساعد السلطات الحكومية على اتخاذ اسلوب للمحافظة على وحدة عناصر الامة المختلفة ، تلك الوحدة التي تعتبر اللغة الواحدة أهم مقوماتها على الاطلاق . ولذلك فالحاجة تدعو الى قرار سياسي في كل دولة على حدة ، وفي بعض الاحيان لمجموعة من الدول التي يستعمل مواطنوها لغة واحدة كما هو الحال بالنسبة للدول العربية ، يحدد تلك اللغة الموحدة التي ينبغي تدريسها للاطفال في المدارس ، بغية التقريب بين ابناء الامة الواحدة والثقافة الواحدة والدين الواحد بالنسبة للغالبية العظمى . وليس مثل هذا القرار سهلا كما يتصور بعض الناس ، بل هو في غاية الصعوبة في بعض الحالات . ولعل الامة العربية اسعد حالا من غيرها بالنسبة لهذا الوضع ، فقد حفظ لنا

القرآن الكريم لغة كاملة ذات اسس مشتركة يعتمد عليها في الوقت الحاضر لنشر الوعي الموحد بالتراث الواحد والمصير الواحد بالنسبة لابناء الامة العربية جميعا ، ولا شك ان انتشار التعليم في البلدان العربية واتخاذ اللغة العربية الفصحى المبسطة في المراحل الاولى كلغة واحدة للتعليم في مدارس العالم العربي من أهم العوامل التي ستساعد على التقريب بين أبناء الامة الواحدة التي رأينا كيف كادت اللهجات المختلفة لا ان تباعد بينها فحسب ، بل أن تفصم عرى أية علاقات كانت ويجب ان تكون قائمة بينها . ان وعي مدرس اللغة بل ومدرس المواد الاخرى لهذه الحقيقة امر هام للغاية ، يظهر له أهمية المهمة الملقاة على عاتقه وينمي في جميع المدرسين الوعي بأهمية اشتراكهم ، مهما كانت المواد التي يدرسونها ، في تنمية هذا الاتجاه والمساهمة فيه مساهمة فعالة .

ان هذا الاتجاه في استخدام لغة موحدة ، على الاقل للكلام الرسمي وللكتابة ، اتجاه واضح في جميع المجتمعات والقرار المؤيد له قرار سياسي اجتماعي بالدرجة الاولى . وربما كان من أهم ما قدمه علم اللغة الحديث لمدرس اللغة القومية هو المساهمة في جعله داعيا لامور كثيرة منها موقفه من اللهجات المختلفة الذي ذكرناه آنفا . ومن الدراسات التي يمكن ان يستفيد منها المدرس عند معالجته أمور اللغة الموحدة واللهجات المختلفة ، تلك الدراسات المقارنة التي تتوافر الان في بلدان كثيرة بين تلك اللغة الموحدة التي ترغب الدولة في تعليمها لجميع أبنائها وبين اللهجات المختلفة ، وذلك بقصد ابراز نقاط الاختلاف الرئيسية التي ينبغي على المدرس ايلاؤها عنايته الخاصة .

ومن ضمن الامور الاخرى التي استفاد منها مدرس اللغة القومية هو اطلاعه على دراسات المدارس اللغوية الحديثة المختلفة ونتاج تلك الدراسات . وعلى الرغم من ان تعدد تلك المدارس خلال القرن الحالي أصاب البعض بشيء من الارتباك الا ان ذلك كان له فائدة كبيرة . فقد بين هذا التعدد مثلا انه ليس هنالك طريق او

منهج واحد للبحث اللغوي كما كان الاعتقاد السائد في السابق ، كما بينت نتائج هذه الدراسات أهمية اللغة المنطوقة اي لغة الحديث وكذلك الاختلافات بينها وبين اللغة المكتوبة ، كما اظهرت بأن بعض القواعد التقليدية لم تكن موجودة في اللغات فعلا بل ربما كانت من اختراع اللغويين القدامى في محاولة من هؤلاء لاخضاع بعض التراكيب التي بدت شاذة الى قاعدة تنطبق على عدد كبير من الحالات الاخرى ، كما كان الحال في اللغة الانكليزية مثلا بالنسبة للاصرار على صحة التركيب التالي غير المستعمل :
He is older than I وتفضيله على الصيغة المستعملة فعلا في الكلام وهي : He is older than me بحجة أن كلمة than حرف عطف وهي تعطف جملتين ، فتكون الجملة الكاملة الاصلية هي : He is older than I (am old). بدلا من اعتبار الكلمة حرف جر ، وتحليل أو اعراب الجملة على هذا الاساس .

لقد اظهرت نتائج الدراسات اللغوية الحديثة لمدرس اللغة القومية ايضا ان القواعد التقليدية لم تكن شاملة لجميع جوانب اللغة ، بل كانت تهتم ببعض الجوانب دون غيرها ، لانها كانت **معيارية** هدفها منع الوقوع في الخطأ ، لا **وصفية** تصف جميع جوانب اللغة ، فنتج عن ذلك اهمال لبعض الجوانب العامة من اللغة .

ان اطلاع مدرس اللغة القومية ايضا على ابحاث علم اللغة النفسي ، وبخاصة المتعلق منها بطريقة اكتساب الطفل للغة ، مفيد له وان كان لا ينعكس انعكاسا مباشرا على عمله ، على اعتبار ان الطفل يكتسب اللغة قبل ان يذهب الى المدرسة . ولكن الفائدة تظهر في تفهم المدرس للاسس التي بنى عليها بعض اللغويين الذين كلفوا بتجهيز مواد تعليمية ، تلك المواد ، وقدرته ، نتيجة لذلك ، على التعامل مع تلك المواد بطريقة افضل فهو يلاحظ مثلا ان بعض المواد التعليمية تتجنب حمل الطالب على استظهار قواعد اللغة ، وتركز على تمثل تلك القواعد عن طريق الاستعمال والتطبيق فاذا

فهم الاسس التي بني عليها المؤلفون منهجهم هذا ، استطاع تقديم المادة وتدريسها بشكل سليم ، وبوعي كامل .

ولا شك ايضا بان الدراسات الحديثة تساعد مدرس اللغة القومية في فهم أكبر لتلك اللغة ، من حيث العلاقات النحوية بين المفردات وغيرها ، فيزداد ادراكه للهيكل العام والتفصيلي لتركيب اللغة ، ويكتسب بذلك مقدرة ومرونة اكبر في التعامل مع تلك اللغة من حيث تجنب الغموض ، ومن حيث الاساليب المختلفة لقول المعنى الواحد الخ .. مما طلع به انصار نظرية القواعد التحويلية وغيرهم .

ثم ان معرفة مدرس اللغة القومية لما يجري من الدراسات اللغوية الحديثة تؤثر تأثيرا مباشرا على تدريسه لأدب تلك اللغة من نثر وشعر وخطابة وقصص وغيرها . صحيح ان النواحي الجمالية ليست لها علاقة مباشرة باللغة ، أو على الاصح ، ليست وسيلة فهمها والاستمتاع بها هي التحليل اللغوي فحسب ، ولكن الادب لغة ، بل أن اللغة هي مادته ووسيلته المباشرة ، فهو من هذه الناحية يخضع للتحليل اللغوي كغيره من اشكال التعبير اللغوي الاخرى . وقد اصبحت دراسة الاساليب الان مبحثا مشتركا بين اللغويين ورجال الادب معا .

واخيرا هنالك تدريس التحليل اللغوي نفسه للطلاب اصحاب تلك اللغة القومية . فعلى الرغم من أن الطالب يستطيع التعبير عن نفسه بتلك اللغة بسهولة ويسر ، دون ان يفكر كثيرا بالقواعد التي تحكم تراكيب تلك اللغة ، الا ان فهمه لتلك القواعد يساعده كثيرا على صحة لغته وعلى الارتقاء بمستوى تعبيره بتلك اللغة . وهذا التحليل اكثر ضرورة في الحالات التي تكون فيها الهوة عميقة بين لغة الحديث التي يستعملها الطفل في بيته وبين اقرانه وتلك اللغة الموحدة التي يتعلمها في المدرسة . وهذه الحالة تنطبق علينا في العالم العربي . ولا بد للمدرس الذي سيعلم طلابه هذا التحليل اللغوي أن يكون هو نفسه مطلعا على الاساليب الحديثة في الدراسات اللغوية .

(ب) تعليم اللغات الاجنبية :

أما بالنسبة لتعليم اللغات الاجنبية فقد كان أثر الدراسات اللغوية الحديثة فيها كبيرا للغاية وبخاصة منذ أواسط القرن الحالي ، وقد شمل ذلك الاثر الطرق والمواد التعليمية والوسائل المعينة كما شمل بالطبع الاسس اللغوية والنفسية التي بنيت عليها كل من تلك الطرق .

فحتى أوائل القرن كان الاهتمام مركزا على اللغة المكتوبة وذلك بتأثير دراسة اللغة اللاتينية ، ولذلك فقد كانت المهارة اللغوية التي تركز عليها المدارس عند تعليم الطلاب لغة اجنبية هي مهارة القراءة ، كما كان الحال ولا زال بالنسبة لتعليم اللغة اللاتينية ، على الرغم من ان اللغات الاجنبية الاخرى كانت لغات حية كاللغات الاوروبية الحديثة على سبيل المثال . وكانت طريقة التدريس تبعا لذلك تعتمد على تدريس قواعد اللغة الاجنبية ثم تدريب الطلاب على قراءة نصوص مكتوبة بتلك اللغة وترجمتها الى اللغة القومية ، وهذه الطريقة هي التي تسمى **طريقة القواعد والترجمة** (Grammar-Translation Method) وفي أوائل القرن الحالي ظهرت حركتان : اولاهما لم تعش طويلا ، وهي الحركة التي نتج عنها ما يسمى **بالطريقة المباشرة** (Direct Method) والتي افترض اصحابها خطأ بأن الطالب يتعلم اللغة الاجنبية بنفس الطريقة التي يكتسب بها لغته القومية ، أي عن طريق التعرض لكمية ضخمة من الكلام المستمر دون نظام ودون تحديد او تقييد او تنظيم للمواد اللغوية التي ينبغي ان يتعرض لها .

أما الحركة الثانية التي ظهرت في الثلاثينات والتي استمرت مدة طويلة بل انها لا زالت مستعملة في بعض بلدان العالم ، هي الحركة التي أولت عناية خاصة لمفردات اللغة وبذلت جهودا كبيرة محمودة في تحديد اكثر الكلمات شيوعا باللغة الانكليزية بالذات ، وانتجت عددا من هذه التعدادات للمفردات اهمها ما ضمنه

مايكل وست (Michael West) في كتاب مطبوع يشمل أكثر الفي كلمة انكليزية شيوعا (١) . وقد اتخذت هذه الاحصاءات اساسا لتاليف كتب تعليم اللغة الانكليزية في العالم ، وبخاصة في تلك البلدان التي كانت تابعة للامبراطورية البريطانية . وكانت مهارة القراءة هي المهارة الرئيسية التي يدرب الطلاب على اتقانها، ولكن لم تهمل المهارات الاخرى اهمالا تاما .

لقد بدأ الاثر الكبير لعلوم اللغة على تعليم اللغات الاجنبية منذ الحرب العالمية الثانية ، وبخاصة في الولايات المتحدة الامريكية ، وفي هذه الفترة كانت قد برزت اتجاهات معينة في الدراسات اللغوية في كل من أوروبا والولايات المتحدة الامريكية ، كما سنذكر في الفصول اللاحقة ، اهمها الاهتمام **بلغة الحديث** والتركيز على **تراكيب** اللغة اكثر من مفرداتها ، وقد تبلورت هذه الاتجاهات بظهور **المدرسة الوصفية التشكيلية** التي سيأتي الكلام عنها .

لقد اثرت هذه المدرسة بالذات في طرق تعليم اللغات الاجنبية تأثيرا كبيرا ليس لان منهجها والنظريات التي طلعت بها بدت ثورية في وقتها فحسب ، بل لان السلطات العسكرية الامريكية استعانت أيضا ببعض علماء اللغة انفسهم لكي يجهزوا للدارسين من العسكريين المواد التعليمية ذاتها التي سيستعملونها ولكي يوصوا بالطرق والاساليب التفصيلية التي ينبغي استخدامها لتعليم تلك المواد بالوسائل التعليمية المعينة ، السمعية منها والبصرية التي يعتقد أولئك العلماء انها تساعد على سرعة التعليم وكفاءته . وهكذا بدأت سابقة خطيرة في حقل التربية بأن يقوم اصحاب النظريات اللغوية انفسهم بتطبيق تلك النظريات في الميدان التربوي ، بدلا من ان يتركوا ذلك للتربويين من مخططين ومؤلفين للكتب والمواد التعليمية

---

(١) M. West : General Service List (Longman3, several impressions.)

ومدرسين في الفصول ، الذين من الطبيعي ان يكونوا اقدر على ذلك نظرا للعوامل غير اللغويــة الاخرى التي تدخل في صميــم العملية التربوية والتي ينبغي ان تؤخذ بعين الاعتبار عند محاولة تطبيق أية نظرية . لقد ظهــرت آثار هذه السابقة علــى نطاق واسع جدا في الخمسينات والستينات من هذا القرن ولا تزال بادية لنا حتى الان على الرغم من ردة الفعل التي نشهدها حاليا والتي تحاول ان تعيد للمربي مركزه الطبيعي في مجال التطبيق وتحفظ لعالم اللغة مكانه الطبيعي في عالم التنظير ، على أن يستفيد ذلك مما يتوصل اليه هذا من نظريات وآراء ونتائج بحوث .

ومهما يكن من أمر ، فليس من الممكن اعادة عقارب الساعة الى الوراء ، وما حدث كانت له بعض الفوائد كما كانت له بعض المضار . فلننظر ماذا فعل أصحاب **المدرسة الوصفية التشكيلية** في مجــال تعليم اللغات الاجنبية .

لقد انطلقوا من بعض الاسس النظــرية ، أو علــى الاصح الافتراضات ، التي اعتمدت عليها نظريتهم اللغوية برمتها . وهذه الاسس هي :

أولا : أن المظهر الصوتي للغة ، اي الكلام المنطوق هو المظهر الاساسي والاولى ؛

ثانيــا : ان اللغة ليست الا مجموعة من العادات المكتسبة مثلها في ذلك مثل مظاهر السلوك الاخرى (هنا يلاحظ أثر المدرسة السلوكية في علم النفس بشكل واضح) .

ثالثــا : أن اللغة هي لغة الحياة اليومية التي يستعملها الناس فعــلا لا تلــك اللغة التــي يوصــى بعض النحــويين باستعمالها على أنها اللغــة الصحيحة (وهنــا نلاحظ الاتجاه الى المنهج الوصفي ، والابتعاد عن المنهج المعياري في البحث اللغوي) .

رابعـا : اللغات ليست واحدة ، بل تختلف بعضهـا عن بعض كثيرا او قليلا ، وهذه الاختلافات مهمة من الناحيـة التعليمية .

خامسـا : ليست هنالك لغات بدائية ، بل ان كل لغة من لغـات الارض مركبة بشكل معقد جدا ، وفيها مـن الانظمة الداخلية ما يجعلها قادرة على تلبية جميـع حاجات الناس الذين يستعملونها .

لقد ترجمت هذه الاسس والافتراضات الى خطة عمل على الشكل التالي :

ـ ما دامت اللغة في الاسـاس هي لغة الكلام المنطوقة لذلك فان من الضروري جدا ايلاء هذا الجانب من اللغة اكبر قدر مـن الاهتمام عند تدريسها . وهذا ما حصل فعلا ، بل لقد بولغ في هذا الاهتمام حتى ان اللغة المكتوبة اصابها الكثير من الاهمال واصبحت مهارة القراءة تعتبر مهارة ثانوية لا تحتاج الـى طرق واسـاليب خـاصة لتنميتهـا ، بل تأتـي كنتيجـة طبيعية لاتقـان المهارتين الشفويتين : الاستماع والكلام . وليس أدل على ذلك الاهتمام المبالغ فيه بالمظهر الشفوي للغة ، من ان طريقة تدريس اللغـات الاجنبية التي طلع بها اصحاب هذه المدرسة سميت **بالطريقـة السمعية الشفوية** (Audio-Lingual Approach) .

وبما ان جميع نواحي اللغة المنطوقة تقريبا تظهر في لغـة الحديث او الحوار ، لذلك فقد أصبح الحوار (dialogue) أحد المواد الاسـاسية المستعملة في تعليم وتعلم اللغات الاجنبيـة ، بالاضافة الى تلك التمارين الخاصة باظهار الفروق بين الاصوات المفردة المختلفة والتدريب عليها .

من الناحية الايجابية ساعد هذا التركيز على لغة الكلام ولغة الحوار بشكل خاص على زيادة الاهتمام بتلك الظواهر الصوتية التي لا يمكـن للغة المكتوبـة أن تعبر عنهـا ، كالنبر والتنغيم

(stress and intonation) التي لها اثر كبير في تغيير معـاني الكلمات ومجموعات الكلمات من جمل وخلافها . كما ساعد هذا الاتجاه ايضا على الاهتمام بالتراكيب اللغوية الاكثر شيوعا في لغة الحديث منها في لغـة الكتابة ، وهي في العـادة التراكيب الاقـل تعقيدا ، بالاضافة الى التمرس باستعمال المفردات ذات العلاقـة المباشرة بالحياة اليومية حتى ولو كانت كلمات عامية في لغة معينة.

ونظرا الى أن تدريس المظهر الشفوي من لغة أجنبية معينة عملية شاقة جدا على المدرس ، فقـد هب أصحاب التكنولوجيا لمساعدته في هذا المجال باختراع وتطوير أجهزة التسجيل والبث المختلفة التي ترفع جزءا من العبء عن المدرس ، وتعين المدرس الوطني الذي ليست اللغة الاجنبية التي يدرسهـا لغته القومية وذلك باستعمال التسجيلات التي قام بها محترفون من أصحاب تلك اللغـة . واصحاب المصانـع بمساعدتهم للمدرس يساعدون انفسهم طبعا بأن يجنوا الربح الوفير من ذلك كله .

ـ بالاضافة الى هذا الاهتمام باللغة المنطوقة ، وبوجه خاص بتلك اللغة التي يستعملها عامة الناس في حديثهم ، دون التفات لما يقرره النحويون التقليديون من اوجه الصحة والخطأ اعتمادا على نماذج اللغة المكتوبة ، فان ايمان اصحاب هذه المدرسة بـأن السلوك اللغوي شبيه ببقية اوجـه السلوك الاخرى ، مـن انه مجموعة من العادات ، جعلهم يطبقون نظريتهم في التعلم على اكتساب اللغة فكانت اللغة في نظرهم ، تكتسب عن طريق المؤثر والاستجابة والثواب ولذلك فقد أخذوا يفتتون اللغة الى أصغر اجزائها ويضعون تلك الاجزاء في نماذج متشابهة بقصد تدريب الدارسين على اتقان كل جزء على حدة الى ان يتدرب عليهـا جميعا وبذلك يكون قد امتلك زمام اللغة بأكملها .

وهذه النظرية تعتمد في جزء منها على تحاشي الخطأ اذا كنا ننشد اكتساب الدارس لعادات معينة . كما تعتمد على التكرار والترديد وعلى المحاولة والخطأ وغير ذلك من الخطوات التفصيلية

الخاصة بنظرية التعلم المذكورة . وقد ذكرنا في الفصل الثالث ، كيف قسموا اللغة الى نماذج من الجمل متشابهة في ظاهرها هي التي قالوا بأهمية تدريب الدارس على استعمالها لدرجة الاتقان التام ، بالاضافة الى تقسيم الاصوات الى وحداتها الصغرى واستعمال ظاهرة المقارنة او المقابلة (contrast) لاظهار الفروق بينها .

وبما انهم كانوا ايضا ينظرون الى الشكل الخارجي الظاهر من اللغات فقط فقد لاحظوا **الفروق** بينها اكثر من ملاحظتهم لاوجه الشبه . وبما أن الطفل الذي يتعلم لغة أجنبية يكون في العادة قد اكتسب لغته القومية ، بشكلها المنطوق على الاقل ، قبل ذلك ، اذا فقد تكونت لديه بعض **العادات اللغوية** المتعلقة بالشكل او الاشكال الخاصة بلغته القومية . فاذا كانت بعض هذه الاشكال تختلف عن اللغة الاجنبية فلابد ان العادات المبنية عليها والمكتسبة سابقا ستتدخل في عملية تعلم اللغة الاجنبية وتعمل على تعطيلها او تأخيرها . اذا فلابد من اجراء الدراسة المقارنة الشاملة بين اللغة القومية واللغة الاجنبية لاكتشاف **اوجه الاختلاف** بينهما بشكل خاص بغية التركيز على هذه الاوجه عند تعليم اللغة الاجنبية ــ ونتيجة لذلك فقد اجرى بالفعل عدد من هذه الدراسات وجهزت المواد التعليمية بناء على نتائجها .

لقد انتشرت طريقة التدريس السمعية الشفوية هذه في معظم انحاء العالم ، بما في ذلك العالم العربي ، وقد رافقها من أساليب الدعاية الشيء الكثير خاصة وان تدريس اللغات الاجنبية بهذه الطريقة كان عملا شاقا للغاية وبخاصة على المدرس المحلي ، مما جعل رجال الصناعة يهبون للاستفادة من هذا الوضع ويستغلونه الى أقصى الدرجات . فبالاضافة الى جهاز التسجيل الفردي رخيص الثمن نسبيا قام هؤلاء بانتاج **المختبرات اللغوية** (Language Laboratories) التي اوحوا للناس انها هي الطريقة وهي البلسم وهي الجواب النهائي على مشكلة تعليم

اللغات الاجنبية ، مع أنها ليست في الواقع أكثر من **وسيلة معينة** ، جيدة اذا أحسن استعمالها ، وسيئة اذا أسيء استخدامها . كما قاموا بانتاج **الكتب المبرمجة وآلات التعليم** (Teaching Machines) التي انتشرت لبعض الوقت في الولايات المتحدة الامريكية بالذات ولكنها لم تلق نفس الرواج الذي لاقته المختبرات اللغوية داخل الولايات المتحدة وخارجها .

لقد أطلنا بعض الشيء في بيان اثر هذه المدرسة اللغوية في تعليم اللغات الاجنبية بالذات ، لانه كان أكبر اثر من نوعه في التاريخ ، ولاننا تعلمنا منه الشيء الكثير .

لقد تبين الآن بشكل واضح ان معظم ما اعتبره أصحاب هذه المدرسة اللغوية اساسا لنظريتهم ، ليس الا افتراضات مبنية على مباديء في علم النفس لا تستطيع ان تفسر ظاهرة السلوك اللغوي بأكمله ، حتى اذا افترضنا انها قادرة على تفسير ظواهر السلوك الانساني الاخرى. لقد اتضح الان ان منهج هذه المدرسة في الدراسة اللغوية ليس شاملا ولا عميقا بشكل يتمشى مع تعقيد اللغة البشرية ، وان هذه اللغة ليست مجموعة من العادات ، كما كانوا يعتقدون ، بل هي جهاز محكوم بقواعد معينة ينبغي اكتشافها ، وان العلاقات بين أجزاء الجملة الواحدة أعمق بكثير من تلك العلاقات الظاهرة على السطح الى آخر ما جاء به تشومسكي وأنصاره والذي سنذكره بشيء من التفصيل في الفصل الخامس .

لقد زعزعت القواعد التحويلية الثقة بنظرية المدرسة السابقة لها ، وبكل ما بنى عليها وبخاصة فيما يتعلق بطرق تدريس اللغات الاجنبية . كما دلت تجربة الطريقة **السمعية الشفوية** لمدة عقدين او ثلاثة في انحاء مختلفة من العالم ، بأن فيها عيبا او عيوبا رئيسية ينبغي تلافيها ، رغم كل ما فيها من حسنات ومزايا ، الا أن أصحاب القواعد التحويلية ، ومنهم رائدهم تشومسكي نفسه ، كانوا يشكون في مدى فائدة نظريتهم في قواعد اللغة من الناحية

التطبيقية اذا اريد استخدامها كأساس لطريقة جديدة في تعليم اللغات الاجنبية . ولذلـك لم تتبلور اية طريقة جديـدة بشكل كاف حتى الآن .

الا أن آخر اتجاه في الدراسات اللغوية وهو الذي يؤكد على اللغة كوسيلة للاتصال ، يحاول انصاره كما يحاول التربويون الاستفادة منه للطلوع بطريقة جديدة تستفيد من حسنات الطرق السابقة جميعا ، وتضيف اليها ذلك البعد الاجتماعي الذي كان مهملا حتى الان . فقد كان الاهتمام في تعليم اللغات الاجنبية ــ بل واحيانا كثيرة في تعليم اللغات القومية ــ منصبا على **الصحة** اللغوية (accuracy) أي على اتقان الشكل اللغوي لوظيفة الاتصـال أو بعبارة أخرى على الكلام والكتابة بدون اخطاء لغوية ، وهذا هدف جيد لا غبار عليه . ولكننا نعلم تماما أن بامكان الانسان أن يستعمل جملة سليمة تماما من الناحية اللغوية ، ومع ذلك فهي لا تخدم **الوظيفة المقصودة** منها او انها تسيء الى السامع وتخلق جوا من النفور أو تسبب سوء التفاهم او على الاقل لا تخلق الاستجابة المرجوة . كان يقول تلميذ لمدرسه .

اقفل الباب ، الهواء بارد

مستعملا صيغة الامر الجافة في مقام يستوجب استعمال نوع من الطلب المهذب او الرجاء . فالجمل المستعملة صحيحة من الناحية اللغوية ولكنها غير مناسبة من الناحية **الاجتماعية** .

أن الاتجاه قوي الان لمحاولة بلورة طريقة وتجهيز مـواد تعليمية تخدم الهدف الشامـل من اللغة وهـو **الاتصال** بجميع ابعـاده ، وتحـاول تنمية **قـدرة الدارس علـى الاتصـال** (communicative competence) بدلا من تنمية قدرته اللغوية فقط (linguistic competence) وهو هدف نبيـل يسـتحق الجهـد الذي يبذل للوصول اليه . الا ان العقبات التي تعترض سبيلـه عقبات ضخمة ولن يكون التغلب عليها سهلا باي حال من الاحوال .

وأولى هذه العقبات هي **المدرس المحلي** . فالمقدرة على الاتصال بالمعنى المذكور لا تتوفر الا لاهل اللغة أنفسهم او لمن عاش معظم حياته بينهم ، بينما معظم المدرسين المحليين ليسوا من هذا النوع . بالاضافة الى أن هذه الطريقة المقترحة تعتمد على استعمال اللغة في المجتمع استعمالا وظيفيا ، فلكل مجتمع لغته القومية التي تستعمل لقضاء الحاجات الحياتية اليومية جميعها ، ولهذه الاسباب ، فان من المتوقع أن ينجح استخدام هذه الطريقة في المراحل العليا بعد أن يكون الطالب قد اكتسب الكثير من القدرة اللغوية ، لكي يستطيع استعمالها استعمالا وظيفيا . وهذا ما هو حاصل بالفعل في الفصول الدراسية الاولى في الجامعات او الكليات التي يضطر الطالب لدراسة المواد فيها باللغة الاجنبية . ومع ذلك فهنالك بعض التجارب التي تجرى على استخدام هذه الطريقة في اول مراحل تعليم اللغات الاجنبية ، وسيمر بعض الوقت قبل ان تظهر نتائجها .

٤ ـ فوائد اخرى :

وعلاوة على ما سبق فقد تبين أن للدراسات اللغوية المتنوعة فوائد اخرى نذكر بعضها بايجاز شديد في الصفحات التالية .

(أ) اللغات القومية واللغة العالمية :

بانتشار وسائل الانتقال الحديثة السريعة جدا في القرن الحالي بالنسبة للقرون السابقة ، اصبح العالم صغيرا للغاية يؤثر ما يحدث في جزء منه على اجزائه الاخرى ، كما اصبحت الحروب حروبا عالمية يشترك فيها او يتلظى بلهيبها عدد كبير من الامم في آن واحد ، واصبحت الهيئات العالمية ، كعصبة الامم بعد الحرب العالمية الاولى وهيئة الامم المتحدة ومجلس الامن منذ الحرب العالمية الثانية ، تحاول ان تجعل من استعمال اللغة في حوار هادىء وسيلة للحفاظ على السلام العالمي . ولذلك فقد ظهرت اهمية استخدام عدد محدود من اللغات ذات الاهمية السياسية

الكبيرة كالانكليزية والفرنسية والروسية والاسبانية والصينية وسيلة للتفاهم بين ممثلي مختلف بلدان العالم في تلك المحافل الدولية ، وفي الهيئات المنبثقة عنها . كما دعت الحاجة الى مثل ذلك ايضا او الى استعمال **لغة واحدة طبيعية او مصطنعة** في المؤتمرات العلمية التي تنعقد بالمئات في كل عام .

من الناحية الاخرى ، أدى استقلال عدد كبير من بلدان العالم ، خاصة في افريقيا وآسيا خلال القرن الحالي وشعور كل من تلك البلدان بوحدته القومية الى ضرورة اعتماد **لغة قومية واحدة** يستخدمها جميع سكان ذلك البلد في التفاهم بعضهم مع بعض بغض النظر عن اللغة التي كانت كل فئة تستعملها من قبل . ولم يكن هذا الامر سهلا في كثير من الحالات التي تكونت فيها بلدان مستقلة بحدود مصطنعة تعود الى أيام الاستعمار الاوروبي لها ، حيث كان يسكن عدد من القبائل المختلفة في الاصل واللغة والتراث .

رغم تناقض هذين الاتجاهين الى حد ما ، فقد نال كل منهما حظه من النجاح . فظهر عدد من اللغات القومية في البلدان حديثة الاستقلال ، كما ظهرت منذ اواخر القرن الماضي انواع من اللغات العالمية التي كان الهدف منها أن تكون كلغة ثانية يتعلمها جميع سكان العالم الذين يحتاجون للاتصال مع اناس آخرين يتكلمون لغة قومية مختلفة . وقد تأخر التفكير في اختراع لغة عالمية حتى ذلك الوقت لان الحاجة لم تكن تدعو لذلك في الماضي ، فقد سيطرت اللغة اللاتينية على اوروبا حتى أيام النهضة الاوروبية الحديثة وكانت تعتبر لغة عالمية بالنسبة لاوروبا ، كما سيطرت اللغة العربية على عدد كبير من بلدان آسيا وشمال افريقيا واجزاء من أوروبا واعتبرت لغة عالمية أيضا لعدة قرون من الزمن . وفي عصرنا الحاضر سيطرت اللغة الفرنسية لمدة من الزمن كلغة السياسة والدبلوماسية كما تستعمل اللغة الانكليزية حاليا كلغة عالمية للتجارة وبعض النواحي العلمية والعملية ايضا .

اما بالنسبة **للغات العالمية المصطنعة** فقد كانت أشهرهـا **الاسبرانتو** Esperanto التي طلع بها عام ١٨٨٧ العالم الروسي **الدكتور لازاروس زامنهوف** (Dr. Lazarus Zamenhof) الذي كان يكتب تحت الاسم المستعار الدكتور اسبرانتو ، والتي لاقت رواجا كبيرا ، اما بشكلها الاصلي أو باشكالها المعدلة ، حتى الخمسينات والستينات من القرن الحالي في عدد كبير من بلدان اوروبا وأمريكا وبقية بلدان العالم وخصصت لها المجلات وبرامج الاذاعة كما درست في عدد من المدارس والجامعات . وقـد استعملت في المؤتمرات الدولية والندوات العلمية كما استعملت كمقدمة لدراسة اللغات الاخرى .

والاسبرانتو ليست لغة طبيعية ولكنها في نفس الوقت ليست لغة صناعية بالمعنى الدقيق ، لانها مبنية على اسس مختارة من اللغات الاوروبية . وهي **لغة صوتية** بمعنى أن لكل حرف من حروف ابجديتها صوتا واحدا فقط ، كما ان لها قواعد نحوية قليلة جدا لا يزيد عددها عن ست عشرة قاعدة ، وبضعة قواعد لاشتقاق الكلمات من بعضها . وجميع هذه منتظمة جدا ، تنطبق على جميع الحالات ذات العلاقة بدون اي من تلك الشواذ التي تعج بها اللغات الطبيعية . وعلى الرغم من أن بعض اللواصق في بداية الكلمة أو نهايتها (prefixes & suffixes) مصطنعة ، كتلك التي تدل على حالة الفعل بالنسبة للزمن وهي :

اللغة الانكليزية	اسبرنتو
helps	helpas
helped	helpis
will help	helpos
would help	helpus

بمعنى أنها لا تستعمل بشكلها الحالي للدلالة على هذه الحالات في اية لغة ، الا انها طبيعية من حيث تنظيم أصواتها وليست غريبة على اللغات الاوروبية ، التي بنيت الاسبرانتو عليها . وقد حاول مخترع هذه اللغة وأولئك الذين عدلوها من بعده ، ومخترعو

اللغات الاخرى المشابهة ، أن يجعلوا أمر اكتساب هذه اللغة سهلا للغاية ، وذلك بجعل كل شيء فيها منتظما جدا ، يسير على قاعدة واضحة وبتقليص عدد المفردات التي يحتاجها الفرد بشكل رئيسي ومساعدته على صياغة أعداد أكبر من المفردات عن طريق الاشتقاق المنتظم .

ومع كل هذه التسهيلات بالنسبة لهذه اللغات المصطنعة فانها ، بعد شيوع واسع لبضع سنوات ، بدأ نجمها بالافول ، ولم تستطع أن تصمد وتنتشر ذلك الانتشار الذي كان متوقعا لها ، لعوامل كثيرة منها عدم تشجيع كثير من الحكومات لرعاياها على تعلمها لاسباب سياسية ، ومنها أن لغة اي قوم هي الوسيلة الاساسية للتعبير عن الفكر والحضارة المميزين لاولئك القوم ، بينما الاسبرانتو ومثيلاتها لا تعبر عن حضارات مميزة ، بل ربما كان اقصى ما تستطيع التعبير عنه هو الحضارة العالمية المشتركة بين جميع الشعوب .

من جهة اخرى ، فانه ليس من السهل على لغة من هذا النوع أن تدوم طويلا وتنتقل من جيل الى جيل دون أن يطرأ عليها من التغيير ما يطرأ على اللغات الطبيعية بعد أن يتعلمها جيل جديد عن جيل سابق مع تغيير طفيف في كل مرة ، مما يستدعي اعادة النظر في هذه اللغة كل فترة من الزمن .

ومن جهة ثالثة فان لغات بعض الدول العظمى كالانكليزية والروسية والصينية تكتسب رواجا واسعا في البلدان ذات العلاقة المباشرة مع كل دولة ، ثم على نطاق عالمي ، وفي الندوات والمؤتمرات العالمية ، لما لتلك الدول من اهمية واثر في تلك الهيئات ، ولذلك فان اللغات المصطنعة تلقى منافسة حادة قوية من جانب هذه اللغات الطبيعية .

وأخيرا ، اذا كان اصحاب فكرة اللغة العالمية الواحدة يأملون بأن اللغة الواحدة المشتركة تستطيع أن تقوى من أواصر الصداقة

بين الامم ، وتقلص من فرص الحروب والمشاحنات والخلافات ، وتزيد من فرص السلام ، فهم واهمون ، لان اللغة الواحدة لم تكن في يوم من الايام العامل الوحيد لمنع الحروب والنزاعات .

أما علاقة علم اللغة باللغات العالمية او القومية فهي علاقة في غاية القوة ، فلولا تلك الاسس التي تتوصل اليها النظريات الحديثة ، لما أمكن التفكير لا في لغة واحدة تصلح لغة قومية لمجتمعات تتكلم لغات أو لهجات مختلفة ، ولا في صياغة لغة عالمية تتمتع بأهم تلك الخصائص التي تتمتع بها اللغات الطبيعية .

(ب) الترجمة والترجمة الآلية :

لقد ادت نفس العوامل التي ذكرناها في الجزء السابق الى مزيد من الاهتمام **بالترجمة** كوسيلة للتفاهم بين الامم ، كما ادى **تفجر المعرفة** في السنوات القليلة الماضية في القرن الحالي الى محاولة ابتكار وسيلة سريعة للترجمة باستعمال الآلة فظهرت ما تسمى **بالترجمة الآلية** (machine translation) اي الترجمة بواسطة الآلة ، وهي ما سنتحدث عنه أولا .

ان وقتنا الحاضر يعد بحق **عصر المعلومات** ، فلم يسبق أن واجهنا في أية فترة من تاريخ البشرية هذا السيل العارم من المعلومات التي لم تعد تقتصر على مكان واحد ، أو لغة واحدة ، كما لم تعد تقتصر على مبحث معين أو عدد محدود من المباحث ، بل لقد شملت جميع المباحث العلمية والانسانية على السواء كما انها تظهر بجميع لغات العالم الرئيسية . وفيما عدا ما يعتبر من الاسرار القومية او العسكرية فان معظم هذه المعلومات تظهر على شكل كتب ودوريات ومجلات وصحف مختلفة ، وأصبح من الضروري لتلك الامة التي يهمها ان تكون في الصدارة بين الامم ، أن تكون على اطلاع مستمر على احدث تلك المعلومات . وما يجرى حتى الان للوصول الى هذا الهدف هو أن يقوم المترجمون المختصون كل في مجاله بالعمل المستمر في ترجمة أهم الكتب

والمقالات من اللغات الاجنبية الى اللغة القومية . ولكنه أصبح من الواضح الان أن هذا لا يفي بالغرض نظرا للاعداد الهائلة من الكتب والدوريات التي تظهر بلغات مختلفة كل عام ، وقلة عدد المترجمين الاكفاء وصعوبة اعدادهم الاعداد الجيد . ولذلك فقد اتجهت جهود العلماء الى اختراع وسيلة لتخزين المعلومات في أضيق حيز ممكن ، واستعملوا لذلك **الحاسب الآلي** (الكمبيوتر) كما استنبطوا وسيلة للترجمة الآلية واستخدموا لذلك الحاسب الآلي أيضا ، وقد اعتمدوا للوصول الى الوسيلتين على ما زودهم به علماء اللغة المحدثون من التحليل اللغوى ـ وهو ما سنعمل على اعطاء فكرة سريعة عنه فيما بقي من هذا الكتاب ـ كما استفادوا طبعا من نظرية المعلومات ، التي أشرنا اليها اشارة سريعة في صفحات قريبة سابقة .

والوسيلتان المذكورتان ناجحتان ، الا أن النجاح الذي صادفته عملية **تخزين** المعلومات اكبر بكثير مما لاقته عملية الترجمة . فعلى الرغم من أن الترجمة الآلية تستخدم الان على نطاق واسع في ترجمة الابحاث العلمية على وجه الخصوص ، الا اننا نواجه صعوبات كبيرة عندما تتعرض الآلة لترجمةالنصوص الاخرى المتعلقة بمباحث العلوم الانسانية ، كما تشعر الآلة بعجزها التام عن ترجمة اية نصوص أدبية ناهيك عن النصوص الدينية . وكثيرا ما تروى النكات عما يحصل عندما تحاول الآلة القيام بعملها في المجالات الاخيرة . ومن هذه النكات أن المثل الانكليزي المعروف

The spirit is willing but the flesh is weak

القريب في المعنى من بيت الشعر العربي :

واذا كانت النفوس كبارا ☆ تعبت في مرادها الاجساد

قد أعطى للآلة لترجمته الى اللغة الروسية ، ثم اعطيت الترجمة الروسية للآلة مرة ثانية لاعادتها الى اللغة الانكليزية ، فكانت النتيجة ما يلي :

The vodka is good but the meat is poor

وشتان ما بين المعنيين . فما هو يا ترى سبب عجز الآلة عن القيام بجميع انواع الترجمة ؟

ستصبح الاجابة عن هذا السؤال واضحة للقارىء الذي سيدرك مدى تعقيد اللغة مما سيقرأه في الصفحات القادمة من هذا الكتاب . بالاضافة الى أن علماء اللغة لم يأتوا حتى الان بنظرية تستطيع أن تفسر جميع الظواهر اللغوية تفسيرا كاملا وتضع للغة القواعد الكاملة ، سواء تلك القواعد التي تتعلق بالتراكيب الصرفية والنحوية ، او تلك التي تتعلق بالمفردات وبنظام المعاني (أو الدلالة) . ومن المحتمل انه حتى لو حصل ذلك فلن يكون ذا فائدة كبيرة لجهاز الترجمة ، بسبب مدى تعقيد تلك القواعد وعدم امكانية تطبيقها دون خطأ من غير وجود الانسان . ولنعط مثلا على نوع القواعد أو القوانين التي لا يحصل اي التباس في تطبيقها رغم تعقيدها الشديد . فاذا كنت موسيقيا والفت قطعة موسيقية مستخدما « النوتة » ورموزها المتعارف عليها ، فان اي انسان اخر يعرف تلك الرموز والقواعد التي تحكم ربط بعضها ببعض ، لا يجد اية صعوبة في قراءتها وفهمها . وهذا ينطبق ايضا على اللغة الرمزية المستعملة في الرياضيات فهي لغة عالمية يفهمها الجميع . فاللغة المستخدمة في هاتين الحالتين لغة وصفية لا طبيعية كاللغة البشرية وهي موضوعة بحيث أن كل رمز فيها يدل على شيء واحد لا يتعداه ، كما أن قواعد استخدام وربط تلك الرموز قواعد صارمة وشاملة فلا مجال للبس في استخدامها . وهذا غير متوفر في لغات البشر الطبيعية ، لا فيما يتعلق برموزها التي هي المفردات الموجودة في المعاجم ولا من حيث القواعد التي تربط بين هذه المفردات لتجعل منها مجموعات من اشباه الجمل والجمل البسيطة او المركبة التي تحمل المعاني المطلوبة . ولذلك فان عمل الكمبيوتر في الترجمة يتوقف الى حد كبير على مقدرتنا على تزويده بالمعجمين الكاملين للغتين معينتين وكذلك بمجموعتين كاملتين من قواعد تينك

اللغتين ، والامران عسيران جدا ، كما أن ثانيهما يتطلب أن يتوصل علماء اللغة الى نظرية لغوية كاملة شاملة ، يمكن الاعتماد عليها لتفسير جميع جوانب اللغــة .

اما بالنسبة للمفردات فان احدى المشاكل الرئيسية المتعلقة بها هي تعدد المعاني أو الدلالات بالنسبة لكثير منها (لاسباب تاريخية واجتماعية لا داعي للخوض فيها هنا) ، بالاضافة الى كثرة المترادفات في معظم اللغات . اما الحالة الاولى ، فأمثلتها باللغة العربية ليست كثيرة ، ونعطي عليها مثلا : كلمة **الخال** التي نجد لها المعاني التالية ، بعضها في الادب والبعض الاخر مما لا زال مستخدما حتى الان :

الخال = اللواء في الجيش
الخيلاء
الانسان الضعيف
السحاب
نوع من البرود (أي الثياب)
الشامة في الجسم
أخو الام

أو كلمة **امة** التي وردت في القرآن الكريم بثلاثة معان هي :

الجماعة من الناس ـ في عدة آيات :
الحين ـ في الآية : واذكر بعد امة .
الدين ـ في الآية : انا وجدنا آباءنا على أمة .

وهذه الظاهرة متوفرة في بعض اللغات كاللغة الانكليزية مثلا أكثر من توافرها في لغات أخرى .

ان المعنى المقصود لكلمة متعددة المعاني لا تستطيع الآلة أن تتوصل اليه لتنقله الى لغة اخرى لان ذلك يتوقف على **السياق اللغوي** الذي ترد فيه ، ولذلك فالامر يحتاج الى عقل بشري وتكاد تتعذر برمجته في حاسب آلي .

أما الترادف فمشكلته من نوع اخر ، وهي مشكلة تصعب على الانسان المترجم ، لا على آلة الترجمة فحسب . فاللغويون الغربيون لا يعتقدون بوجود الترادف الكامل ، بمعنى أنه لكي نعتبر كلمتين مترادفتين ترادفا تاما ، يجب أن نتمكن من مبادلة احداهما بالاخرى في جميع السياقات اللغوية . وقد تبين لهم بالدراسة التفصيلية بأن هذا غير ممكن . بينما يبدو أن اللغويين العرب يختلفون في هذا ، فبعضهم يعتقد بوجود اختلاف في المعنى بين الكلمات المترادفة بينما يقول اخرون بعكس ذلك ، ويؤيدهم في ذلك ابراهيم انيس من المحدثين فهو يقول : « اما الترادف فقد وقع بكثرة في الفاظ القرآن رغم محاولة بعض المفسرين أن يلتمسوا فروقا خيالية لا وجود لها الا في أذهانهم للتفرقة بين تلك الالفاظ القرآنية المترادفة » (١) ومهما يكن من أمر فان اختيار الكلمة المناسبة للسياق اللغوي أمر يصعب على المترجم ، انسانا كان أم آلة ، وذلك في اللغة الواحدة ، فما بالك بنقل ذلك الى لغة اخرى ؟

علاوة على ذلك فان ارتباط مفردات اللغة بحضارة الامة التي تتكلم تلك اللغة أي بطريقة حياة المجتمع يجعل من تلك المفردات أشياء تكاد تكون عضوية تلتصق بأفراد ذلك المجتمع التصاقا شديدا بحيث يشعر تجاه كل منها شعورا خاصا يشبه ما نشعر به تجاه أفراد المجتمع الاخرين ، وبعض هذا الشعور عاطفي ، وبعضه الاخر ديني ، وبعضه خلقي الخ .

وارتباط المفردات بمجتمع معين بهذا الشكل يجعل تلك المفردات أشياء شديدة الالتصاق بتلك اللغة ، تحمل عادات ذلك المجتمع ومشاعره وانماط سلوكه واخلاقه ومثله من ناحية ، كما يجعل منها أشياء شخصية بالنسبة لافراد المجتمع يشعر كل منهم

---

(١) ابراهيم انيس : **دلالة الالفاظ** (مكتبة الانجلو المصرية) الطبعة الثانية ١٩٦٣ ص ٢١٥ .

تجاه بعضها بشعور يختلف عن الاخر . وهي لذلك صعبة النقل الى لغة مجتمع اخر وبخاصة اذا كانت حضارة هذا المجتمع الاخر وطريقة حياته مختلفة اختلافا كبيرا عن حضارة المجتمع الاول وطرق حياته . وهذه الصعوبة أيضا ليست مقصورة على الآلة (التي يتعذر عليها حلها) بل تمتد لتشمل الانسان الذي يقوم بالترجمة أيضا .

بالاضافة الى هذا فان من الطبيعي ان تكون احدى اللغات غنية جدا بمفردات تشير الى اشياء أو ظواهر معينة هامة جدا لافراد المجتمع الذي يتكلم تلك اللغة كالمفردات الكثيرة التي تشير الى أنواع الثلج المختلفة في لغة الاسكيمو وتلك التي تشير الى الجمل والسيف في اللغة العربية ، وتلك التي تشير الى المظاهر الصناعية والتقنية في لغة البلدان المتطورة صناعيا وهكذا ، وليس من الضروري طبعا أن يكون لكل من هذه مرادف في كل لغة اخرى .

وربما كان من أصعب الامور على الترجمة بوجه عام والترجمة الآلية بوجه خاص هي تلك المفردات التي تدل على الاشياء المجردة أو العواطف والمشاعر والمعتقدات المختلفة كالديمقراطية والحرية والاشتراكية والحكومة ، والحب والامل والغضب والقلق .. الخ . فان مفاهيم هذه الكلمات او التفاعل مع معانيها تختلف لا من مجتمع الى اخر فحسب بل ومن فرد الى اخر أيضا .

لا داعي لان نطيل هنا ، فقد ذكرنا ما فيه الكفاية لاظهار بعض صعوبات الترجمة عموما والترجمة الآلية بوجه خاص في حقل المفردات ومعانيها ، وذلك بالاضافة لما سنذكره في ذلك الجزء الخاص بعلم المعاني أو الدلالة في الفصل الخامس من هذا الكتاب .

فاذا انتقلنا الى الصعوبات المتعلقة بقواعد اللغة الصرفية والنحوية وجدنا أنها ربما كانت العقبة الرئيسية في طريق تطوير الترجمة الآلية ، اذ لا بد لكي تنجح هذه العملية أن تكون هنالك

نظرية لغوية متكاملة تستطيع ان تفسر بشكل كامل جميع التراكيب والمعاني في كل من اللغتين اللتين نرغب في الترجمة من احداهما الى الاخرى .

سنرى في فصول لاحقة كيف طلع علينا اصحاب المدرسة الوصفية التشكيلية بنظريتهم اللغوية التي تعتبر « الجملة » مجموعة من الكلمات المصفوفة واحدة تلو الاخرى بموجب نظام معين (١) ، والتي تقول بأن العلاقات بين المفردات علاقات افقية ، اي أن هنالك طبقة واحدة للكلام يمكن تحليل الجمل وفهمها وتركيبها على أساسه . وقد بدأت أولى التجارب على الترجمة الآلية بالاعتماد على هذه النظرية ، والتي ثبت فيما بعد انها نظرية ساذجة لا تستطيع أن تتناول اللغة تناولا شاملا ، ولذلك فقد أتت نتيجة تلك التجارب مخيبة للآمال .

الا أن لدى علماء اللغة الان نظريات لغوية افضل كنظرية القواعد التحويلية التي تستطيع ان تعالج اللغات بشكل افضل بكثير من النظرية السابقة والتي اخذ المهتمون بموضوع الترجمة الآلية يعتمدون عليها لتغذية الكمبيوتر بقواعد اللغة وبمفرداتها ، وبخطة العمل التي يمكنه بموجبها تحليل اللغة الاولى الى طبقاتها المختلفة ثم الى عناصرها الاولية وتحديد العلاقات بين تلك العناصر ثم تحويلها بوساطة برنامج خاص الى اللغة الاخرى ، والنتائج التي تم الحصول عليها حتى الان من مراكز البحث والتجربة المختلفة مشجعة جدا .

خلاصة القول اننا يجب أن لا نامل أن تقوم الآلة مقام الانسان في عملية الترجمة ، فهي لا تستطيع أن تفعل الكثير بالنسبة لبعض أشكال التعبير اللغوي المرتبطة ارتباطا وثيقا بحضارة المجتمع كالادب والدين ، ولكنها تؤدي مهمة كبيرة فعلا في مجال ترجمة الموضوعات العلمية أو الاخبارية أو الموضوعية ، وهذه مجالات

---

(١) انظر الفصل الخامس بأدناه .

واسعة وهامة للغاية . وعلى الرغم من أن نتائج الترجمات الآلية الحالية لا زالت تراجع على يدي الانسان المتخصص ، الا أن الامل كبير بأن يزيد مستوى الاتقان والكفاءة لدرجة تجعل من هـذه العملية عملية مجدية حقا .

اما فائدة الدراسات اللغوية الحديثة في مجال الترجمة بوجه عام ، فلن يتسع هذا الموضع لبيانها بالطريقة السليمة ، ولكنها فائدة كبيرة بالفعل . فقد انعكست آثار الدراسات التي سنذكر بعضها في الفصل الخامس من هذا الكتاب بأنواعها المختلفة على عملية الترجمة ، بحيث أصبحت الترجمة تعتبر علما بالاضافة الى كونها فنا ، بدلا من النظر اليها على انها مهارة وتدرب وحس فني فحسب . وقد كان من أكثر المهتمين بتطبيق النظريات اللغـوية الحديثة في مجال الترجمة تلك الجمعيات التي تخصصت بترجمة الكتاب المقدس من اللغات القديمة الى اللغات الحديثة ، وبخاصة الى اللغة الامريكية الحديثة . ومن أشهر العاملين مع هذه الجمعيات اللغوي الشهير **يوجين نايدا** (Eugene Nida) الـذي شارك ويشارك في ترجمات الكتاب المقدس كما انه قد الف ثلاثة كتب في نظرية الترجمة بين فيها بالامثلة التفصيلية العديدة كيف يجب أن نعالج المفردات ومعانيها من نواحيها المختلفة ، مع الاهتمام بالخلفية الحضارية وبالنواحي الشعورية . كما بين كيف ينبغي أن نحلل الجمل التي نرغب في ترجمتها بالطريقة التي يوصى بها أصحاب مدرسة القواعد التحويلية الى أن نصل الى العلاقات المعنويـة المباشرة القائمة بين العناصر الاولية التي تتألف منها الجملة ومن ثم نستطيع ان نعيد تركيبها بالشكل او الاشكال المسموح بها في اللغة الاخرى ، بحيث نحافظ على دقة المعنى من جهة ، وعلى الخلفية الحضارية للغة ، وعلى أسلوب الكلام الاصلي من جهة اخرى . (١)

(1) See : Eugene Nida : The Theory and Practice of Translation (Leiden : Brill), 1974.

كلمة اخيرة هنا . لقد عددنا بعض الفوائد التي نجنيها حاليا والتي يمكن ان نجنيها مستقبلا من الدراسات اللغوية المعاصرة ولكنا لم نحصرها جميعا ، لان المجال لا يتسع لذلك كله . فهنالك فوائد تتعلق بدور علم اللغة في الدراسات الادبية وفوائد تتعلق بصنع المعاجم ، واخرى تتعلق بتحسين النطق أو الكلام وتقويم ما اعوج من اللفظ ، كما أن هنالك ما يتعلق منها بالكلام المصطنع (artificial speech) ، ومنها ما يتعلق بتحسين التفاهم بين البشر اجمالا ، وبين أصحاب العمل والعمال في المصانع بوجه خاص . كما أن منها ما يتعلق بطرق الخطاب المختلفة وبأصول النقاش في المجموعات الصغيرة والكبيرة وغيرها كثير كثير ، بعضها أصبح واضحا تماما ، وبعضها الاخر مرتجى ، وقد حال ضيق المقام هنا دون التعرض لها . ولكنا اكتفينا ببعض أمثلة على تلك الفوائد لئلا يقول أحدنا : وما فائدة هذه الدراسات ؟



الفصل الثاني

الاهتمامات اللغوية الحديثة

١ ـ اهمية اللغة :

ما أن يبرز الطفل الوليد الى حيز الوجود ويرى النور لاول مرة حتى تنطلق منه الصرخة الاولى التي تدل على الحياة . ويأخذ هذا الصراخ بالتردد على فترات كلما احتاج ذلك الطفل الى الرضاعة أو تضايق من ملابسه المبللة او وخزه دبوس اللفافات التي تحيطه الام بها . وما أن تمضي أسابيع قليلة حتى يشرع هذا الطفل بالمناغاة فيأخذ باصدار أصوات متعددة مختلفة ليس من الضروري أن يكون قد سمعها ممن حوله وكأنه يقوم بتدريب أوتاره الصوتية على اصدار الاصوات المختلفة التي يختفي بعضها كلية حالما يبدأ بالكلام . وفي نفس الوقت يبدأ بالتعرف على أصوات أولئك الذين يحيطون به بصفة متصلة ، وتدريجيا يستطيع ان يميز بين أصوات الاشخاص المختلفين وبين الاصوات المختلفة للشخص الواحد كالام مثلا ، فيفرق بين الصوت الرؤوف الحنون والصوت الغاضب الحاد النبرات ، ويستجيب لكل منهما استجابة مختلفة .

وقبيل انقضاء العام الاول في معظم الحالات تنطلق من هذا الطفل أولى الكلمات ، وفي خلال العام الثاني من عمره يبدأ باصدار أصوات هي عبارة عن مفردات (أو ربما جمل ؟) للدلالة على أشياء أو رغبات متنوعة ، وبعض هذه المفردات يكون قد سمعها ممن حوله والبعض الاخر ربما لم يسمعها من أحد . وما أن ينقضي العام الثاني من عمره حتى يصبح بامكانه أن ينطق بجمل تتألف عادة من كلمتين في البداية ثم يزداد عددها ، ويبدأ بتسمية الاشياء

بمسمياتها . وبتركيب الكلمات فيما يبدو انـها جـمل مفيدة . ويستمر ذلك خلال العام الثالث ، فتزداد مفردات الطفل وتطول جمله وتصبح أقرب الى اللغة التي يسمعها من حوله . ومـا أن يبلغ الرابعة من عمره حتى يصبح بامكانه أن يركب ما يشاء من الجمل لقضاء حاجاته او التعبير عن رغباته . وفي الطفل السوي يمكن ان تقول انه يكون قد امتلك ناصية اللغة منذ سن الرابعة ولم يبق عليه الا أن يزيد من مفرداته ويتدرب على صياغة جمل اكثر تعقيدا من الجمل البسيطة التي كانت تفي بحاجاته في السابق، ومن ثم يصبح فتى فراشدا يساهم في الحياة العامة كغيره مـن الراشدين ؛ وتلازمه اللغة طوال حياته .

ولان اللغة تلازمنا منذ ولادتنا ولان كل انسان على وجه الارض يكتسب لغة قومه من غير عناء كثير ومنذ طفولته المبكرة حتى ليتصور وكأنه قد ولد وهي جزء منه او كانها تطور بيولوجي طبيعي أشبه بالنوم والاكل والمشى والتبول ، ولان الانسان يستخدم اللغة في حياته اليومية دون اعمال كثير للفكر ، يستعملها بيسر وسهولة ويرى الناس من حوله يستخدمونها بيسر وسهولة مثله ، فانه قلما يفكر فيها او يلتفت الى اهميتها من ناحية والى مقدار تعقيدها من ناحية أخرى .

الا أن وقفة قصيرة ونظرة الى الحياة التي نحياها ، تبين بوضوح أننا ، اكثر من اي وقت مضى ، نعيش عصر الكلمة ، منطوقة كانت أو مكتوبة ، وانتا باختصار لا نستطيع أن نعيش في المجتمعات التي نعيش فيها في عصرنا الحاضر بدون استعمال اللغة . فنحن نستخدم اللغة في جميع اوجه حياتنا ، نستخدمها للتعبير عن مشاعرنا واحساساتنا سواء سمعها غيرنا أم لم يسمعها ، نستخدمها لنقضي بها حاجاتنا أو لنتوسل قضاء تلك الحاجات ، نستخدمها لنقل الخبر او الاستعلام عن أمر ، نستخدمها للنفي ونستخدمها للزجر والنهي ، نستخدمها في المراسم الاجتماعية والشعائر الدينية ونستخدمها لتقوم مقـام الحدث او الفعـل ،

نستخدمها للتشجيع أو لتثبيط الهمم ونستخدمها للاقناع ، نستخدمها للاعلان والدعاية والتأثير في الناس ، ونستخدمها في الاغاني والترانيم والشعر والخطابة . نستخدمها في تنظيم علاقاتنا السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، ونستخدمها للتعبير عن تراثنا الشعبي بأشكاله المختلفة كما نستخدمها في محاولة اصلاح المجتمع أو افساده . وفوق ذلك كله فنحن نستخدم الشكل المكتوب منها لتدوين ما نريد تدوينه من صكوك ومعاهدات ووثائق أخرى ولتدوين تراثنا من أدب وعلم وفن ودين وقوانين ووجوه كثيرة أخرى من وجوه المعرفة ، فنحفظ هذه الوثائق وذلك التراث للاجيال المقبلة ويضيفون هم عليها كما أضفنا نحن الى من سبقنا فتتكون من حصيلة ذلك الحضارات المحلية والحضارات العالمية .

لقد كان للكلمة اهميتها واثرها في كل زمان ومكان منذ ان وجد الانسان على هذه الارض ، وتبارى الاقدمون في ابتكار الطرق المختلفة لحفظ وصيانة أهم ما يريدون الاحتفاظ به لهم أو للاجيال المقبلة أو للعالم الاخر . فاخترعوا **الكتابة** ثم أدواتها وموادها المختلفة واستعملوها للوصول الى هدفهم ، فوصل الينا القليل من تراثهم . وكان أهم ما تم الحفاظ عليه شفويا ثم كتابيا هي تلك الدساتير الرائعة التي اتت بها الاديان المختلفة .

ولكن أهمية اللغة لم تبدأ بالظهور بشكل واضح الا بعد اختراع **الطباعة** في أوروبا في القرن الخامس عشر ــ لما كان لذلك من اثر عميق جدا على انتشار اللغة المكتوبة . ويعتبر البعض اختراع الطباعة اكبر ثورة في عالم اللغة قبل القرن العشرين . وها نحن الان نشهد ثورة علمية تقنية تفوق كل وصف وتجعل الانجازات البشرية السابقة تبدو وكأنها نقطة في بحر . ان **وسائل الاتصال الحديثة** من الهاتف الى اللاسلكي ووسائل الاتصال الجماهيري كالمذياع والتلفاز والسينما ثم الصحافة والكلمة المطبوعة على أوسع نطاق ، بالاضافة الى وسائل تخزين المعلومات كالحاسب الآلي ، وأجهزة التصوير والنسخ الدقيقة السريعة المتعددة الانواع

والوظائف ، كل هذه جعلت من الكلمة الوسيلة التي لا غنى عنها لاي انسان يعيش في اي مجتمع متحضر في العالم واصبح أثر تلكالكلمة لا يعادله في الاهمية اي أثر آخر ، حتى لكأن أفكارنا ومعتقداتنا ومفاهيمنا أصبحت جميعها من نتاج تلك الوسائل . ويكفى ان ننظر الى استعمالين اثنين فقط من استعمالات هذه الوسائل وهما : **الاعلان والدعاية** لكي ندرك كم هي قوية ومؤثرة . لقد دخل المذياع المتنقل الى معظم بيوت العالم بحيث نقل العالم الخارجي الى سكان تلك البيوت من غير أن يتكبدوا هم مشقة الانتقال ، ثم تبعه جهاز التلفزة فنقل الصورة ايضا الى الانسان في اطراف الارض ، وذلك كله بغض النظر عما اذا كان المستمع أو المشاهد اميا أم متعلما .

لقد عشنا جميعا عصر هبوط الانسان على سطح القمر وشاهدنا الخطوات الاولى التي خطاها الرواد الاوائل وسمعنا أصواتهم يصفون ما يرون . كما نقلت الاجهزة نقلا موضوعيا جميع الظواهر والظروف السائدة على سطح ذلك الكوكب وفي الطريق اليه والعودة منه . ولا زلنا نتلقى تلك المعلومات عن كواكب أخرى تبعد عنا مسافات سحيقة عن طريق الاجهزة المختلفة ثم تتحول تلك المعلومات الى لغة بعضها يفهمه الانسان العادى وبعضها لا يفهمه الا العالم المتخصص .

لم يعد بلد من البلدان ، أو شعب من الشعوب يستطيع أن يعيش العصر الحاضر بمعزل عن بقية انحاء العالم . فالمصالح متشابكة ووسائل الانتقال سريعة للغاية ، فما يكاد يحدث حدث هام في اي جزء من العالم حتى ينتقل خبره الى جميع انحاء العالم الاخرى ، وربما اهتزت له حكومات وسقطت اخرى ، وربما نشبت الحروب وقتل الالوف او الملايين وربما كان رد الفعل ايجابيا فهبت الدولوالشعوب تمد يد المساعدة لبلد حلت به كارثة وتشاركه الشعور بالاسى على تلك المصيبة ، وكم من خبر هز الاوساط العلمية أو الرياضية أو السياسية أو الاقتصادية بشكل أو بآخر فاتى بردود فعل تختلف باختلاف الخبر واهميته ونوعه .

لقد اصبحت المؤتمرات والاجتماعات المحليـة والقطريـة والعالمية ، والمنظمات الدولية ظاهرة بارزة من ظواهر هذا القرن ، وعلى قمتها حاليا مجلس الامن وهيئة الامم المتحدة ، واصبح تفاهم الشعوب والحكومات أمرا لا غنى عنه ، ويتم هذا التفاهم بشكل رئيسي عن طريق الكلمة .

لا نجد مبررا للمضي في بيان اهمية اللغة في حياة الشعب الواحد أو الشعوب المختلفة ، لاننا نعتقد أن ذلك اصبح واضحا الان ، ولكنا نختم كلامنا بما رواه أحد الباحثين من أن سوء تفاهم لغوي هو الذي تسبب في القاء القنبلة الذرية على هيروشيما في اليوم السادس من شهر اغسطس (آب) من عام ١٩٤٥ . فقد ذكر أن أمريكا وجهت الانذار المعروف لليـابان تطلب منها فيـه التوقف عن الحرب والاستسلام فأجابت اليابان بلغتها مستخدمة كلمة تفيد انهم **يبحثون** الانذار ، الا أن المترجم نقل معنى اخـر للكلمـة ــ هو أحـد المعـاني المعجمية لها ــ يفيد أن اليابـانيين يرفضون الانذار . فكان ما كان ، وذهب مئات الالوف ضحايا سوء الفهم هذا . ومهما بلغت هذه الرواية من الصحة ، فان المهم انها ممكنة الحدوث حتى على هذا المستوى وهي تحدث عـلى مستويات أقل في كل زمان ومكان .

● ● ●

٢ ـ اللغة نظام في غاية التعقيد :

فاذا انتقلنا الان الى النقطة الاخرى التي ذكرناها في مقدمة هذا الكلام وقلنا ان المتحدث بلغة ما لا يفطن لها ، الا وهي قضية مدى تعقيد اللغة ، نقول ان الفرد الذي يتكلم لغة قومه (ولنسمها من الان فصاعدا « لغة الام » ، وهو الاسم الذي يطلق عليها عادة) يستخدمها في حياته العادية بيسر وطلاقة دون أن يفكر كثيرا فيما يقول ، فكأن اللغة قد اصبحت عنده عادة كسياقة السيارة أو ركوب الدراجة ، عادة يقوم بها بشكل آلي فتؤدى الغرض المطلوب منها بشكل طوعي وسريع .

هذا أمر يبدو طبيعيا لا يحتاج الى وقفة طويلة ، فهو أمر يمكن ملاحظته في كل مجتمع مهما بلغ رقيه او تخلفه ، نلحظه بين أفراد الهنود الحمر في مستوطناتهم المعزولة في غابات الامازون ، كما هي طوع بنان العالم في معمله ورجل الاعمال في مؤسسته واستاذ الجامعة في قاعة محاضراته . وهي وسيلة التفاهم السهلة عند الطفل في الرابعة من عمره كما هي عند الكهل حتى لو اصابه الخرف والراشد حتى لو كان ضعيف العقل . كل هذا يبدو طبيعيا للغاية بالنسبة للانسان العادي ، ولكن ما أن يبدأ عالم اللغة أو المتخصص في أي نوع من فروعها بدراسة تلك الظاهرة حتى يصيبه الذهول . ان السهولة والطلاقة التي يستخدم بها الناس ، جميع الناس ، لغتهم الاصلية تعطي انطباعا خاطئا جدا ، هو أن اللغة بسيطة للغاية . ويؤيد هذا الانطباع ما نلاحظه من أن الطفل الذي لم يتجاوز الرابعة من عمره يكون قد ملك زمام اللغة في مدة قصيرة للغاية لا تتعدى السنتين أو الثلاث ، على الرغم من أن عقله لا زال في طور النمو المبكر . فاذا بدأ عالم اللغة بوصف اللغة من حيث تركيبها الداخلي وطريقة تعبيرها عن المعاني ، وجد أمامه مشكلة عويصة للغاية ، بدأ العلماء في محاولة حلها منذ آلاف السنين ولم يتوصلوا الى نتيجة مرضية لذلك حتى اليوم ، لانه يجد أمامه نظاما في غاية التعقيد يتألف بطرق معينة من انظمة اخرى كل منها

لا يقل تعقيدا عن الاخر . فاذا بدأ في محاولة وصف كل من تلك الانظمة وجد نفسه بحاجة الى عون كثير أو قليل من علماء اخرين يعمل بعضهم في المخابر الخاصة بتحليل الاصوات البشرية ، بينما يختص اخرون بعلم النفس ، وغيرهم بعلم الاجتماع أو علم الاجناس أو بنظرية المعلومات وطرق الاتصال ، او بهندسة الصوت عند انتقاله في الهواء .

فاذا ما اطلع عالم النفس بشكل خاص على ذلك التعقيد الذي تتميز به اللغة ، سارع الى اعادة النظر في الفرضيات أو النظريات السابقة عن كيفية اكتساب الطفل للغة الام ، وبدأ بالبحث من جديد محاولا أن يسبر غور النفس البشرية بطريقة علمية تجريبية لعله يتوصل الى حل هذا اللغز العجيب ، يشد من أزره في هذا الاتجاه ما يلاحظه من فشل معظم الراشدين في تعلم واتقان لغة أجنبية كما يتقنها ابن الرابعة على الرغم من مثابرتهم وقوة الحافز لديهم وقضائهم السنوات الطوال وهم في قمة نضوجهم العقلي في محاولة الوصول الى ذلك .

ربما كان ما ذكرناه حتى الان عن مدى تعقيد اللغة كلاما غير واضح تماما لانه كلام عام . ولذلك سنحاول الان أن نعطى فكرة اكثر وضوحا عما نعنيه ، وذلك بتحليل ما يجرى عندما يقول انسان كلاما مفيدا ويسمعه انسان اخر . اي اننا سنحاول ان نصف ما يسمى **حدثا لغويا** .

ان اللغة في ظاهرها **اصوات** وهذه الاصوات تعبر عن **معان** . ويبدو هذا أمرا بدهيا يعرفه الجميع ، ولكن ما هو بحاجة الى دراسة وتحليل هو تلك العلاقة التي تقوم بين هذين العنصرين لان جوهر اللغة في الواقع هو هذه العلاقة . فاذا استطعنا أن نفسر كيف يكون الانسان الرسالة التي يريد نقلها الى الاخرين وكيف يطلقها أصواتا في الهواء ، ثم كيف تنتقل هذه الرسالة في الهواء

حتى تصل الى اذن السامع ثم كيف يحلل هذا رموزها ويفهم معناها ، اذا استطعنا أن نفعل ذلك فقد ألقينا بعض الضوء على عملية التكلم او على ما ندعوه بالحدث اللغوى .

أولا ، لا بد لمن يرغب في الكلام ان يتأثر بمؤثر يدفعه الى ذلك ، والا لزم الصمت . وهذا المؤثر يمكن ان يأتي من الخارج عن طريق احدى الحواس كأن يرى انسان صديقا له فيشعر بأن عليه ان يبادره بالتحية ويسأله عن حاله ، او يرى بائعا متجولا يبيع الفاكهة فيناديه ليشتري بعض ما عنده او يسمع دوي انفجار فيتساءل عن طبيعته أو مصدره أو سببه أو يشم عطرا جميلا فيبدي اعجابه بـه ، او يلمس اناء حارا فتكاد اصابعـه تحترق فيعبر عـن سخطه لعدم انتباهه . وربما اشتركت اكثر من حاسة واحدة في تلقي المؤثـر الخارجي ـ وهذا هو الغالب ـ ولكن يمكن ان يكون المؤثر داخليا كأن يشـعر الانسان بالجـوع أو العطش أو الضيق أو المرض او الراحة او الفرح فيعبر عن أي من تلك الاحاسيس بطرق مختلفة منها اللغوي ومنها غير اللغوي .

خلاصة الامر أن انسـانا يشعر بحاجة الى التعبير عن شعور او حاجة أو فكرة عن طريق الكلام ، وهو بالطبع يتقن لغته الاصلية كما أنه قادر على النطق . اننا من هذه اللحظة حتى تلك التي تصل فيها الرسالة الى المستمع ويفهمها نستطيع أن نميز مراحل ثلاثا رئيسية تنقسم كل منها الى عدة عمليات فرعية .

أما المرحلة الرئيسية الاولى فهـي مرحلة تكوين الرسالـة واطلاقها اصواتا وهذه تخص المتكلم . والمرحلة الثانية هي تلك التي تنتقل فيها الامواج الصوتية عبر الهواء الى أن تدق طبلة الاذن عند المستمع ثم تنتقل الى دماغه . أما المرحلة الاخيرة فتتعلق بالمستمع وكيف يعيد تركيب الرسالة من الاصوات التي تصله الى المعنـى الذي تحمله .

ولنأخذ حدثا لغويا بسيطا مادة لهذا التحليل كأن يمر رجل في الطريق فيرى بيتا يحترق فيسارع الى اقـرب هاتف ويتصل بالشرطة أو فرقة الاطفاء ليبلغهم ما شاهده بقوله «البيت يحترق» .

ان أول ما يفعله المتكلم في المرحلة الاولى ـ اي مرحلة تركيب الرسالة واطلاقها هي مهمة اختيار المعانـي ووضـعها في القوالب الجاهزة لذلك والمتوفره في لغته . ولن نتطرق هنا الى الجدل الذي ما زال قائما عبر القرون عما اذا كانت الافكار يمكن ان تتكون بدون القوالب اللغويـة أو أن تلك الافكار والقوالب شيء واحـد أو أن القوالب اللغوية هي التي تحدد الافكار ، فربما أشرنا الى ذلك في موضع اخر ، الا اننا سنفترض هنا أن الفكرة لا بد لها في الغالب من قالب لغوي للتعبير عنها . ولتبسيط الامر نقول ان بعض القوالب اللغوية الخاصة بالمعنى هي تلك المفاهيم التي تعبر عنهـا الكلمات المجردة التي نجدها في المعجم . فاذا عدنا الى الجملة التي قالهـا المتكلم وهي « البيت يحترق » . نجد ان **مفهوم المكان** قد اختار له المتكلم باللغة العربية قالب أو كلمة « بيت » للدلالة عليه ، كما أن **مفهوم الحدث** « الذي رآه وهو الحريق قد اختار له قالب او كلمة « حرق » وبهذا يكون قد اختار للحدث الذي رآه وحدتين من تلك الوحدات او قالبين من تلك القوالب التي تدل على المعاني في لغته .

ومن الملاحظ اننا قد اكدنا في أكثر من موضع على لغة معينة هي اللغة العربية في حالتنا هذه لان متكلما بلغة أخرى يمكن أن يختار وحدات أو قوالب معنوية أخـرى متوفرة في لغة غـير تلك التـي اختارها المتكلم باللغة العربيـة . ويكفي مثل واحـد لبيان ذلك . فالناطق باللغة الانكليزية كلغة الام مثلا يمكن ان يركب الرسالة على الشكل التالي A house is on fire ويكون بهذا قد اختار وحدة معنى أو قالبا للدلالة على مفهوم المكان شبيها بمااختاره الناطق باللغة العربية ـ رغم اختلاف أصواته تماما ـ بينما اختار للدلالة على الحديث وحده مغايرة هي fire أو « نار » بدلا من الوحدة

« حرق » التي اختارها الناطق باللغة العربية . ومن الممكن ايراد أملثة اخرى من لغات اخرى نرى فيها تشابها أو اختلافا في القوالب الدالة على المعنى التي تعبر فيهـا كل من تلك اللغات عـن المعنى الواحـد .

أما وقد اختار المتكلم العربي وحدتي المعنى المذكورتين فـان الخطوة التالية هي أن يقوم باختيار الوحدات اللغوية (أو وحدات القواعد) المناسبة ، وينظمها معا بالشكل المتعارف عليه في لغته . وهنالك ، كما هو معروف ، طرق كثيرة لتنظيم وحدتي المعنـى المذكورتين سابقا بموجب قواعد اللغة التي يستعملها المتكلم . ففي اللغة العربية مثلا يمكنه ان يربط بين الوحدتين المذكورتين علـى الصور التالية :

احترق البيت
حرق البيت (بضم الحاء)
البيت يحترق
في البيت حريق
هنالك حريق في البيت
البيت محترق
البيت محروق
ان في البيت حريقا

وصور غيرها . وليست معاني جميع هذه الجمل متشابهة تماما ، واختلاف المعنى هنا ليس ناتجا عن وحدات المعنى التي اختارها المتكلم ، بل عن الطريقة اللغويـة ـ الصرفية والنحويـة ـ التي تتغير وتنتظم فيها تلك الوحـدات . أي أن القواعـد اللغوية هنا تفرض على المتكلم ظلالا من المعاني عليه أن يختار منها ما يناسب المقام . فاذا قرر أن يختـار الصورة التي ذكرناهـا وهي جملة « البيت يحترق » المؤلفة من مبتدأ خبره جملة فعلية ، فان قواعد لغته تفرض عليه الامور التالية :

ــ اولا ، اما ان يحدد البيت ويعرفه فيستعمل أداة التعريف او يتركه نكرة بدون تلك الاداة .

ــ ثم تفرض عليه أن يبدأ بكلمة « بيت » ويرفع آخرها ، للدلالة على انها المبتدأ ، او الشيء الذي سيتركز عليه الكلام .

ــ ثم توجب تلك القواعد ان يحدد المتكلم صيغة الفعل الذي قرر استعماله من حيث زمن وقوعه من جهة ، واستمرار الحدث أو انتهائه من جهة اخرى .

ــ ثم تضطره قواعد لغته أن يطابق بين المبتدأ والخبر من حيث التذكير والتأنيث والافراد والتثنية والجمع الخ .. وما دام قد اختار ان يكون البيت مفردا فان على الفعل أن يتخذ شكلا معينا هو ما نراه بأعلاه . وما دام الفعل مذكرا فهو لا يستطيع أن يستعمل الصورة « تحترق » بدلا من « يحترق » .

وهكذا نجد أن قواعد اللغة قد فرضت على المتكلم أن يستخدم بعض وحداتها مثل : أل التعريف ، الضمة في آخر المبتدأ وعلى اخر الفعل المضارع والشكل « يحترق » للدلالة على الزمن الحاضر وعلى استمرار الحدث ، بدلا من « حرق » او « محروق » الى غير ذلك مما ذكرناه . وهذه جميعا يعتبرها اللغوى من وحدات القواعد التي تساعد على ابراز تلك المعاني التي لا تستطيع وحدات أو قوالب المعنى أن تؤديها منفردة ، والتي على المتكلم بهذه اللغة أن يلتزم بها لكي يستطيع أن يركب الرسالة التي يرغب في بثها . وهذه ايضا يتشابه بعضها ويختلف بعضها الآخر من لغة الى اخرى .

لقد قام المتكلم حتى الان بعمليتين فقط من عمليات المرحلة الاولى وكلتاهما جرتا في داخله (وليست طريقة عرضنا للطريقة التي تتمان بها هي الطريقة الوحيدة التي يقول بها جميع

اللغويين) . أما العملية الثالثة فهي عملية اختيار الاصوات المناسبة لبث الرسالة ، أي تلك الاصوات المتعارف عليها في المجتمع اللغوي الذي يعيش فيه الفرد . لقد اصبحت لديه سلسلة من وحدات المعنى ، متصلة ومرتبطة ببعضها بوحدات أخرى تفرضها قواعد اللغة (ويسمي اللغويون كلا من تلك الوحدات جميعا **بالمورفيمات** (١) ، كما سيرد تفصيله في موضع اخر) . والمطلوب الان من المتكلم أن ينظر في الاصوات المتوفرة في لغته فيختار منها أصغر وحدات للصوت (وهي ما يسميها اللغويون بالفوينمات) ويركب من كل مجموعة منها الشكل المناسب للتعبير عن المورفيمات التي أصبحت متوفرة لديه . وهنا تتكشف لنا خاصية لغوية مذهلة . ففي كل لغة عدد محدود جدا من **الفوينمات** (أو الاصوات المفردة المميزة) (٢) ، لا معنى لاي منها بحد ذاتها ، اذ لو كانت كل منها تدل على معنى مورفيم معين ، لاحتجنا الى استعمال عدد من الاصوات المفردة بعدد المورفيمات أو المفردات التي نحتاجها في حياتنا وهي تعد بالآلاف اذا حصرنا كلامنا بلغة الحديث العادية فقط ، وهذا أمر يكاد يكون متعذرا ويجعل من اللغة نظاما يبلغ تعقيده درجة تقف حائلا دون اتقانه . لقد تحايلت اللغات البشرية على هذه الصعوبة الضخمة بأن اختارت كل منها (أو اختار اصحابها) **عددا محدودا** من تلك الاصوات المفردة المتميزة ، الا انها تركت لاهل اللغة حرية تركيب تلك الاصوات على شكل مفردات متميزة تعد بمئات الالوف في كل لغة .

---

(١) يمكن تعريف « المورفيم » بشكل عام بأنه أصغر وحدة لغوية ذات معنى . فالمفردات المجردة مورفيمات ، وكذلك « أل التعريف » وكل من التغييرات الصرفية التي تطرأ علي المفردات .

(٢) هذه الاصوات هي ما قصد من حروف الابجدية أن تدل عليها ، ولكن الواقع انها اكثر عددا من تلك الحروف ، كما سيرد فيما بعد .

لا داعي لان نتابع بحث هذه الخاصية هنا ، فلذلك موضع آخر ، ولنعد الى صاحبنا الذي لا زال يجاهد لتأليف رسالته البسيطة .

لقد قلنا ان عليه أن يختار القوالب الصوتية المتعارف عليها في مجتمعة ليصب فيها وحدات المعنى والقواعد المختلفة التي توصل اليها . انـه يقوم باختيار الصوتين المنفرديـن : صوت « الهمزة » وصوت « اللام » وينظمهما معا بحيث تسبق اولاهما الثانية وتكون الاولى مفتوحة بينما تكون الثانيـة ساكنة وذلك للدلالة على معنى **التعريف** أو **المعرفة** ، وهو يفعل مثل ذلك عندما يختار اصوات الباء والياء والتاء بحيث يكون الصوت الاول متبوعا بصوت آخـر (تعارفنا على تسميته **بالفتحة**) والثانـي ساكنا والثالث متبوعا بما نشير اليه **بالضمة** ، وهو لا يستطيع أن يرتب هذه الاصوات الثلاثة بحيث تصبح « يبت » أو « تبي » أو «تيب » مثلا لان أيـا من هذه السلاسل من الاصـوات لا تؤدي الدلالة المطلوبة ثم يتابع عمله بنفس الطريقة فيما تبقى من الجملة .

لقـد اصبحت الرسالة جاهـزة لـدى المتكلم الآن وبقى عليه اصدارها . والخطوة التالية هي أن يقوم الدماغ باصدار أوامره الى أجهـزة النطق المختلفـة لكي تؤدى الحركـات المعنيـة اللازمة لنطق هذه الجملة . اما الخطوة الاخيرة من هذه المرحلة الاولى فهي أن تقوم أجهزة النطق بالفعل باصدار الاصوات المطلوبة وهنا يكون دور المتكلم قد انتهى .

وما أن تصدر تلك الأصوات عن أجهزة النطق حتى تحدث اهتزازات في الهواء تتولد عنها موجات صوتية تنتشر في كل مكان يحيط بالمتكلم . وتمتد الى مسافات محددة ، ثم تبدأ بالضعف تدريجيا الى أن تصبح الاذن البشرية غير قادرة على التقاطها واضحة وفهم معناها ، وربما انتقلت هذه الموجات عبر الهاتف كما في الحالة التي نتكلم عنها فتمتد مسافة وصولها الى اذن السامع الى ابعاد اكبر . فاذا ما استعمل اللاسلكي ووسائل التقوية

الصوتية الحديثة ، وصلت تلك الموجات الصوتية جلية واضحة الى أقاصي الارض ، بل والى الفضاء الخارجي أيضا .

المهم أننا سنفترض أن ظروفا مواتية قد صاحبت تلك الامواج الصوتية الى أن تطرق اذن السامع فتدق طبلتها وتحدث اهتزازات في أذنه الوسطى والداخلية تنتقل عبـر الاعصاب الى الدماغ . وهذه هي المرحلة الثانية التي يمكـن وصفها وصفـا علميا دقيقا عن طريق علم الطبيعة وعلم وظائف الاعضاء .

اما المرحلة الثالثة وهي التي يقوم بها السامع بحل رموز تلك الرسالة الصوتية والتوصل الى تركيبها الصوتي والصرفي والنحوي ويستخلص منها المعنى الذي يقصده المتكلم ، فهي كالمرحلة الاولى ، من اعصى المراحل على التحليل والوصف لانها تتم كلها داخل الدماغ .

ان المنطق يوحي بأن حل تلك الرموز يتم بطريقة معاكسة للطريقة التي ركبت فيها ، ولكن نتائج التجارب الحديثة لا تؤيد هذه الفرضية ، (وسناتي على تفصيل بعض من ذلك في الفصل الثالث). والسبب الاساسي لذلك هو ان العلاقة بـين الصوت والمعنى ، ليست علاقة مباشرة ، بل تخضع لقواعد اللغة ، وقواعد اللغة من التعقيد بحيث لا تجعل امر استخلاص المعنى من الصوت امرا سهلا ، مع انها في نفس الوقت عامل مساعد رئيسي في الوصول الى ذلك . النقطة الواضحة الاكيدة هنا هـي انه ليس باستطاعـة السامع أن يفهم رسالة المتكلم الا اذا كان ينتمي الى نفس المجتمع اللغوي ويشترك معه في استعمال تلك اللغة في ذلك المجتمع . - وهذا لا يعني بالطبع أن كل مستمع يفهم ما يرمي اليه كل متكلم من كلامه ، بل أن كثيرا من سوء الفهم حاصل في كل لحظة .

ان عملية الاستماع والفهم لربما كانت اشق بمراحل مـن عملية النطق بالكلام . ولهذا اسباب كثيرة بعضها يتعلق بطبيعة الصوت او على الاصح بالموجات الصوتية . فلهذه صفات مختلفة

بعضها يساعد على سماع الصوت بوضوح وسهولة وبعضها يعطل ذلك . وتختلف هذه الصفات باختلاف الانسان الذي يصدر الاصوات من جهة : اهو رجل او امراة ؟ اهو فتى ام فتاة ؟ اهو بالغ راشد ام طفل ؟ وهي تختلف أيضا بالنسبة للغة نفسها التي يتكلمها مجتمع معين ونوعية الاصوات التي اختارها المجتمع لاستخدامها في التعبير .كما تختلف باختلاف الحالة النفسية أو الانفعالية للمتكلم من السرور الى الغضب الى الحزن الخ . كما ان صفات تلك الموجات الصوتية تتأثر بالوسط الذي تنطلق وتمر فيه وبمدى السكون أو الضجة الموجودة فيه في ذلك الوقت . ثم انها تختلف ايضا بالنسبة لوضع المتكلم والسامع من بعضهما : اقريبان هما ام بعيدان بعضهما عن بعض ؟ وهل السامع ينتظر صدور الصوت من المتكلم فهو لذلك متنبه متيقظ ، أو انه يسمع الاصوات عرضا ؟ وهل المستمع مهتم بموضوع الحديث أم لاه عنه يفكر بأشياء أخرى ؟وهل اعضاء السمع عند المستمع في حالة ممتازة ام سيئة أم بين بين ؟ .

هذه أمثلة فقط من العوامل المتعددة جدا التي تؤثر في عملية السمع والفهم ، بعضها طبيعي (فيزيائي) وبعضها الآخر فسيولوجي ، بعضها نفسي وبعضها الآخر عصبي أو اجتماعي الى آخره . وهي تجعل من عملية الاستماع والفهم عملية معقدة للغاية .

الا أننا سنفترض ثانية ان جميع الظروف كانت مواتية وان الرسالة قد وصلت فعلا الى اذن السامع واستطاع فهم معناها الذي قصده المتكلم ، فما هو رد الفعل الذي سيصدر عنه ؟ وهل نستطيع أن نتنبأ برد الفعل هذا بغض النظر عن المجتمع الذي يعيش فيه الفرد الذي صاح قائلا « البيت يحترق » ؟ ان هذين السؤالين يعودان بنا الى الوراء ، أي الى ما قبل صدور رد الفعل اللفظي على رؤية الرجل لبيت يحترق ، ويدفعاننا الى سؤال اخر هو : كيف تنبأنا بأن رد فعل صاحبنا عندما رأى بيتا يحترق سيكون

أن يهرع الى الهاتف ويتصل بالشرطة أو الاطفاء ليخبرهم أن البيت يحترق ؟ والجواب على ذلك أننا افترضنا مجتمعا معينا هو مجتمع مدينة حديثة تتوفر فيها اجهزة الاتصال الحديثة كالهاتف ، كما تتوفر فيها الفرق الخاصة باطفاء الحرائق وهي التي تقع على عاتقها هذه المسؤولية . كما افترضنا حسا اجتماعيا معينا لدى صاحبنا وخوفه من أن ينال بعض اخوانه المواطنين سوء من جراء الحريق ومن أن تمتد السنة اللهب الى البنايات المجاورة فينتج عن ذلك كارثة اجتماعية واقتصادية للافراد وللمجتمع وربما لجهاز الحكم ايضا . وقد تصورنا أن يكون رد فعل هذا الرجل هذا التصرف الطبيعي المتعارف عليه في مثل هذا المجتمع .

ولكن لو افترضنا مجتمعا آخر ، ولنقل انه قرية صغيرة نائية ، طرق المواصلات المؤدية اليها سيئة ، ولا يتوفر فيها هاتف أو آلات حديثة لاطفاء الحرائق . فهل يكون سلوك الفرد الذي رأى الحريق مشابها لسلوك صاحبنا الساكن في مدينة عصرية ؟ الجواب : لا ، بالطبع . ان رد فعل هذا الفرد سيكون مطابقا لما هو متعارف عليه في مثل هذه الحالات في مجتمعه الصغير المنعزل . فهو في الغالب سيبدأ بالصراخ والانتقال من مكان الى اخر في القرية وربما في الحقول ايضا ليعلم الفلاحين بأمر الحريق ، كما أن رد فعل الفلاحين سيكون في الغالب عملا تعاونيا يعمل على اطفاء الحريق باستعمال الدلاء وأقرب مصدر للمياه .

ولنتصور الان مجتمعا اخر كاحدى القبائل البدائية في مجاهل احدى القارات ، لا زالت تؤمن مثلا بأن الحريق عقاب من الاله ينزله بمن لا يؤدي له الواجبات المفروضة عليه . فماذا يكون رد فعل الفرد الذي يشاهد الحريق من ابناء تلك القبيلة ، وماذا يكون رد فعل الجماعة التي تعلم بذلك من هذا الفرد ؟ من الصعب التنبؤ بذلك الا اذا استانسنا بدراسات علماء الاجناس عن نماذج السلوك المختلفة في مثل ذلك المجتمع . فربما كان رد فعل المشاهد هو الرهبة الشديدة والركوع أمام الحريق والترتيل ببعض الادعية

والترانيم الدينية لعل الاله يرضى عن المذنب فيخفف من غضبه وسخطه عليه ، وربما كان رد فعل بقية افراد المجتمع الذين يرون المنظر أو يسمعون الخبر مشابها لذلك الفرد ايضا او مغايرا له في كثير أو قليل . اذ ربما اتت النار على جميع أكواخ تلك القبيلة ، ولكن نظرا الى أنها قد بدات في كوخ معين فان صاحب ذلك الكوخ يستحق العقاب من الجماعة لانه أغضب الآلهة ، وهو لذلك يقدم للمحاكمة في مجلس القبيلة وينزل به ما يقرره ذلك المجلس من عقـــاب .

لعل بعض ما ذكرنا من انماط السلوك المختلفة تجاه الحدث الواحد يبدو غريبا أو مستهجنا ، ولكن الواقع ان انماط السلوك تختلف اختلافا كبيرا جدا لدى المجتمعات المختلفة ، ويعبر عنهـا بأساليب لغوية متباينة بمقدار تباين تلك المجتمعات في الاسس الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تقوم عليها .

وأخيرا هنالك ناحية هامة لم نشر اليها حتى الان . وهي أن الجملة التي ذكرناها وهي « البيت يحترق » تعتبر مـن حيث التركيب جملة اخبارية فلماذا استعمل صاحبنا هذا الشكل من الجملة بينما هو في واقع الامر **يطلب** من الاخرين أن يقوموا بعمل ما ؟ الواقع انه لم يكن ليفعل ذلك لولا أنه يعلم بالسليقة أن **الوظيفة** الحقيقية لهذه الجملة في ذلك المقام هي الطلب وليس الاخبار . واذا كان هذا صحيحا فان وظائف اللغة ربما اتفقت مع شكلها الخارجي احيانا ، واختلفت عنه اختلافا قليلا أو كثيرا في احيان اخرى . أن سامع هذه الجملة فهم أيضا وظيفتها الحقيقية وتصرف عـلى اساسها . وهذا يبين أن هذه الوظائف اللغويـة امـور مفهومـة ومتعارف عليها ايضا بين افراد المجتمع الواحد .

....

ارايت معي كم بذل صاحبنا من الجهد والعناء الى أن تمكن من أن يبعث برسالة كلامية مؤلفة من جملة واحدة في غاية السهولة

والايجاز ؟ وكم لاقى صاحبنا الاخر ، المستمع ، من العنت لكي يحل رموز تلك الرسالة ويفهمها ويسلك السلوك الملائم لها ؟

ولكن هل الواقع ان صاحبينا هما اللذان اجهدا انفسهما كل هذا الجهد باصدار الرسالة واستقبالها ، أم اننا نحن الذين لاقينا مشقة كبيرة بمحاولتنا تحليل ما حصل ووصفه وشرح جوانبه المختلفة ؟ الواقع ان المتكلم لم يجد صعوبة تذكر في بث رسالته ، فقد استجاب للمؤثر الطبيعي بالطريقة المتعارف عليها في مجتمعه ، كما أطلق الرسالة اللغوية بالطريقة المقبولة أيضا في ذلك المجتمع . صحيح أن بعض الخيارات كانت مفتوحة أمامه طوال الوقت فاختار منها ما يعتقد انه الانسب ، فقد كان بامكانه مثلا ان يمر بالمشهد مرور الكرام ، او ان يقف ليتفرج عليه ، أو ان يستقل سيارته لينقل الخبر الى الجهات المسؤولة ، الى غير ذلك من انواع السلوك الممكنة في ذلك المجتمع ، الا انه اختار احداها وتصرف على هذا الاساس ، وتصرف بسرعة وعفوية ، أو ربما بعد قليل من التفكير .

اما المستمع أو المستمعون من الناحية الاخرى فربما وجدوا بعض المشقة في سماع الخبر وفهمه وربما لم يجدوا شيئا من ذلك على الاطلاق . اما تصرفهم فقد أملته عليهم الاعراف السائدة في مجتمعهم بالذات .

ان اللغة ، كما ذكرنا في بداية هذا الحديث ، عنصر هام للغاية بل هي أهم العناصر التي يتكون منها دستور مجتمع معين ، والتي تتحكم في سلوك أفراده اللغوى منها وغير اللغوي الى حد بعيد . وهي بالنسبة للفرد جزء لا يتجزأ من كيانه ، اكتسبها منذ طفولته المبكرة جدا واصبح يستخدمها كما يستخدم الهواء الذي يتنفسه والطعام الذي يتناوله ، دون كبير مشقة ، وحتى دون شعور باهميتها وبمبلغ تعقيدها . وهذا ينطبق عليه صامتا كان أم متكلما أم مستمعا ولكن ها نحن قد أمضينا وقتا ليس بالقصير نحاول جاهدين أن نفسر تلك الظاهرة ، أو ذلك الحدث اللغوى

البسيط للغاية والذي لم يستغرق سوى ثانية او اقل من ذلك قليلا . وقد كنا نحاول أن نلم بجوانبه المختلفة . واغلب الظن اننا قد اوجزنا كثيرا فقصرنا تقصيرا كبيرا ، ولذلك فانا نعدك بشرح مزيد من تفاصيل تلك العملية فيما تبقى من هذا الكتاب . ولكن لعلنا استطعنا ان نعطى ولو فكرة اولية مبسطة للغاية عن مدى التعقيد في ذلك النظام الذي نسميه **اللغة** لنثير الاهتمام فيما سيأتي من كلام فيه تفصيل أكثر وايضاح اكبر .

ان اللغة لغز كبير حار العلماء في حله منذ آلاف السنين ، واغلب الظن أنهم ما ظفروا من ذلك الا بالقليل القليل حتى اليوم .

ان اللغة بحق سر الله في خلقه من بني البشر .

● ● ●

٣ ـ اللغة محور الدراسات الانسانية :

في اثناء وصفنا لحدث لغوي واحد بسيط وجدنا أن العمليات التي يمر بها الحدث من البداية الى النهاية عمليـــات مختلفة بعضها يخص اللغوي وحده ولكن اكثرها لا يخصه وحده ، بل ان بعضها لا يستطيع اللغوى أن يفعل شيئا ازاءه ، بل ينتظر المعونة والفرج من غيره .

وكنا قد بينا قبل ذلك مدى أهمية اللغة بالنسبة للمجتمعات البشرية بحيث لا نستطيع أن نتصور عالما بشريا بدون وجـود اللغة . ان اللغة بالنسبة للمجتمع هي بمكانة القلب مــن الجسم البشري ، كما انها المحور الــذي تدور حوله جميــع الدراسات الانسانية ، وبعض الدراسات الطبيعية والتطبيقية أيضا .

ان النظر في طبيعة اللغة مثلا يمكن أن يتم من زوايا متعددة . فمن الناحية الصوتية الصرفة يشترك ثلاثة أنواع من العلمـاء والباحثين في دراستها ووصفها . فهنالك أجهزة النطق التي تتحرك بطرق مختلفة لاصدار الاصوات المتباينة . فهي ، من ناحية ، موضوع بحث عالم وظائف الاعضاء ، ومن ناحية اخرى موضوع دراسة عالم الصوتيات . أما الصوت بعد انطلاقه في الهواء ، فهو من اختصاص عالم الطبيعة والمهندس الكهربائي المختص بوسائل الاتصال والذي يعنى بشكل خاص بتحويل الامواج الصوتية الى أمواج كهرومغناطيسية للاستفادة منها في مجال الاتصالات البعيدة المدى . بالاضافة الى أن الصوت يطرق الاذن وهي عضو من أعضاء الجسم ، فهي من اختصاص عالم وظائف الاعضاء أيضا .

أما علاقة الدماغ باللغة والنطق فيشترك في دراستها اللغوي وعالم النفس والطبيب المختص بالجهاز العصبي ، وذلك في محاولة لتفسير تلك العلاقة والاستفادة منها في علاج بعض الاضطرابات والامراض اللغوية من ناحية ، وفي الاهتداء الى أسرار بعض أوجه اللغة من ناحية اخرى .

ان اهتمام علم النفس يتطرق الى معظم نواحي اللغة تقريبا وبخاصة ما له علاقة بالعقل والنفس البشرية ــ وقد وردت الاشارة اليه في غير موضع في اثناء شرحنا للحدث اللغوي في الصفحات السابقة ــ . ومما يشغل بال علماء النفس اللغوي مثلا طرق تكون العادات اللفظية واثرها والفروق الفردية في اكتساب اللغة وسيكولوجية القراءة وعلاقة اللغة بالشخصية ، وعيوب الكلام .. الخ ولكن أهم ما يشغل بالهم حاليا الامور التالية (التي سنتعرض لها بشيء من التفصيل في الفصل القادم) :

الامر الاول : النظرية الحديثة في القدرة اللغوية الفطرية ، التي اتى بها تشومسكي ، ومدى صحتها ، وماهية تلك القدرة التي تولد مع الطفل ، ودور النشأة في بيئة معينة ، والاكتساب من تلك البيئة .

والامر الثاني : هو العلاقة بين القدرة اللغوية التي يتمتع بها الانسان والاستعمال الفعلي للغة .

اما الامر الثالث : فهو كيفية تركيب الفرد للرسالة الكلامية التي يصدرها ثم كيفية فكه لرموزها ــ وهو ما وصفناه بشكل عام غير دقيق كل الدقة في الصفحات السابقة ــ .

ان نتيجة البحث في هذه الامور الثلاثة تتعلق مباشرة بالطريقة التي يكتسب بها الطفل لغة الام من ناحية ، وكيف يختلف ذلك عن طريقة تعلم الراشد او الطفل للغة اجنبية من ناحية اخرى ، وهذا ينعكس بالطبع على مناهج تدريس اللغات ، اصلية واجنبية ، وطرق تدريسها والمواد التعليمية المناسبة لها ، الى غير ذلك من الامور التطبيقية . ويشارك في هذا الاهتمام هنا المربي وبخاصة مؤلف الكتب اللغوية التعليمية ، ومعلم اللغة اصلية او اجنبية .

وقد زاد اهتمام علماء الرياضيات باللغة في العصر الحاضر على اساس انها اهم وسائل الاتصال ، وان التقنية الحديثة اسبغت عليها صبغة عملية بالغة الاهمية فاخذوا يدرسون اللغة من

حيث الطريقة الرياضية التي تتحكم في صياغة الرسالة ثم في فك رموزها ، ومن حيث الكيفية التي يمكن الاستفادة بها عمليا من تلك الدراسات ، من تخزين المعلومات الى الحاسب الآلي الى الترجمة الآلية الى وسائل الاتصال المتعددة وغيرها . حتى لقد أصبح لعلم اللغة فرع خاص يسمى « علم اللغة الرياضي » يدرس في كثير من الجامعات حاليا .

وعلى أساس أن اللغة من أهم مقومات المجتمع فان اهتمام علماء الاجتماع ، والمتخصصين في علم اللغة الاجتماعي ، اهتمام كبير للغاية ، يشاركهم فيه ويزودهم بكثير من الملحوظات ونتائج دراسات المجتمعات البشرية المتنوعة ، علماء الاجناس البشرية (الانثروبولوجيا) . وموضوعات اهتمام هؤلاء جميعا كثيرة ومتشعبة ولكنها في خلاصتها تتركز في علاقة اللغة بالمجتمع . وقد نتجت عن هذا الاهتمام مؤخرا أبحاث ودراسات في غاية الاهمية تركت اثرها في الاتجاهات الحديثة لعلماء اللغة المتخصصين في قواعد اللغة . ووجهتها وجهة مخالفة لما كانت عليه قبل سنوات قلائل ـ مما سيرد ذكره فيما بقي من هذا الفصل ـ .

أما الادب فقد بدأ علم اللغة يرفده بنتاج دراساته الخاصة بالدلالة وبالاسلوب وبدأ أثر ذلك يظهر في النقد الادبي وأخذ الاديب وعالم اللغة يعملان معا في تحليل وفهم أعمق للنماذج الادبية المختلفة .

أن مجالات الجدل القديمة في اللغة ، رغم انطفاء شعلتها ردحا من الزمن ، قد عادت وبرزت من جديد في ضوء بعض الابحاث الحديثة في قواعد اللغة وفي الدلالة وعلاقتها بالقواعد بالذات ، وفيما اذا كانت للغات جميعا اسس مشتركة أهم واعم من تلك القواعد الظاهرية التي نعرفها جميعا ، وفي علاقة اللغة بالواقع والحقيقة . وقد شارك في هذا الجدل وفي الدراسات المتعلقة به ، الفلاسفة وعلماء المنطق وعلماء اللغة ، وعلماء النفس وعلماء الاجناس وغيرهم ، ولا زالوا يشاركون فيه حتى اليوم .

ولقد أثر هذا الجدل القديم الحديث في بعض العلوم ، اذ شعر أهل الرياضيات من القديم وعلماء المنطق مؤخرا بأن اللغة ليست أفضل رديف للفكر المجرد ، ان وجد بل ربما تدخلت فافسدته . أو قصرت عن أداء عملياته المعقدة ، فنزعوا الى الاستغناء عن اللغة كلية واستبدلوا بها رموزا بعضها مستعار من اللغة وبعضها الاخر لا علاقة له بها .

وتعتبر الدراسات المتعلقة بالمعاني الملتقى الذي يجتمع فيه سائر أنواع العلماء الذين ذكرناهم من رياضيين وفلاسفة وأصحاب المنطق وعلماء النفس وعلماء الاجتماع وعلماء الاجناس ورجال التعليم والتربية ، وذلك لان للمعنى أو الدلالة اللغوية أوجها عديدة منها ما له علاقة مباشرة بالتركيب اللغوي او المفردات اللغوية ومنها ما له علاقة بالعقل ومنها ما له علاقة بحقيقة الوجود ومنها ما له علاقة بالصواب والخطأ والحق والباطل ومنها ما له علاقة بمقدار المعلومات التي تنقلها الرسالة اللغوية ومنها ما له علاقة بالمقام أو المناسبات التي يتم فيها الحديث وعلاقة المتحدثين ببعضهم ، ومنها ما له علاقة بالحضارة التي تمثل اللغة أهم مظاهرها ومنها ما له علاقة بالحقيقة أو المجاز ومنها ما له علاقة بالنواحي الجمالية ، الخ .. الخ . ان دراسة هذا المظهر من مظاهر اللغة رغم تاريخه القديم قد اكتسب وزنا خاصا في الآونة الاخيرة بتأثير النظريات التي أتى بها بعض علماء اللغة في القرن الحالي .

وقد كانت احدى الطرق العملية للاستفادة من هذه الدراسات ولا زالت هي كتابة المعاجم اللغوية . ولكن بينما كان أصحاب المعاجم يركزون في السابق على النواحي التاريخية ، وعلى الاشتقاق اللغوى ويجهزون المعاجم الخاصة بلغة واحدة معينة ، أصبح التركيز حاليا على اللفظ والمعاني المتعددة للمفردات في السياقات المختلفة وامتلأت المكتبات بالمعاجم التي تتناول لغتين أو اكثر .

ومن العلماء والمربين من اولى ولا زال يولي اهتماما خاصا لايجاد وسائل اتصال اخرى غير اللغة المنطوقة وذلك لمساعدة الصم والبكم لتعلم اللغة ، وايجاد طريقة اللمس لتعليم القراءة والكتابة للمكفوفين ، وطرائق أخرى لتعليم اللغة للمتخلفين عقليا او لاولئك الذين لديهم عيوب لغوية مختلفة .

وأخيرا وليس آخرا ، هنالك المظهر المكتوب من اللغة . واهمية هذا المظهر انه أصبح هو العلامة المميزة للمتعلم من الامي وللامم المتحضرة من الامم المتخلفة . كما ان اللغة المكتوبة هي التي تحفظ العلم والادب ووجوه الحضارة الاخرى من الفناء وتضعها بين أيدي الدارسين من طلاب وباحثين . ومع تفجر المعرفة في القرن الحالي ، أخذ العلماء يفكرون بايجاد طرق اخرى غير الطرق التقليدية لحفظ المعلومات بحيث لا تشغل حيزا كبيرا ويمكن استعادتها بسهولة ، ويلعب الكمبيوتر في السنوات الاخيرة دورا كبيرا في هذا المجال .

وبالنظر الى تشعب الدراسات اللغوية الى الحد الذي ذكرناه ، ـ وقد اغفلنا كثيرا منها ـ والى السيل العارم من الابحاث والتجارب الحديثة في كل من تلك الفروع ، التي لا يمكن أن نعطي حتى بعضها حقها الكامل في حيز محدود كهذا الكتاب ، فليس امامنا سوى ان نختار عددا محدودا جدا من تلك الموضوعات تكون هي الاهم والاحدث بالنسبة لوقتنا هذا ونعالجها بشيء من التفصيل والوضوح .

لذلك فسننتقل الان الى المبحث التالي في هذا الفصل والذي سنحاول فيه ان نعطي صورة سريعة للغاية عن التطور التاريخي للدراسات اللغوية لاننا لن نتمكن بدون هذا من أن نرى كيف كانت الدراسات الحديثة في الغالب اما ردود فعل للدراسات القديمة او تحديثا وتطويرا لها .

● ● ●

٤ ـ نبذة تاريخية عن الدراسات اللغوية القديمة *

ان معظم موضوعات البحث اللغوي التي ذكرناها حتى الان هي مواضيع الاهتمامات المعاصرة ، بل انها تكاد تنحصر في النصف الثاني من القرن الحالي ولكن هل يعني هذا أن اللغة لم تثر انتباه أسلافنا فتركوها دون بحث أو نظر أو دراسة حتى عصرنا هذا ، مع أن اللغة والعنصر البشرى مرتبطان ارتباطا شديدا بحيث لا يمكن تصور وجود أحداهما بدون الآخر ؟

واقع الامر أن اهتمام القدماء باللغة لم ينقطع أبدا ، وبخاصة في تلك المجتمعات التي كان للغتها علاقة مباشرة بالدين ، كما كان الحال بالنسبة للغة السنسكريتية في الهند واليونانية واللاتينية في أوروبا ، والعربية في البلاد العربية . الا ان الفرق بين الدراسات القديمة والحديثة هو فرق في المدخل أو في أسلوب معالجة اللغة . وهذا لا يعني بأي حال من الاحوال أن جميع تلك الدراسات القديمة عديمة القيمة بل ان الواقع أن لبعضها قيمة كبيرة للغاية لا زلنا نفيد منها ونعتمد عليها حتى الآن .

بطبيعة الحال ليس لدينا دليل على اهتمام القدماء باللغة قبل أن تخترع الكتابة وتستخدم لتدوين حصيلة تلك الاهتمامات . هنالك اشارات في النقوش الهيروغلوفية والسومرية والآشورية تدل على وجود المعاجم والمترجمين ، كما أن قصة برج بابل في سفر التكوين من التوراة ، تشير الى ادراك لاهمية اللغة الواحدة كوسيلة لوحدة المجتمع . ولكن ليس لدينا نتاج لغوي هام قبل القرن الرابع الميلادي فقد اكتشف العلماء الاوروبيون في القرن التاسع عشر كتابا لقواعد اللغة السنسكريتية ، الفه بانيني (Panini) في الهند في القرن الرابع بهدف ديني واضح ، ووصف فيه النظام الصوتي لتلك اللغة وتركيبها الصرفي والنحوي وصفا دقيقا للغاية ، وساعد هذا الاكتشاف على معرفة علاقة اللغةالسنسكريتية باللغات

الهندواوروبية الاخرى واعطى دفعة قوية للدراسات المقارنة التي ميزت القرن التاسع عشر والتي كان الهدف منها تقسيم اللغات العالمية الى اسر تعود كل منها الى أصل واحد .

فعلى الرغم من اهتمام الاغريق والرومان بالابحاث اللغوية المختلفة ، الا اننا لا نجد لديهم دراسة وصفية واحدة من نوع كتاب بانيني ومستواه ، ويعود ذلك الى اهتمام الاغريق القدماء بالفلسفة بوجه خاص ، والى ان أول من نظر في اللغة منهم كانوا من الفلاسفة ، ولذلك فقد اتجهت دراساتهم نحو البحث في مسائل عامة اتسمت بكثير من التجريد ، وقد أثروا بعملهم هذا في الدراسات التالية التي قام بها الرومان ثم العرب فأوروبيو القرون الوسطى حتى ما بعد عصر النهضة من العصور الحديثة .

لقد كانت المسألة الهامة التي أثارها الاغريق والتي تركت بصماتها على الدراسات اللغوية اللاحقة حتى عصرنا الحاضر ، تتعلق بطبيعة اللغة ونشأتها . فقد راى بعضهم ومنهم **افلاطون** أن اللغة ظاهرة طبيعية ، وان الكلمات وأصواتها جزء لا يتجزأ من المعنى ، بينما راى الفريق الاخر ومنهم **ارسطو** أن اللغة ظاهرة اجتماعية وان أصواتها رموز اصطلاحية لا علاقة طبيعية أو مباشرة لها بالمعاني : وقد نشأت عن هذا الاختلاف النظريتان المعروفتان ، الاولى المسماه **بالنظرية التوقيفية** والاخرى المعروفة باسم **النظرية الاصطلاحية (أو التواضعية)** واللتان امتد الجدل فيهما حتى العصر الحاضر .

وقد نشأ عن النظرية الاولى نظريات متعددة عن اصل اللغات جميعا منها : ان اللغة توقيف ووحي من الله ، ومنها ان اصل اللغات جميعا يرجع الى محاكاة أصوات الطبيعة أو أصوات الحيوانات الى آخره ، ووصل الامر بالبعض الى أن يقول ان للصوت بحد ذاته قيمة تعبيرية .

اما فيما يتعلق بوضع القواعد التفصيلية للغة اليونانية القديمة فقد تأخر الاغريق في ذلك تأخر يدعو للدهشة ، وعندما بدأوا يفعلون ذلك خلال العصر السكندري ، في القرن الثاني قبل الميلاد وما بعده ، وتبعهم الرومان في ذلك ، وضعوا لكل من اللغتين قواعد تتميز بخاصيتين كان لهما أثر كبير على من تبعهما من الامم المختلفة وبخاصة في اوروبا .

اما الخاصية الاولى فهي أن كلا من الشعبين وضع قواعد لما يمكن أن ندعوها **اللغة الفصحى** ، وهي اللغة التي لم تكن هي المستعملة فعلا في الوقت الذي وضعت فيه تلك القواعد . بتعبير آخر ، فانهم لم يصفوا قواعد اللغة التي كان يستعملها الناس في عصرهم ، بل وضعوا قواعد أو معايير لما يجب أن تكون عليه اللغة ، وهذه هي ما تسمى « بالقواعد المعيارية » التي لم تتغير بتعاقب القرون بحيث أصبحت في النهاية تشير الى لغة غير موجودة ولا مستعملة اطلاقا .

اما الخاصية الثانية فهي أن الاغريق ، والرومان من بعدهم ، لم يهتموا بلغة غير لغتهم ، واستنادا الى الآثار التي ترتبت على القواعد التي وضعوها ، يمكن القول انهم كانوا يعتقدون بأن تلك القواعد منطقية وتبعا لذلك فهي عامة يمكن أن تطبق على اية لغة اخرى وهذا ما حصل بالفعل في أوروبا بالنسبة للغات الحديثة حتى سنوات قليلة خلت ، فقد طبقت عليها جميعا قواعد اللغتين اليونانية واللاتينية بغض النظر عن الاختلافات الواضحة بين تلك اللغات الحديثة وهاتين اللغتين .

لقد أولى العرب اللغة العربية باعتبارها لغة القرآن أكبر قسط من العناية والاهتمام ، وازدهرت العلوم اللغوية عندهم ازدهارا كبيرا ووصلنا الكثير من تلك الدراسات عن طريق المخطوطات التي قيض لها البقاء سليمة حتى العصر الحاضر .

وقد تأثر العرب بمنطق ارسطو من ناحية وبالمدرسة اللغوية السكندرية من ناحية أخرى ، كما شاركوا في الجدل الذي كان قائما حول طبيعة اللغة ونشأتها . فاتخذ بعضهم مثل **ابن فارس** (في القرن الرابع الهجري) موقف المدافع عن النظرية التوقيفية مستشهدا على ذلك بظاهر معنى الآية الكريمة « وعلم آدم الاسماء كلها » أما الموقف المعارض فقد حمل لواءه **ابن جنى** الذي كان يؤمن بأن اللغة اصطلاحية فيقول « أن أكثر أهل النظر على ان أصل اللغة انما هو تواضع واصطلاح ، لا وحي وتوقيف » ، وهو يؤول الآية الكريمة بان المقصود بكلمة « علم » هو « أقدر » اي ان الله سبحانه وتعالى أعطى آدم القدرة على الكلام والتسمية وترك له الوضع والاصطلاح بالنسبة للتفاصيل (١) وعلى الرغم من موقف ابن جنى هذا فقد كان يقول هو وعدد من اللغويين الآخرين بالظاهرة التي تسمى باللغة الانكليزية (Sound Symbolism) والتي لا زال البعض يجرى الابحاث والدراسات عليها ، وخلاصتها أن الصوت في اللغة له قيمة تعبيرية أو معنوية خاصة به ، وقد بحث ابن جني ذلك في باب كامل بعنوان « باب في تصاقب الالفاظ لتصاقب المعاني » وذلك في كتابه الشهير « الخصائص » (٢) .

هذا من ناحية الابحاث العامة ، اما ما يتعلق بقواعد اللغة ، فقد قدم سيبوية (القرن الثاني الهجري اي الثامن الميلادي) خدمة كبيرة للغاية في كتابه المعروف **بالكتاب** والذي اصبح المرجع لمن اتى بعده من اللغويين . وعلى الرغم من ان المنهج الذي اتخذه سيبويه في دراسته للغة العربية منهج وصفي في معظمه شبيه بمنهج **بانيني** المشار اليه سابقا ، الا ان اثر منطق ارسطو والدراسات اللغوية الاغريقية السابقة واضح في استعمال سيبويه لطريقتي القياس

---

(١) حنفي بن عيسى : **محاضرات في علم النفس اللغوي** (الجزائر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع) ص ٢٥ .

(٢) نفس المصدر السابق ، ص ٥٩ . انظر ايضا : ابن جنى : **الخصائص** ، الجزء الثاني .

والتعليل في وصفه لقواعد اللغة العربية . كما انه وقع في نفس الاخطاء المنهجية التي وقع فيها النحويون الاغريق والرومان من قبل ، فهو أولا شمل بدراسته مراحل مختلفة من اللغة العربية تقدر بثلاثة قرون رغم ما طرأ على اللغة من تغيير خلال تلك الحقبة كما أنه حاول أن يصف عدة لهجات عربية ويجد لها قواعد مشتركة (١) .

لقد قلنا ان منهج سيبويه في كتابه كان منهجا وصفيا بشكل عام ، الا أن من تبعه من اللغويين توقفوا عن الاستشهاد باللغة المستخدمة في زمنهم وجمدوها على ما استشهد به سيبويه ، فاستعملوا قواعده كقواعد معيارية وحاولوا أن يخضعوا لها كل ما يقال ويكتب في العصور المختلفة ، ولا زال هذا حالنا الى حد كبير بالنسبة لقواعد لغتنا حتى العصر الحاضر .

أما في أوروبا العصور الوسطى فقد تجمدت الدراسات اللغوية أو كادت ، اذ كانت اللغة اللاتينية هي اللغة المسيطرة ، تستعمل في العبادة وأوجه الثقافة الاخرى ، رغم أن أحدا لم يكن يتحدث بها في حياته اليومية ، بما في ذلك رجال الدين الذين كانوا يستخدمونها فقط في الصلوات والشعائر الدينية الاخرى .

وما ان بزغ عصر النهضة الاوروبية حتى بدأ اهتمام الشعوب المختلفة بلغاتها الخاصة ، حتى تلك التي كانت مجرد لهجات متفرعة عن اللغة اللاتينية ، يزداد بشكل واضح ، ولكنهم ، كما ذكرنا ، وضعوا للغاتهم الجديدة قواعد مشابهة لقواعد اللغة اللاتينية رغم ابتعاد تلك اللغات الجديدة عن اللغة الام ابتعادا قليلا أو كثيرا . كما عاد الاهتمام من جديد بالدراسات اللغوية العامة المتعلقة بطبيعة اللغة . ففي القرن الثامن عشر تبنى **روسو وكوندياك** الفرنسيان **وهردر** الالماني نظرية الاصطلاحية في نشأة اللغة ودافعوا عنها دفاعا

---

(١) تمام حسان : **اللغة بين المعيارية والوصفية** (مكتبة الانجلو المصرية) ١٩٥٨ ، ص ٢٣ — ٢٥ .

حارا . ثم بدأ الاهتمام أيضا بالدراسات المقارنة والتاريخية واشترك فيها عدد من مشاهير العلماء من **امثال راسك وجريم وفرنر** . وامتد هذا النشاط واتسع مداه في القــرن التاســع عشــر الذي شهد دراسات أدت الى الوصول الى ما يمكن اعتباره اللغة الام بالنسبة للغات الهندوأوروبية وذلك عن طريق دراسة التغيرات الصوتيــة واستنباط القوانين العامة التي تتحكم فيها .

فاذا هل القرن العشرون برز عالم كبير جدا من أعلام اللغة هو العالم السويسري **فرديناند دى سوسير** (Ferdinand de Saussure) الذي يعد بحق رائد طرق البحث الحديثة في علم اللغة . فمنذ ظهور كتابه « مساق في علم اللغة » بعد وفاته عام ١٩٦١ بدأ علماء اللغة يبتعدون عن الدراســات التاريخيــة والمقارنة ويركــزون على الدراسات الوصفية ويهتمون بأصوات اللغة وقواعدها ومفرداتها في زمن معين بالذات ، وهذا هو الطابع المميز للقرن العشرين . وقد لمعت أسماء كثيرة فيه سنشير اليها في المواضع المناسبة كما سنعرض الى أهم النظريات الحديثة التي ساهموا بها في الدراسات الحديثة .

هــذا عرض سريع للغاية للدراسات اللغوية القديمة التــي تغص بها رفوف المكتبات والتي لا نستطيع أن نخوض في تفاصيلها هنــا (١) .

---

(١) نورد في هذه الحاشية بعض المراجع العربية والاجنبية التي يستطيع أن يطلع عليها القارىء المهتم بالموضوع لاخذ صورة اوفى عما اوجزناه :

مراجع بالعربية : (١) جورج مونين : **تاريخ علم اللغة** ، ترجمة د. بدرالدين قاسم (مطبعة جامعة دمشق) ١٩٧٢ .

(٢) ماريو باي : **لغات البشر** ، ترجمة د. صلاح العربي (قسم النشر بالجامعة الامريكية بالقاهرة) ١٩٧٠ .

مراجع أجنبية :

R. H. Robins : A Short History of Linguistics (Longman), 1967.

٥ ـ الاتجاهات اللغوية المعاصرة :

(أ) النصف الاول من القرن العشرين

لقد تميز القرن التاسع عشر اذا بالدراسات اللغوية التاريخية والمقارنة وكان الهدف الاساسي منها هو معرفة صلات القرابة بين اللغات المختلفة وبخاصة الاوروبية منها وتصنيف تلك اللغات بموجب تلك الصلات واستنباط بعض القواعد الصوتية والصرفية والنحوية التي اتبعتها تلك اللغات في الابتعاد عن اللغة الام بحيث أمكن للعلماء تصور شكل تلك اللغة الاصلية التي انبثقت عنها جميع اللغات الهندوأوروبية . كما استطاع علماء ذلك العصر التوصل الى تقسيم اللغات العالمية الى اسرة كبيرة يندرج تحت كل منها عدد من اللغات الحديثة كالاسرة الهندواوروبية والاسرة السامية الحامية والاسرة الصينية التبتية والاسرة القوقازية وهكذا . لقد كانت تلك الدراسات بوجه خاص هي أهم ما قدمه علماء اللغة الى البشرية في القرن التاسع عشر .

أما القرن الحالي الذي يعتبر المنهج العلمي في البحث هو الطابع المميز له بالنسبة لفروع المعرفة المختلفة ، فقد شهدت الدراسات اللغوية خلاله ثلاثة اتجاهات متعاقبة ، يعتبرها الكثيرون ثورات فعلية ، لان كلا منها قد طبع جميع الابحاث التي تمت في حقبة معينة من الزمن بطابع موحد الى حد كبير ومتميز عما سبقه ولحقه من الابحاث . وقد ظهر في كل فترة من هذا القرن علم عملاق من أعلام اللغة كان رائد البحث فيها ، ولذلك لا بد لمن يرغب في الاطلاع على الاتجاهات المعاصرة في الدراسات اللغوية ان يتعرف على تلك الاتجاهات الثلاثة وعلى رائد او رواد كل منها .

لقد شهد الربع الاول من القرن الحالي حركات متشابهة الى حد كبير في كل من أوروبا وامريكا . الا ان العلم الذي يعتبر بحق رائد البحث اللغوي الحديث هو العالم السويسري سوسير . فقد نشر له عام ١٩١٦ أي بعد وفاته بثلاث سنوات الكتاب الشهير

« مساق في علم اللغة العام » (Cours de Linguistique Generale) (1) جمعت فيه محاضراته في ذلك العلم كما سجلها طلابه . لقد جسد سوسير في كتابه بعض الافكار والاتجاهات في البحث اللغوي التي طبعت النصف الاول من القرن الحالي بطابعها . ولم يضاهه في الاثر اي كتاب آخر الا بعد مرور اكثر من أربعين عاما ، كما سنذكر بعد قليل .

فما الذي جعل من كتاب سوسير علامة بارزة على مفترق الطرق وما الذي جعل من صاحب الكتاب رائدا للمدرسة اللغوية الحديثة ؟

لكي نستطيع الاجابة عن هذا السؤال لا بد لنا من أن نلقي نظرة سريعة على كتب قواعد اللغات الاوروبية التي كانت منتشرة في أوروبا حتى مطلع القرن الحالي والتي يطلق عليها الان اسم **القواعد التقليدية** ، وذلك لان معظم النظريات الحديثة وبخاصة في النصف الاول من القرن الحالي كانت ردود فعل تلك القواعد . فما هي تلك القواعد وما هي مميزاتها ؟

وقبل أن نبدأ الاجابة عن هذا السؤال علينا أن نفهم أن عبارة **القواعد التقليدية** التي يستعملها علماء اللغة الغربيين لا تعبر في الواقع عن منهج موحد استعمل في جميع العصور السابقة للقرن العشرين . بل ربما تدل بشكل أصح على ذهنية معينة . فالقواعد التقليدية مزيج من المبادىء والاساليب التي ظهرت باشكال مختلفة في عصور مختلفة واستخدمتها مدارس لغوية متعددة . ففي القواعد التقليدية مثلا آراء عن تركيب الجملة ترجع الى افلاطون وارسطو وفيها نظريات عن أجزاء الكلام تعود الى الرواقيين وفيها أفكار عن طبيعة

---

(1) الترجمة الانكليزية منشورة تحت عنوان :
Saussure : Course in General Linguistics (N.Y. Philosophical Library), 1959.

المعنى انتشرت في بعض فترات القرون الوسطى ، وفيها فرضيات عن علاقة اللغة بالعقل كانت شائعة بين فلاسفة القرن السابع عشر وفيها آراء عن اللغة الصحيحة او الفصحى منحدرة من قواعد وضعت في القرن الثامن عشر في انكلترا وفيها دراسات عن تاريخ اللغة تعود الى القرن التاسع عشر . فهي اذن خليط عجيب من الآراء والافكار والنظريات المتحدرة من مدارس لغوية مختلفة عبر القرون في أوروبا (١) .

وقد وجد فيها اللغويون المحدثون عيوبا كثيرة تسببت في رد الفعل العنيف الذي ظهر في النصف الاول من القرن الحالي بشكل خاص . فما الذي يميز تلك القواعد ؟

يمكن ايجاز ذلك في أمرين : الامر الاول يتعلق بمحتوى تلك القواعد والثاني يتعلق بطريقة العرض (٢) .

أما من ناحية المحتوى ، فقد تميزت تلك القواعد بالصفات التالية :

ـ لقد كانت تلك القواعد مبنية على دراسة **اللغة المكتوبة** وبخاصة لغة كبار الادباء ، والقدماء منهم بالذات . وهذا يعني **اولا** أن تلك القواعد لم تكن تهتم باللغة المنطوقة التي كانت مستخدمة عند وضع القواعد والتي كانت تعتبر مسخا للغة الصحيحة ، وبذلك تكون تحليلا للغة لا يستعملها عامة الناس ولا حتى المثقفون منهم . **وثانيا** ، ان معاييرالصحة والخطأ معايير مفروضة على الناس الذين يستعملون اللغة فعلا وليست نابعة من استعمالهم الفعلي لها . كما يعني ذلك أيضا عدم العناية بالجوانب الصوتية للغة وهي التي تؤلف جزءا هاما جدا من نظامها العام والتي لا تستطيع أية لغة

---

(١) See : D. Crystal : Linguistics, (Penguin), 1971, p. 40.

(٢) See : Eddy Roulet : Linguistic Theory, Linguistic Description and Language Teaching, (Longman), 1973, pp. 5-17.

مكتوبة أن تعبر عنها تعبيرا كاملا . فلم يكن النظام الصوتي للغة يكون جزءا من كتب القواعد التقليدية ، بينما هو الان جزء أساسي منها.

ـ ثم ان تلك القواعد كانت تركز كثيرا على بعض النواحي اللغوية غير الهامة بينما تهمل جوانب اخرى أكثر أهمية ، وكانت تعطى الوزن الاكبر للصرف وتهمل النحو الى حد كبير ، بالاضافة الى اهمالها الكلي تقريبا لنظام المعاني في اللغات ، بالنسبة للمفردات والجمل على السواء .

أما من ناحية العرض ، فان أهم ما يعيب تلك القواعد الامور التالية :

ـ أنها لم تتخذ معايير معينة تبقى ثابتة عند بحث جميع الجوانب اللغوية ولذلك فانها ، على الرغم من انها تشبه أحدث المدارس اللغوية المعاصرة من أنها تصور اللغة كمجموعة من القوانين او القواعد ، الا ان طريقة الوصول الى تلك القواعد لم تكن تعتمد على معايير واحدة دائما ، ولذلك فان كثيرا من تلك القواعد ليست من النوع الذي يمكن الوثوق به والاعتماد عليه في جميع الحالات . وربما كان من اوضح الامثلة على ذلك معالجة القواعد التقليدية **لاجزاء الكلام** ، فقد وصلت الينا مثلا التعريفات التالية لبعض الاجزاء التي قسم الكلام اليها :

« **الاسم** هو ما دل على انسان أو حيوان أو جماد » والمعيار الواضح هنا المستخدم في التعريف هو **المعنى** أي علاقة اللفظة بالعالم الخارجي . كما ان هذا التعريف لا يساعد مطلقا على معرفة طريقة **استعمال الاسم** في الجملة . اما **حرف الجر** مثلا فقد عرف بانه « كلمة تأتي قبل الاسم والضمير لتحديد علاقته بالكلمات الواردة قبله » . وهنا استعمل معياران لا علاقة لهما بالمعيار الذي استعمل في تعريف الاسم ، بل هما معياران لغويان تماما . الاول يشير الى **موقع** حرف الجر بالنسبة لباقي الكلمات في الجملة ، والثاني يشير الى **وظيفته** . ان استعمال معايير مختلفة غير ثابتة من هذا النوع

لا يساعد على تحليل او وصف دقيق لاية لغة . فالمفروض هنا أن تستعمل معايير واحدة في تقسيم الكلام الى أجزائه وان تستعمل نفسها في تعريف جميع تلك الاجزاء .

ـ لقد اتخذت القواعد التقليدية للغات الحديثة قواعد اللغتين اليونانية واللاتينية نماذج لها ، على الرغم من أن هاتين اللغتين لغتان اعرابيتان بينما معظم اللغات الحديثة ليست كذلك . فشكل الاسم في اللغة الانكليزية مثلا لا يتغير الا في حالة الاضافة فقط كما في التعبير The boy's hat بينما للاسم في اللغة اللاتينية ست حالات اعرابية مختلفة يتغير شكله في كل حالة منها . ومع ذلك فقد كانت كتب قواعد اللغة الانكليزية التقليدية تعتمد تلك الحالات الست جميعا .

ـ كما ان تلك القواعد التقليدية كانت تعرض اللغة ، لا كوحدة متكاملة مترابطة ، بل كأجزاء مبعثرة ، وكان الاهتمام مركزا فيها على تلك القوانين أو القواعد التي تجنب الانسان الخطأ ، لا تلك التي تعطيه صورة متكاملة من اللغة . بعبارة أخرى ، لم تقدم تلك القواعد صورة وصفية متكاملة للغة ، ولا نظرية مترابطة لها ، بل قدمت بضع قوائم لتصريف الاسماء والافعال وبضع اشارات مبعثرة لا تعين كثيرا على فهم النظام الذي تعمل تلك اللغة بموجبه .

بالاضافة الى ذلك ، فقد كان أحد المعايير التي استخدمت في وضع القواعد التقليدية هو المعنى ، وقد عابهم على ذلك عدد من المدارس اللغوية الحديثة وان كانت أحدث هذه المدارس قد عادت لاستخدامه ، كما سنرى فيما بعد . الا أن الطريقة التي استعملت فيها القواعد التقليدية هذا المعيار لم تكن طريقة منتظمة أو ثابتة ولذلك فقد كانت غير مجدية .

خلاصة القول هنا أن القواعد التقليدية كانت موضوعة للغات لم تكن مستعملة فعلا عند وضع تلك القواعد ، ولذلك فقد كانت معيارية لا وصفية ، واتخذت لغة الكتابة المتوفرة في الكتب الادبية

والدينية مثلا أعلى يقاس به الصواب والخطأ وأهملت الجانب الصوتي الهام من جوانب اللغة ، ولم تقدم نظرية متكاملة للغة .

ولذلك فقد كان من الطبيعي أن يحين الوقت الذي يظهر فيه علماء لا يرضون عن هذا الوضع الذي استمر قرونا طويلة وكان سوسير أحد هؤلاء ، ولذلك نعود اليه الان لنرى ما قدم لنا ، في ضوء هذه الصورة السريعة للقواعد التقليدية التي كانت سائدة حتى أيامه .

لقد ابتعد سوسير عن النظر في اللغات من وجهة النظر التاريخية أو المقارنة وأكد أن أفضل منهج لدراسة اللغة هو أن نحاول وصفها كما هي في فترة زمنية محددة وأن نصل من هذا الوصف الى القواعد أو القوانين العامة التي تحكمها أو نتوصل على الاقل الى معرفة البنية أو التركيب الهيكلي لها . فابتعد بذلك عن المنهج السابق في تعقيد تلك القوانين بمحاولة اخضاع اللغات الحديثة لقواعد اللغتين اليونانية واللاتينية ، كما بينا قبل قليل . وفي ضوء الصورة التي رسمناها للقواعد التقليدية ، يمكن أن نفهم كيف أن نظرية سوسير كانت ثورة حقيقية على المفاهيم السائدة حتى عصره في أوروبا ، وبالتبعية ، في أمريكا أيضا .

وقد صادف أن كان في أمريكا في أوائل هذا القرن أيضا علماء مهتمون بعلم الاجناس (الانثروبولوجيا) من امثال بوس (Boas) وسابير (Sapir) وبلومفيلد (Bloomfield) يقومون بدراسة لغات الهنود الحمر غير المكتوبة ويحاولون أن يكتشفوا قواعدها . وقد وجد هؤلاء أيضا في المنهج الوصفي الطريقة الوحيدة للقيام بعملهم ، فاضافوا زخما قويا لما نادى به سوسير ، واصبح المنهج الوصفي هو طريقهم الوحيد في البحث اللغوي في تلك اللغات الجديدة عليهم . ثم قام بلومفيلد واتباعه بتطبيق ذلك المنهج على اللغة الانكليزية وقام غيرهم بتطبيقه على اللغات الاوروبية الحديثة أيضا .

وقبل أن نستطرد فنقوم بشرح ما نعنيه بالمنهج الوصفي ، نتابع أولا الكلام عن النواحي الفريدة الاخرى التي تميزت بها آراء سوسير .

لقد اكد سوسير على مظهرين لغويين آخرين هما : اولا البنية **اللغوية** اي التركيب الداخلي (من صرفي ونحوي) للغة على اعتبار انه اهم مميزاتها ، وان التوصل الى القواعد التي تتحكم فيه اهم بمراحل من اية دراسة لغوية اخرى . ثم انه اكد أيضا على اهمية **اللغة المنطوقة** او لغة الحديث على اعتبار انها المظهر الاولي والاساسي للغة ، وان اللغة المكتوبة مظهر ثانوي ، وانه على الرغم من اهمية المظهر الثاني ، الا انه ليس اللغة الفعلية التي يتعامل بها الناس فيما بينهم ، كما ان اللغة المكتوبة تختلف اختلافا كبيرا ومن جوانب عديدة عن لغة الحديث . فاذا تذكرنا ما اشرنا اليه قبل قليل من أن جميع كتب القواعد التقليدية في اوروبا كانت تتخذ اللغة المكتوبة معيارا للصحة والسلامة وتبني قواعدها على أساسها (وهذا ينطبق الى حد كبير جدا على قواعد اللغة العربية حتى عصرنا هذا) ، استطعنا مرة اخرى ان نرى كم كانت نظريات سوسير ثورية في الوقت الذي ظهرت فيه .

لقد اكد سوسير ايضا ، كما أكد سابير في امريكا أن اللغة **ظاهرة اجتماعية** وانها ينبغي ان تدرس على هذا الاساس . وأن الرموز الصوتية (او الكتابية — أي الحروف) لا معنى لها بحد ذاتها ، وان العلاقة بين الرموز والمعاني ، على الرغم من انها عشوائية ، الا انها اصطلاحية اتفاقية ثابتة بالنسبة للغة الواحدة والمجتمع الواحد . لقد قال ان العلاقة قوية جدا بين لغة مجتمع ما وما يدور في خلد المتحدثين بتلك اللغة ، اي انه قال بالعلاقة الوثيقة بين اللغة والفكر . وهو بهذا قد اخذ بمذهب النظرية الاصطلاحية التي سيطرت على الدراسات اللغوية في القرن الحالي ولا زالت . كما انه بعث من جديد الجدل القديم بالنسبة لعلاقة

اللغة بالفكر وهو الجدل الذي حمل لواءه من جديداحد اعلام الفكر اللغوي في أمريكا هو بينامين لي وورف (Benjamin Lee Whorf) في نفس الوقت تقريبا ، وخرج على العالم بالفرضية المعروفة باسمه (The Whorfian Hypothesis) والتي تقول بأن اللغة تتحكم بالفكر وتوجهه وجهة معينة ليس بسبب من مفرداتها فحسب بل وبسبب شكل البنية الداخلية ايضا .

اما النظرية الهامة الاخرى التي طلع بها سوسير على العالم والتي كان لها أثر كبير في اتجاهات علماء اللغة في النصف الثاني من القرن الحالي فهي تمييزه بين مفهومين أو مظهرين للغة ، دعا احدهما (Langue) وهو ما يمكن أن نترجمه بتعبير **اللغة** أو **اللسان** باللغة العربية ، ودعا الاخر (Parole) وهو ما يمكن أن نسميه **الكلام** او **الحديث** .

اما **الكلام** فهو تلك اللغة التي يستعملها الناس في المجتمع الواحد . وهذا يختلف طبعا من شخص الى اخر ومن فئة الى اخرى اختلافا قليلا او كثيرا ، ولكن يربط بينها جميعا قواعد لغوية وسلوكية عامة تجعل منها لغة واحدة مفهومة في المجتمع الواحد .

اما **اللغة** فهي الظاهرة الاجتماعية الموحدة لمجتمع معين والتي يمكن عن طريق دراسة النماذج الكلامية الصادرة عن افراد ذلك المجتمع الاهتداء الى القواعد او العوامل المشتركة التي تجعل منها لغة مشتركة بين جميع افراد المجتمع المذكور . فهي بهذا المفهوم النموذج المثالي الذي يوجه كلام الافراد والذي يحاول هؤلاء أن يظلوا ضمن ضوابطه اللغوية او السلوكية لكي يكونوا مفهومين من سواهم .

وسنرى بعد قليل ، كيف اخذ احد مشاهير علماء اللغة في السنوات الاخيرة هذين المفهومين وطورهما ووجههما وجهة خاصة

أثارت العشرات من التساؤلات ودفعت بالبحث اللغوي الى آفاق جديدة .

أما اخر منجزات سوسير الهامة التي سنكتفي بالاشارة اليها هنا ، فهي عودته الى مفهوم **القواعد العامة لجميع اللغات** (Universal Grammar) ذلك المفهوم الذي راينا أنه يعزى الى قدماء الاغريق والذي عاد الى الحياة مرة أخرى في الآونة الاخيرة ودفع العلماء المعاصرين الى مزيد من البحث لاثباته أو دحضه ، كما سنبين في فقرات لاحقة ان شاء الله .

في الولايات المتحدة أولا ، ثم في العالم أجمع تقريبا ، تميز النصف الاول من القرن الحالي بما يسمى **بالمنهج اللغوي الوصفي التشكيلي** (Descriptive Structural Approach)
وكان لكتاب بلومفيلد « اللغة » (١) أكبر الاثر في الترويج لهذا الاتجاه في أمريكا . وقد شهدت تلك الفترة ، وبخاصة بتأثير الحرب العالمية الثانية ، زخما هائلا في الدراسات اللغوية اتصفت بعدة صفات مميزة يمكن ايجازها فيما يلي :

أولا : كان الاهتمام مركزا على التركيب الشكلي أو البنية الظاهرية للغة . وقد تم انجاز كبير في وصف النظام الصوتي لعدد من اللغات الحديثة ، واستعملت لذلك الاجهزة الحديثة التي أصبحت متوفرة في هذا القرن . كما وضف النظامان الصرفي (أي التركيب الداخلي للمفردات) والنحوي (أي التركيب الداخلي للجمل) للعديد من اللغات وصفا تفصيليا في عدد من المؤلفات . وبعبارة اخرى يمكن القول انه قد تم **اكتشاف** قواعد جديدة لكل لغة من اللغات الاوروبية الحديثة على وجه الخصوص ، استنادا الى الدراسات التي أجريت على **عينة كبيرة من كلام الناس** بتلك

(١) L. Bloomfield : Language (Allen & Unwin), several impressions.

اللغة . فاختفت ، أو كادت ، تلك التسميات وحتى التقسيمات القديمة لاجزاء الكلام مثلا كما اختفى كثير من المفاهيم اللغوية التقليدية الاخرى واستبدلت بتعابير ومفاهيم جديدة نابعة من علاقة المفردات بعضها ببعض داخل الجمل ، **بغض النظر عن العالم الخارجي** الذي تشير اليه المفردات والجمل .

ولذلك فقد أصبحت القواعد الجديدة لتلك اللغات قواعد **وصفية لا معيارية** فكل ما يقوله اغلبية الناس ويقبلون به كلام سليم بغض النظر عن اللغة المكتوبة التي تستعمل في الادب وخلافه. فلم يعد هنالك معيار للصواب والخطأ **مفروض** على افراد المجتمع ، بل أصبح كل ما يقوله مجتمع معين يعتبر لغة سليمة لا غبار عليها وتستحق التسجيل في كتب القواعد . ولم يستبعدوا من ذلك الا كلام السوقة ، وأولئك الذين يتكلمون لهجات محلية محدودة بافراد جماعة معينة أو حي معين أو مهنة معينة . (وحتى هذه أوجدت لها الدراسات الخاصة بها) .

ثانيا : تأثر علماء اللغة في هذه الحقبة بالمذهب السلوكي في علم النفس الذي كان سائدا في أوروبا وأمريكا ، والذي كان يهتم بدراسة ظاهر السلوك فقط على أساس أنه مكون من عادات مختلفة ، تتكون عن طريق المؤثر والاستجابة والثواب وتتكرر حتى يثبت الصحيح أوالمتعارف عليه منها فيتخذه الانسان في حياته . وقد أجرى كثير من هؤلاء العلماء مثل **ثورندايك في** أمريكا **وبافلوف** في روسيا التجارب العديدة على الحيوانات لاثبات نظرياتهم .

وقد ظهر تأثر علماء اللغة بهذا المذهب بانهم اخذوا ينظرون الى اللغة على انها مجموعة من العادات كغيرها من العادات السلوكية الاخرى وبناء على ذلك فان من الممكن دراسة تركيبها من ناحية وتعليمها من ناحية أخرى على هذا الاساس . وكان من اشهر من قال بذلك العالم الشهير **سكينر** (Skinner) الذي كان يعمل في جامعة هارفارد حتى توفى قبل سنوات قلائل ، وهو

صاحب الكتاب الشهير « السلوك اللغوي » (١) . وقد كان لهذا التأثر بمذهب علم النفس السلوكي نتيجتان :

أولاهما : النظر الى ظاهر اللغة ودراسة ذلك الظاهر فقط مثلها في ذلك مثل اية عادة سلوكية اخرى .

وثانيتهما : اهمال دراسة **المعنى** ، على اعتبار أنه ليس مظهرا خارجيا يمكن النظر فيه بالمنهج العلمي الموضوعي المستخدم في العلوم الطبيعية . لقد أهمل اللغويون هذا الجانب الاساسي من جوانب اللغة وبذلك جردوها من أهم مظهر من مظاهرها وهدف من اهدافها .

ثالثا : ركز اللغويون في هذه الفترة كل اهتمامهم على **اللغة المنطوقة** واهملوا اللغة المكتوبة اهمالا كبيرا . لقد اعتبروا اللغة نظاما صوتيا بالدرجة الاولى وصبوا كل اهتمامهم على هذا النظام ، على اعتبار أنه المظهر الاول والاساسي للغة .

رابعا : ونظرا للتركيز على ظاهر اللغات ، فقد قامت دراسات مقارنة من نوع جديد من حيث المنهج والهدف ، تختلف تماما عما كان يجرى في القرن الماضي . فقد كان منهج البحث هو مقارنة ظاهر لغتين معينتين لايجاد أوجه الشبه وأوجه الاختلاف بينهما من النواحي الصوتية والصرفية والنحوية . وكان الهدف منها هو التوصل الى افضل الطرق لتعليم اللغات الاجنبية وكانت النظرية السائدة ان نقاط الاختلاف بين اللغة الاصلية واللغة الاجنبية التي يرغب الطالب في تعلمها ، هي التي تشكل العقبة الرئيسية في سبيل اتقانها ، ولذلك فهي التي ينبغي على الدارس والمدرس ايلاؤها اكبر قسط من العناية والاهتمام . لقد ظهرت في هذه الفترة دراسات مقارنة عديدة لظاهر اللغات الاوروبية الحديثة وبعض

---

(١) B. F. Skinner : Verbal Behavior (N.Y. Appleton-Century-Crofts), 1957.

اللغات الحية الاخرى ، بما في ذلك اللغة العربية ، لها قيمة بحد ذاتها ، بغض النظر عن الهدف الذي ترمي اليه .

خامسا : على الرغم من النزعة العقلانية ، التي سنتكلم عنها بعد قليل والتي سيطرت على النصف الثاني ، او على الاصح على الربع الثالث من القرن الحالي ، فان طابع الدراسات اللغوية في هذا القرن كان وما زال هو المنهج العلمي التجريبي الذي يشبه المنهج المستخدم في العلوم الطبيعية الاخرى ـ وهذا ايضا من تأثير التقدم العلمي الهائل في القرن الحالي ـ فلم يتقدم احد بنظرية أو فرضية الا خضعت للدراسة العلمية المنظمة وجرت عليهـا عشرات التجارب لاثبات صحتها أو لدحضها .

سادسا : للمرة الاولى في تاريخ الدراسات اللغوية ينصب علماء اللغة من انفسهم حكاما لا راد لكلمتهم في امور تطبيقية تربوية كتعليم اللغات الاجنبية . فهم لم يكتفوا بوصف اللغات من الناحية النظرية وبمقارنة اللغات بعضها ببعض ، بل تدخلوا تدخلا مباشرا في تجهيز المواد التعليمية وتأليف الكتب الدراسية وفرض الطريقة التي يجب أن تدرس بها تلك اللغات ، والوسائل المعينة التي يمكن استعمالها معهـا ـ وربما لم يكن هـذا التطور مـن اختيارهم لان السلطات العسكرية الامريكية هي التي طلبت منهم القيام بذلك في خلال الحرب العالمية الثانية ، ولكن هذا هو ما حدث وما زال يحدث حتى يومنا هذا ـ . وسنرى في الفصل الاخير من هذا الكتاب ان ذلك التدخل في اختصاص التربويين لم يكن دائما في صالح تعليم اللغات .

هذه هي الاتجاهات التي ظلت سائدة خـلال النصف الاول من القرن الحالي . وقد غطت على بعض المحاولات الاخرى التي اتخذت مسارات مغايرة ، وخاصة في اوروبا ، وتركت اثرها في كل مكان في العالمين المتطور والنامي وخاصة في مجـال تعليم اللغات الاجنبية . وسنأتي على تفصيل اكثر لهذه النقطة فيما بعد .

(ب) النصف الثاني من القرن الحالي :

اما النصف الثاني من القرن الحالي فقد بدأ بكتاب يعتبر رد فعل عنيف وثورة فعلية على المنهج والمفاهيم التي سادت النصف الاول من القرن . الكتاب هو « التراكيب النحوية » (١) . وتاريخ صدوره هو عام ١٩٥٧ . أما مؤلفه فهو علم من اعلام الفكر في العصر الحديث يدعى نوم تشومسكي (Noam Chomsky) اعتبر واحدا من بين ألف عالم صنعوا حضارة القرن العشرين . فقد أتى تشومسكي بنظريات عن طبيعة اللغة ومنهج دراستها وطريقة اكتساب الطفل لها لا زالت حتى يومنا هذا مدار الدراسة والبحث والجدل والتجريب لدى معظم علماء اللغة في العالم الغربي بوجه خاص ، وفي العالم بأسره بوجه عام .

يقول تشومسكي انه قد تأثر بآراء المدرسة الفلسفية العقلانية التي سادت القرن السابع عشر والتي كان الفيلسوف ديكارت من اشهر أعلامها . ولذلك فقد كانت آراؤه عن طبيعة اللغة عميقة للغاية ومناقضة تماما للسطحية التي تميزت بها آراء أسلافه المباشرين في النصف الاول من القرن الحالي ، وأثارت ولا زالت تثير من الجدل ما لم يعرف له مثيل في التاريخ من قبل .

كان من اهم ما قام به تشومسكي في حياته العلمية المبكرة في علم اللغة هجومه الساحق المدمر على آراء سكينر التي عرضها في كتابه « السلوك اللغوي » (٢) . ودحض جميع الاسس التي قامت عليها تلك الآراء والنظريات . فبينما كان سكينر ، كما رأينا ، يؤمن ، بناء على التجارب المخبرية على الحيوانات ، بأن اللغة لا تعدو أن تكون عادة اجتماعية مثلها في ذلك مثل سائر العادات

---

(١) Noam Chomsky : Syntactic Structures (The Hague : Mouton), 1957.

(٢) راجع صفحة ١٠٥ باعلاه .

الاجتماعية الاخرى ، وان اكتسابها يتم بنفس الطريقة اي عن طريق المحاولة والخطأ ، اثبت تشومسكي في هجومه أمرين :

الامر الاول : ان لا علاقة اطلاقا بين سلوك الفئران في صناديق التجارب في المختبرات وبين اللغة البشرية ، والسبب بسيط وواضح جدا وهو ان اللغة من اختصاص البشر وان جميع وسائل الاتصال الاخرى التي تستعملها الحيوانات ، والتي ندعوها تجاوزا بلغات الحيوان ، وسائل قاصرة للغاية ، ولا تتمتع بالعناصر الاساسية التي تكون لغة الانسان (وقد ثبت ذلك من تجارب سابقة لآراء تشومسكي ، ومن التجارب اللاحقة والتي أجريت ولا زالت تجرى حتى يومنا هذا) .

اما **الامر الثاني :** فهو ان فهم سكينر لطبيعة اللغة فهم خاطىء من أساسه . فبينما يعتبر سكينر اللغة مجموعة من العادات الظاهرية التي تتكون لدى الانسان نتيجة للاستجابات المتواصلة للمؤثرات الخارجية دونما حاجة الى جهاز فطري أو عقلي خاص يعين على ذلك ، ويعتقد بامكانية التنبؤ بالسلوك اللغوي للفرد عن طريق دراسة المؤثرات الخارجية التي تحيط به ، أوضح تشومسكي بأن سكينر ليس في موقف من يستطيع الحديث عن مسببات السلوك اللغوي ما دام لا يعرف طبيعة ذلك السلوك (١) . وفي رده على آراء سكينر بدأ تشومسكي يحاول الكشف عن طبيعة اللغة ومميزاتها ، واتبع ذلك بسلسلة من الابحاث خرج منها بنتائج

---

(١) لمزيد من التفاصيل انظر المقالة

"A Revision of B.F. Skinner's Verbal Behavior"

المنشورة في مجلة Language المجلد ٣٥ ، العدد ١ لعام ١٩٥٩ ، صفحات ٢٦ — ٥٨ .

والمعاد نشرها في الكتاب التالي :

Fodor and Katz (eds) : The Structure of Language (Prentice-Hall), 1964, pp. 547-578.

صيلية عن البنية الداخلية للغة ومدى تعقيدها لم يستطع أحـد
تى الان تفنيدها رغم العدد الكبير جدا من الدراسات والتجارب
تي اجراها علماء اللغة وعلماء النفس ولا زالوا يجرونها في معظـم
دان العالم المتحضر ، بل ان معظم هذه التجارب تؤيد حتـى الان
ك النتائج تأييدا كبيرا .

فما الذي أتى به تشومسكي اذا وكان له ذلك الاثر البـالغ
، الدراسات اللغوية المعاصرة ؟ ان من الصعب جدا حصر ما ساهم
، هذا العالم الفذ في صفحات معدودات ، خاصة وان كثيرا مـن
ـائه ذات طابع فلسفي وسيكولوجي بالاضافة الى الطابع اللغوي ،
انه استعمل للتعبير عن آرائـه تعابير فنية خاصـة جدا ليست
فهومة لدى غير المتخصص . ومع ذلك فسنحاول ان نعطي فكرة
بسطة للغاية هنا ، على أمـل ان نعود الى شيء مـن التفصيل في
وضع اخر من هذا الكتاب .

لقد اخذ تشومسكي بتقسيم سوسير للغة الى **لغة وكلام** (٢)
اطلق على الظاهرة الاولى تعبير (competence) وعلى الثانية تعبير
(performance) اللذين سنستعمل لهما نفس المرادفين العربيين
لمذكورين سابقا . وقد قصد بالتعبير الاول اي **اللغة** تلك **القدرة** التي
تكون لدى كل فرد من أفراد مجتمع معين والتي تمكنه من التعبير
ما يريد **بجمل جديدة** ربما لم يسمعها من قبل ، أي التي تمكنه من
كوين ما يريد من الجمل الجديدة في المناسبات المختلفة رغم أنـه
بما لم يسمع تلك الجمل في حياته قط . ويسمي تشومسكي هذه
لملكة « المعرفة اللغوية » ويعتقد بأن أهم مقومات هذه القدرة هي
معرفة الفرد بالقواعد الصرفية النحوية التي تربط المفردات بعضها
ببعض في الجملة ، بالاضافة الى معرفة مجموعة اخرى من القواعد ،
طلق عليها اسم القواعد التحويلية (Transformational Rules)

---

١) انظر صفحة ١٥٢ بأعلاه .

تعمل على البنية الباطنية العميقة للجملة ـ وهي البنية التي تحمل المعاني ـ فتحولها الى الشكل الخارجي الذي يعبر عنه بالاصوات . أما التعبير الثاني اي **الكلام** فيقصد به تلك الاصوات اللغوية التي ينطقها الفرد بالفعل والتي قد لا تكون صورة صحيحة **للغة** لان فيها الكثير من التردد والتكرار والتوقف ومخالفة القواعد اللغوية والجمل المبعثرة الخ ـ بحكم الظروف التي تحكم الكلام الفعلي .

وبتعبير آخر ، فان الفرق بين **اللغة والكلام** هو ان « الكلام عمل ، واللغة حدود هذا العمل ، والكلام سلوك واللغة معايير هذا السلوك ، والكلام نشاط واللغة قواعد هذا النشاط والكلام حركة واللغة نظام هذه الحركة والكلام يحس بالسمع نطقا وبالبصر كتابة ، واللغة تفهم بالتأمل في الكلام . فالذي نقوله او نكتبه كلام والذي نحس به هو اللغة ، فالكلام هو المنطوق وهو المكتوب واللغة هي الموصوفة في كتب القواعد وفقه اللغة والمعجم ونحوها ، والكلام قد يحدث ان يكون عملا فرديا ولكن اللغة لا تكون الا اجتماعية (١) .

وخلافا لما نادى به انصار المدرسة الوصفية التشكيلية السابقون من ان مهمتهم تنحصر في النظر الى ظاهر اللغة ، أي الى **الكلام** الذي يقوله الافراد ، ووصف ذلك الكلام ، فقد رأى تشومسكي بأن هذه ليست مهمة عالم اللغة ، بل ان عليه أن يعمل على استنباط القواعد التي تكون اساس **اللغة** والتي ليس من الضروري ولا من الواقع الفعلي أن يتقيد الفرد بها دائما في كلامه . وانه اذا أريد لتلك القواعد ان تكون ذات قيمة فعلية ، فينبغي أولا ان تغطي اللغة باكملها ، كما ينبغي أن تتمكن هذه القواعد من توليد **او خلق جميع الجمل الصحيحة** في لغة معينة بلا استثناء ، والا تسمح بخلق غير تلك الجمل ، أي انها يجب أن تمنع تكوين جمل

---

(١) انظر : تمام حسان : **اللغة العربية مبناها ومعناها** (القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب) ١٩٧٣ ، ص ٣٢ .

غير صحيحة لغويا او غير مقبولة من الناطقين الاصليين بتلك اللغة . (وهؤلاء هم الذين يعتبرهم تشومسكي الفيصل في الحكم على تلك الجمل من حيث كونها مقبولة ام غير مقبولة) .

وقد دفع تشومسكي الى معارضة الاقتصار على بحث ظاهر اللغة فقط ، بالاضافة الى ما ذكرناه ، ان ظاهر اللغة يمكن ان يكون خداعا اذا نظرنا الى المعنى الذي يؤديه . فمن الممكن جدا أن تتشابه جملتان تشابها تاما من حيث المظهر او التركيب الخارجي بينما تختلفان جذريا في المعنى ، كما في الجملتين التاليتين مثلا :

- صراخ المجرم لم يؤثر في الناس
- عقاب المجرم لم يؤثر في الناس

فالجملتان من حيث الشكل الخارجي متشابهتان تماما ، ونحن نعربهما فعلا بنفس الطريقة تماما ، ففي الجملة الاولى « صراخ المجرم » مضاف ومضاف اليه ، والمضاف مبتدأ ، كما هي الحال في « عقاب المجرم » في الجملة الثانية ، وخبر كل منهما الجملة الفعلية « لم يؤثر في الناس » . ففي الجملتين علاقة المفردات بعضها ببعض متشابهة ، وكذلك علاقة الجزئين الرئيسيين اي المبتدأ والخبر . ومع ذلك فالمعنيان يختلفان اختلافا جذريا . فاذا نظرنا الى معنى الجملة الاولى فهمنا ان المجرم هو الذي صرخ اي هو الفاعل الحقيقي لفعل الصراخ ، اما في الجملة الثانية فان المجرم هو المفعول به الحقيقي لفعل العقاب لان العقاب نزل به .

لقد وجد تشومسكي أيضا أن هنالك كثيرامن الجمل التي تحتمل معنيين – مختلفين لا يميز الشكل الخارجي بينهما فالجملة التالية مثلا :

كان عقاب علي صارما

غير واضحة خارج السياق ، فلسنا ندري ان كان علي هو الذي عاقب انسانا آخر أم ان انسانا آخر هو الذي عاقب عليا .

لقد دعت هذه الجمل وامثالها تشومسكي لان يقول بأن لكل مبنى ظاهري أو خارجي (surface structure) وهو الذي يقال فعلا ، مبنى باطنيا عميقا (Deep structure) هو الذي تكــون العلاقات المعنوية فيه واضحة تماما . ففي الجملتين السابقتين مثلا ، يختلف المبنى الباطني العميق لكل منهما عن الاخر ، ويمكن القول بأن الجملة الاولى تتألف من المبنيين العميقين التاليين :

ـ المجرم صرخ
الصراخ لم يؤثر في الناس

بينما المبنيان العميقان للجملة الثانية يمكن أن يكونا :

ـ بعضهم عاقب المجرم
العقاب لم يؤثر في الناس

وهكذا تساعد الابنية العميقة على توضيح علاقات المعاني بين مكونات الجملة .

أما الذي ينظم العلاقة بين المبنى العميق والمبنى الخارجي الظاهر فهي تلك القواعد التي تطبق على الاولى فتحولها الــى الثانية . وقد أطلق على هذه القواعد اسم **القواعــد التحويليــة** (Transformational Rules) واصبحت مجموعة القواعد الصرفية النحوية الصوتية المعنوية التي طلع بها تشومسكي تسمى « القواعد التحويلية » (Transformational Grammar) (١) ان عودة تشومسكي الى اللغويين التقليديين الذين اهملهم أسلافه المباشرون، وادخاله لعنصر **المعنى** في استنباط القواعد اللغوية مناقض تماما لما فعله انصار المدرسة الوصفية التشكيلية التي سبقته والتــي استبعدت المعنى استبعادا كاملا على اساس انه ليس من اختصاص اهل اللغة .

---

(١) كلمة grammar التي استعملت كلمة « قواعد » مرادفا لها تشمل جميع تلك الضوابط التي تحكم الانظمة اللغوية المختلفة ، بينما « القواعد التحويلية » هي ما ذكرناه باعلاه .

اما نظرية **الخلق** او **الابتكار** التي قال تشومسكي أنها متوفرة عند من يتكلم لغة معينة فهي أيضا ثورة كاملة على انصار تلك المدرسة الذين كانوا ينادون بأن دارس اللغة طفلا كان أم راشدا يبدأ بتعلم تلك اللغة وذهنه صفحة بيضاء ينقش عليها النماذج اللغوية التي يتعلمها ، وعند الحاجة يلجأ الى ذلك المخزون ويختار النماذج التي تناسب المقام . ولم يكتف تشومسكي بدحض تلك المزاعم واثبات نظريته القائلة أن الطفل يكتسب لغة الام عن وعي وادراك حتى في سنه المبكرة جدا ، وانه حالما يستوعب القواعد المختلفة التي تعتمد عليها اللغة ، تتكون عنده القدرة على الخلق ، أي على تركيب الجمل المختلفة التي يريدها في الوقت والظرف المناسبين دون أن يكون بالضرورة قد سمع تلك الجمل وحفظها ممن حوله ، بل لقد ذهب تشومسكي الى أبعد من ذلك فقال بأن الطفل لا يولد وذهنه صفحة بيضاء بل يولد ولديه قدرة فطرية على تعلم أية لغة من لغات العالم . وقد شرح تلك القدرة الفطرية بأنها بالنسبة للطفل الوليد ، تتألف من معرفة مسبقة لتلك القواعد العامة التي تقوم على أساسها جميع لغات العالم ، وأن ذلك الطفل لا يكتسب اللغة عن طريق السماع والمحاكاة والحفظ فحسب ، بل انه يحاول أن يضع ما يسمعه من كلام اللغة التي يعيش بين أهلها ، في القوالب العامة لجميع اللغات التي ولد بها ، فالطفل لا يكون عنصرا سلبيا ، بل عنصرا ايجابيا جدا يستعمل محاكمات عقلية في اثناء اكتسابه اللغة .

وهكذا يكون تشومسكي قد عمل على احياء نظرية **القواعد العامة او الواحدة** لجميع اللغات ، تلك النظرية التي نادى بها الاغريق القدماء من قبل ، كما نادى بها سوسير ، كما أشرنا سابقا . الا أن تشومسكي لم يترك هذه المسألة مجرد نظرية هائمة ، كما أنه لم يلجأ الى المنطق كما فعل القدماء ، بل حاول أن يتوصل الى تلك القواعد **اللغوية** العامة التي تحكم اللغات جميعا ، واهتدى

بالفعل الى بعضها واعترف جميع علماء اللغة له بذلك ، كما قام بعض أنصاره باتمام ما بدأ به في هذا المجال .

هذا بعض من فيض ما قدمه تشومسكي لا لعلم اللغة فحسب بل ولعلوم أخرى كثيرة كعلم النفس وعلم الاجتماع والفلسفة وعلم الاجناس أيضا . ومن يطالع ما قدمه علماء اللغة والمختصون في علم النفس اللغوي بوجه خاص في ربع القرن الماضي وحتى الان يجد أن جميع ابحاثهم تقريبا تدور في فلك ما قدمه تشومسكي ، بين من يحاول اثبات نظرياته وتطويرها ـ وهم الاغلبية ـ ومن يحاول دحضها من الناحية الاخرى . كما يلاحظ أن جميع تلك المحاولات تقريبا قد اتخذت التجريب لا الجدل النظري منهجا لها .

(هـ) الدراسات اللغوية الاجتماعية :

لقد رأينا أن أولى المدارس اللغوية الهامة في القرن الحالي هي المدرسة الوصفية التشكيلية ، وقد اعتبرت هذه المدرسة الوحدة الصوتية كاصغر وحدة لغوية ومنها انطلقت الى الكلمات التي تتألف من تلك الاصوات ، ومن ثم وصلت الى الوحدة الاكبر التي تتألف من هذه الكلمات وهي **الجملة** ، وتوقفت في بحثها عندها .

أما تشومسكي فقد بدأ **بالجملة** كاهم وحدة لغوية وانطلق منها الى **المعاني** من جهة والى **الاصوات** من جهة أخرى ، واعتبر هذا الشكل الاخير ، أي أصوات الجملة الفعلية اخر مظهر من مظاهر اللغة لانه الشكل الخارجي الظاهر المستعمل فعلا في عملية **الكلام** ، على أساس أنه الناتج النهائي لعمليات كثيرة أخرى .

ولكن في نفس الوقت الذي اطلق فيه تشومسكي نظرياته كانت هنالك مدرسة أخرى أخذت الجانب الاجتماعي من اللغة واولته عناية خاصة . وهذا هو احد الجوانب الهامة التي ركز عليها رواد هذا القرن من اللغويين من امثال سوسير والتي أهملها

انصار بلومفيلد والمدرسة الوصفية التشكيلية كما أهملها تشومسكي وانصاره على اساس انها ناحية تتعلق بالكلام الفعلي لا باللغة التي كانوا يعملون على استنباط قواعدها .

ان انصار هذه المدرسة التي يمكن ان نطلق عليها اسم **المدرسة اللغوية الاجتماعية** (والتي يشارك في ابحاثها عالم اللغة كما يشارك فيها عالم الاجتماع وعلماء الاجناس والمتخصصون بعلم النفس الاجتماعي) (١) لا ينتقصون من قدر ما قامت به المدارس اللغوية السابقة من محاولة استنباط القواعد التي تحكم تكوين الجمل ، ولا يهملون هذه الناحية اللغوية الصرفة ، بل هم يستفيدون منها فعلا ، الا انهم يعتقدون بأن أصحاب هاتين المدرستين الرئيسيتين اهتموا بالتركيب الداخلي للغة أكثر مما ينبغي وانهم في نفس الوقت قد أهملوا جانب **الاستعمال الفعلي للغة في اطار المجتمع** ، وما يمكن ان يفرضه ذلك المجتمع من الضوابط والقيود على مستعملي تلك اللغة . وبما ان المعنى بأبعاده المختلفة هو ما يهدف المتكلم الى ايصاله الى أفراد المجتمع الاخرين ، فقد ركز بعض انصار هذه المدرسة أيضا على المعنى ، وبدأوا بتحليل المفاهيم العامة والخاصة التي يرغب كل انسان اينما كان في هذا العالم في التعبير عنها عن طريق اللغة . ثم اخذوا يدرسون الوظائف العامة والخاصة التي يؤديها كل تركيب لغوى ومن ثم انطلقوا الى ايجاد الصيغ والتراكيب اللغوية التي يمكن أن تعبر عن تلك الوظائف . ضمن اطار كل من المفاهيم أو المعاني العامة . وهم يفعلون ذلك باستعمال نفس المنهج العلمي الذي يميز جميع الدراسات في القرن الحالي ، ولذلك فهم يحاولون أن يتوصلوا الى القواعد أو الضوابط التي تحكم الاستعمال الفعلي للغة في المجتمع ، ومعرفة ما هو عام

---

(١) من اهم أعلام هذه المدرسة : Firth من القدامى واتباعه في انكلترا ومنهم C. Candlin, Wilkins وكذلك Hymes في امريكا .

منها وينطبق على المجتمعات المختلفة وما هو خاص بمجتمع معين مع اختلاف طفيف أو كبير عنه في المجتمعات الاخرى .

ولكي لا يكون كلامنا ضربا من المعميات ، فسنقوم بتوضيحه بشكل مبدئي جدا هنا ، فنقول ان اللغة لا تستعمل في فراغ . بل هنالك أمران يحكمان الاستعمال اللغوي ، أولهما **السياق اللغوي** نفسه الذي لا تأخذ المفردات معانيها بمعزل عنه . فأنت اذا بدأت جملة بقولك :

أكل علي ....

وقبل ان تتم الجملة ، فان السامع يتوقع في الحال ان تتم جملتك باسم يدل على نوع من الطعام ، ولكن المعنى الحقيقي لما تم النطق به من الكلام لا يتأتى الا باتمام الجملة ، فاذا كنت تتكلم باللهجة المصرية مثلا واتممت الجملة بقولك :

أكل علي علقة

فقد خاب ظن السامع ، وتغير فهمه لمعنى كلمة « أكل » تغييرا كبيرا ، فقد أصبح معناها « أصاب أو نزل (بعلي) سوء » ولننظر الى الجمل التالية ـ بعضها بالعربية الفصحى وبعضها بالعامية ـ لنرى كيف يكتسب الفعل « أكل » معاني مختلفة لوقوعه في **سياقات لغوية** مختلفة :

أكل علي طعامه
أكل علي مال اليتيم
أكل علي اصابعه ندما
أكل علي ضربة على رأسه
اكلني جلدي او راسي
اكلت السكين اللحم
علي يأكل عمره
علي يأكل لحوم الناس

أيحب احدكم ان ياكل لحم أخيه ميتا (قرآن كريم)
أكل علي علقة
أكل علي هوا
(وباستطاعة القارىء أن يضيف الكثير الى هذه الجمل) .

هنالك اذن **السياق اللغوي** (Verbal Context) الـذي يحدد معاني المفردات والذي بدونه لا يتم ذلك . ولكن هنالك ايضا قرينة أخرى هي الموقف أو المناسبة التي يقال فيها الكلام والتي اطلق عليها اللغويون العرب عبارة **المقـام** فقالوا « لكل مقام مقال »، وهذا بالطبع يؤثر في معنى الجملة كلها تأثيرا كبيرا .

وعناصر هذا المقام عديدة أولها المتكلم نفسه : هل هو ذكر أم انثى ؟ صغير السن أم كبير ؟ واحد أم اثنان أم جماعة أم جمهور ؟ وما هو جنسه ودينه وشكله الخارجي ونبرة صوته ومكانه الاجتماعي الى آخر هذه الصفات التي تميزه عن غيره . وهذا ينطبق على المستمع أيضا ويشمل اضافة الى ذلك علاقته بالمتكلم من حيث القرابة أو الصداقة أو المعرفة السطحية أو عدم المعرفة أو اللامبالاة أو العداوة ، أو المركز الاجتماعي أو المالي أو السياسي الخ . ومن عناصر المقام ايضا موضوع الكلام ، وفي أي جو يقال وفي اي مكان وأي زمان ؟ وكيف يقال ، وما الداعي لقوله ، وغير ذلك من العناصر الكثيرة جدا التي يؤثر كل منها تأثيرا مباشرا على كيفية قول الكلام وعلى تركيبه وعلى معانيه وعلى الغرض من قولـه .

هذه هي أحدث مدرسة لغوية ، او لنقل لغوية اجتماعية ، وهي تعمل بنشاط وداب للاجابة على السؤال الهام « كيف تعمل اللغة في المجتمعات المختلفة ؟ » وهي المدرسة التي يبدو أن ابحاثها ودراستها ستكون هي السائدة فيما تبقى من القرن الحالي . وبما انها لا زالت في الطور الذي تحاول أن تبلور فيه افكارها ولذلك فلن نتعرض لها بتفصيل اكثر في هذا الكتاب .

لقد استعرضنا في هذا الفصل نوعية الدراسات وأهم الاتجاهات في الابحاث اللغوية التي سيطرت ولا زالت تسيطر على الجو العام في القرن الحالي كما بينا المنهج العام للبحث الذي اتخذته تلك الدراسات كما أعطينا فكرة سريعة عن مدى الاتساع والتشعب الذي وصلت اليه الابحاث اللغوية .

وقبل أن ننتقل الى الفصل التالي ، الذي سنبحث فيه طبيعة اللغة ، نرى واجبا علينا أن نوضح ما عنينا بقولنا أن منهج البحث في القرن الحالي كان منهجا علميا ، وذلك بالنظر الى النزعة العقلانية التي ذكرنا أنها ظهرت في الربع الثالث من هذا القرن ، لنرى ان كان كلامنا عن المنهج العلمي يشملها أيضا ، واذا لم يكن الامر كذلك فهل يجب علينا ان نعدل في المقومات التي تحدد المنهج بحيث تشمل تلك النزعة الحديثة ؟ هذا ما نحاول القيام به في الصفحات الباقية من هذا الفصل .

٦ ـ المنهج العلمي ومدى انطباقه على الدراسات اللغوية الحديثة :

لقد رأينا كيف بدأت المدرسة اللغوية الوصفية التشكيلية بمحاولة تمثل روح العصر واقتباس الاساليب العلمية في البحث والدراسة ، لاستخدامها في وصف اللغات ، كما رأينا كيف انها نجحت في استخدام المنهج العلمي في دراسة ظاهر اللغة ، وكيف أدى بها ذلك الى الاستغناء عن الجوهر وهو **المعنى** والى فقدانها الكثير من أصالة الدراسة اللغوية المجدية التي يمكن أن تؤدي للوصول الى صياغة نظرية متكاملة مترابطة لطريقة عمل وتداخل الانظمة اللغوية المختلفة .

ثم رأينا بعد ذلك كيف أتت مدرسة القواعد التحويلية فأدخلت عنصر **المعنى ونظام المعاني** كأحد الاسس التي يجب ان تدخل في نطاق أية دراسة لغوية ، واعتمدت على قدرة أصحاب اللغة الاصليين على تمييز الخطأ من الصواب وعلى معرفة مواطن اللبس في بعض الجمل والتراكيب عن طريق **حسهم الداخلي** الذي

يسمونه بالانكليزية (intuition) والذي لا يعتبره العلماء الطبيعيون عنصرا موضوعيا يمكن الاعتماد عليه في البحث العلمي .

ان استعمال المعنى واستخدام الحس الداخلي للفرد في نظرية أصحاب هذه المدرسة واتخاذهم الاتجاه العقلاني في ابحاثهم يجعلنا مضطرين لدراسة مقومات ما يسمى بالمنهج العلمي لنرى كيف وهل يمكن التوفيق بينه وبين منهجهم هذا . فما هي مقومات المنهج العلمي ؟

دافيد كريستال ، استاذ علم اللغة في جامعة ردنج بانكلترا يلخص مقومات المنهج العلمي بثلاث هي : الوضوح التام (explicitness) والانتظام مع الثبات (systematicness) والموضوعية (objectivity) (١) فماذا تعني كل من هذه الصفات ؟

اما **الوضوح** فيعتمد على عدة أمور تشترك فيها الدراسات العلمية جميعا كوضوح الفرضيات التي يعتمد عليها البحث ، ووضوح الخطوات المتوسطة وخاصة اذا كانت فرضيات اخرى تعتمد عليها ، ووضوح المصطلحات أو التعابير الفنية واستعمال كل منها بمعنى واحد طيلة فترة البحث . ومع أن البحث اللغوي يشترك مع العلوم الاخرى في هذه الخاصية ومكوناتها المختلفة الا أن هنالك أمورا خاصة به على الباحث أن يكون على بينة منها لكي لا يضل الطريق فيجد نفسه يتعامل مع معميات غير واضحة . ولنأخذ بعض الامثلة على ذلك .

فهنالك مشكلة المصطلحات أو التعابير الفنية التي تتألف عادة من مفردات او عبارات خاصة جدا ينبغي أن تحدد معانيها بشكل دقيق وواضح للغاية حتى لا تلتبس مع ما يمكن أن يفهم منها عند استعمالها استعمالا عاديا بين عامة الناس – اذا حصل ذلك

(١) D Crystal : op. cit. pp. 78 ff.

بالنسبة لبعضهـا ـ . ومعظم هـذه المصطلحات تداولها لغويون ينتمون الى مدارس مختلفة ، وعرفوا معانيها بأشكال وطـرق شتى ، ولذلك فان من الضروري أن يوضح الباحث اللغوي توضيحا لا لبس فيه على الاطلاق ما يعنيه بكل من تلك المصطلحات التي يستخدمها . فماذا يعني المصطلح «كلمة» او «جملة» او «ظرف» أو « اسم » أو « حرف علة » الخ ؟ لقد انحدر الينا في بعض الاحيان أكثر من مائتي تعريف مختلف لمصطلح واحد من العصور التاريخية المختلفة ، كما هو الحال مع مصطلح « الجملة » مثلا . وكذلك تعريف مصطلح « الكلمة » فقد أعجز الباحثين حتى الان ، مما حدا ببعضهم أخيرا الى استعمال المصطلحين بالمعاني الشائعة لهما بين عامة الناس ، ومما حدا ببعضهم الآخر الى الاستغناء عن عبـارة « كلمة » مثلا واستبدالها بعبارة « المورفيم » التي وردت الاشارة السريعة اليها سابقا .

وتحديد معاني هذه المصطلحات الفنية يفترض اننا نتمسك بأمرين : **اولهما** هو الثبات على المصطلح المعين بنفس المعنى خلال البحث اللغوي بأكمله **وثانيهما** ، يتعلق **بالمعايير** التي يجري تحديد معنى المصطلح بموجبها ، ومن الامثلة التي تعطى عادة على معايير غير دقيقة أو غير علمية لانها تعتمد على مفاهيم غامضة ذلك التعريف التقليدي للجملة بأنها « مجموعة من **الكلمات** تتألف مـن **مبتـدأ وخبر** وتؤدي **معنى تاما** » . فهذا التعريف يعتمد أولا على مفاهيم يجب أن تكون محددة سلفا مثل مفاهيم « الكلمة ـ المبتدأ ـ الخبر ـ المعنى التام » وهي من المفاهيم التي يعسر تحديدها ، ولكن لا يجوز أن تؤخذ كمسلمات يعتمد عليها أي تعريف يقصد به التحديد والتوضيح . أما الامر الآخر في هـذا التعريف فهـو انه يعتمد على نوعين من المعايير : المعيار الاول لغوي ، أي أن لـه علاقة مباشرة باللغة أو يعتمد على اللغة نفسها بشكل رئيسي ، والمفاهيم الثلاثة الاولى المذكورة اعلاه تنتمي الى هذا النوع . أما المعيار الآخر وهو « المعنى » فيعتمد على العالـم الخارجي ، اي

الخارج عن نطاق اللغة نفسها ، لان المعنى بالمفهوم العام هو العلاقة بين اللغة والعالم الخارجي . بالاضافة الى ذلك فان التعريف يدور حول نفسه ، أي اننا اذا سألنا انفسنا السؤال التالي : اذا كانت الجملة تؤدي معنى تاما ، فما هو هذا **المعنى التام** ؟ وستكون اجابتنا في الغالب : المعنى التام هو ذلك المعنى الذي تؤديه الجملة . وهكذا نجد انفسنا ندور في حلقة مفرغة .

ومن امثلة استعمال المعايير المختلفة لتعريف نفس المصطلح على أيدي مدارس لغوية عربية مختلفة ، تعريف أجزاء الكلام . فهم جميعا متفقون على تقسيم الكلام الى ثلاثة أجزاء : الاسم والفعل والحرف . الا أن المعايير التي وضعها اللغويون القدماء لتحديد كل جزء من هذه الاجزاء الثلاثة تختلف من مدرسة الى اخرى . فنجد مثلا ان ابن مالك يميزها في الفيته المشهورة باستعمال معايير لغوية شكلية ، أي لا علاقة لها بالمعنى فيعرف الاسم بأنه : تلك الكلمة التي تجر بحرف الجر ، وتنون ، وتسبقها أل التعريف وتقع مسندا اليه كما تقع منادى في الجملة (١) . وجميع هذه المعايير صرفية نحوية اي لغوية تتعلق **بشكل الكلمة** وما يمكن أن يطرأ عليها من تغييرات ، كما تتعلق **بالوظيفة** التي يمكن أن تؤديها الكلمة في الجملة . كما عرف ابن مالك الفعل بالطريقة نفسها واعتبر الحرف ما عدا ذلك . وهذه المعايير شبيهة جدا بتلك التي استخدمها أنصار المدرسة الوصفية التشكيلية الحديثة في أمريكا وأوروبا والتي أشرنا اليها في الصفحات السابقة . ولكن نحويين آخرين من العرب اتخذوا **المعنى** معيارا لتعاريفهم فقالوا أن « الاسم هو ما دل على مسمى ، والفعل ما دل على حدث وزمن والحرف ما ليس كذلك » .

---

(١) النص الاعلى كما ورد في البيت الثالث من الفية ابن مالك :

بالجر ، والتنوين والندا وأل ومسند للاسم تمييز حصل

ولسنا هنا في مجال المفاضلة بين هذين النوعين من المعايير فلذلك موضع آخر ، انما قصدنا فقط الى اعطاء مثال على تعدد المعايير التي يمكن أن تستعمل في الابحاث اللغوية . وهنالك من اللغويين المحدثين من استعمل كلا النوعين معا في تحديد اجزاء الكلام في اللغة العربية وحالفه الكثير من النجاح فتوصل الى تحديد سبعة أجزاء من الكلام بدلا من الاجزاء الثلاثة التقليدية المعروفة (١) .

وهذا لا يعني بالطبع اننا يجب أن نعرف كل مصطلح ، اساسيا كان أم غير أساسي للبحث الذي نقوم به ، بمنتهى الدقة ، وذلك لان ميدان تحديد معاني بعض المصطلحات ربما كان غير الميدان الذي يجرى فيه البحث الذي نقوم به في وقت من الاوقات . مثلا ، اذا كنا نقوم بدراسة نحوية أو صرفية لها علاقة بعلم الاصوات واستعملنا التعبيرين : **الصوت المهموس والصوت المجهور** فلا داعي لتعريف هذين التعبيرين اثناء بحثنا الحالي ، بل يمكن أن نعتمد على هذين المفهومين كما عرفهما علماء الاصوات اذا كانت دقائق معانيهما لا تؤثر تأثيرا مباشرا في بحثنا الصرفي والنحوي الحالي . وخلاصة القول هنا اننا يجب أن نقف موقفا حذرا جدا من المصطلحات الفنية بحيث لا يؤثر غموض بعضها في دراستنا اللغوية فيقودنا الى نتائج غير مضمونة أو موثوق بها .

ثم ان هنالك امرا آخر في غاية الاهمية ، يتطلب الوضوح التام اثناء معالجته . فاذا كنا نحاول أن نصف لغة **حديثة** بالذات ، علينا أن ننتبه الى جميع العوامل التي **تؤثر** في **استعمال** الناس لها ، وذلك لكي نستطيع التوصل الى تكوين **نظرية شاملة** تعتمد على **المبادىء العامة** التي تحكمها ــ وربما تحكم غيرها من لغات العالم أيضا ــ فعلينا أن نختار **عينة** من الناس تمثل **جميع** فئاتهم ، كما أن علينا أن ننتبه الى **المقامات** المختلفة التي يجرى فيها ذلك

(١) انظر تمام حسان : **اللغة العربية** ... ص ٨٦ ــ ١٣٢

الاستعمال . فاذا أردنا مثلا أن نجد المبادىء التي تحكم استعمال الناس في عصرنا هذا للغة المكتوبة ، وجب علينا الا نقصر بحثنا على الادباء واللغة التي يستعملونها ، أو على فئة معينة منهم ، بل يجب أن تشمل العينة جميع الفئات التي تستعمل اللغة في كتابتها ، من الفرد المثقف العادى الى الادباء والشعراء والانواع الاخرى من الفنانين ، كما يجب ان تشمل الفلاسفة وعلماء الطبيعة وعلماء النفس وكذلك الكتابات التجارية والاقتصادية والسياسية .. الخ الخ اي أن العينة يجب أن تشمل جميع الفئات التي تستعمل لغة معينة وذلك لكي تكون دراستنا شاملة وينتج عنها مبادىء عامة تستخدمها جميع الفئات .

اما الركيزة الثانية للمنهج العلمي والتي سميناها **الانتظام والثبات** فهي متصلة بالركيزة الاولى ، ولكنها تؤكد على تنظيم العمل بشكل معين والثبات على الاسس التي يعتمد عليها ، وتطبيقها بشكل منظم ، ليس على مظهر جانبي أو على نقطة واحدة أو نقطتين لغويتين بل على الدراسة بأسرها ، بحيث تمثل النتائج التي يمكن الحصول عليها رؤية شاملة غير مبتورة .

وفي موضوع بالغ التعقيد كاللغة ، لا بد للباحث أن يختار ، وبشكل اعتباطى ، نقطة البداية ، ثم ينطلق من هناك الى الظواهر اللغوية الاخرى . وقد ركز اللغويون المحدثون في الغرب على هذه النقطة بالذات ، ولذلك فمن الممكن اعطاء الامثلة على ما فعلوا . فهنالك مدرسة مثلا بدات من الاصوات اللغوية كمنطلق للدراسة ، ثم ارتفعت الى الصرف فالنحو ، وكان من المفروض أن تصل الى دراسة المعاني ،ولكنها وقفت هناك عاجزة عن متابعة البحث . وهنالك مدرسة اخرى بدات بالجملة ـ وهي وحدة نحوية ـ ومنها انطلقت باتجاهين ، احدهما يؤدي الى المعاني والاخر يؤدي الى الاصوات . بينما قامت مدرسة ثالثة بالبدء بالمعاني ، ثم انطلقت منها الى التراكيب النحوية والصرفية ، منتهية بالاصوات اللغوية .

ومرة أخرى نقول اننا لسنا في مجال المفاضلة بين هذه الاساليب في **تنظيم العمل** ولكن المهم هنا أن نذكر أننا عندما نختار اسلوبا معينا ، فان علينا أن نرسم خطواته بكل وضوح ونحددها تحديدا شديدا ونلزم أنفسنا بها في دراستنا التزاما كاملا . ومما يؤكد اهمية هذا الكلام أننا بالفعل لا نستطيع أن نبدأ في دراساتنا اللغوية ،وذلك بحكم طبيعة اللغة وعلاقتنا بها ، من نقطة الصفر . فلكل منا فرضياته المسبقة عن اللغة ولا بد لنا أن نبدأ ببعض تلك الفرضيات ، كافتراضنا جميعا مثلا ان الجملة تتألف من مبتدأ وخبر (أو فعل وفاعل) . فنحن نعرف مسبقا ما نريد أن نبحثه ، ولكن المهم هنا هو أن نحدد الاطار الدقيق الذي سنعمل من خلاله ، وأن نلتزم بذلك الاطار التزاما تاما ، وذلك لكي نصل الى تحديد ادق لتلك المفاهيم المفترضة مقدما ، ونستبدل الغموض بالوضوح والدقة التامين .

كما أن من المهم جدا أن نحاول فحص أو اختبار كل فرضية سواء كانت خاصة بلغة معينة او عامة بين جميع لغات العالم ، بجميع الطرق العلمية الممكنة ، سواء استدعى ذلك تجارب علمية أم مقارنات لغوية أم غيرها . ان **المتغيرات** ، أي الظروف التي يمكن أن تتغير في أثناء القيام بتجربة علمية على اللغة ، أكثر بمراحل من تلك التي تحيط بتجارب العلوم الطبيعية ، كما أن السيطرة على تلك المتغيرات اشق بكثير . ولكننا ، حتى نستطيع المقارنة بين ظاهرتين ، علينا ان نحاول السيطرة على جميع المتغيرات الاخرى ، لنلاحظ الترابط او العلاقة بين هاتين الظاهرتين وكيف تتغير احداهما بالنسبة للاخرى . ان البحث اللغوي يعتمد في معظمه على **المقارنة** او **المقابلة** ، وعلينا عندما نقوم بذلك أن نسأل الاسئلة الصحيحة ، والا نترك مجالا واحدا للمقارنة لا نعقدها فيه . ومثال ذلك : أن عند كل منا انطباعا مسبقا عن علاقة تقوم بين **الفعل والزمن** . وقد سبق أن راينا كيف عرف بعض النحويين العرب

الفعل بأنه ما دل على حدث وزمن . وأشباه هذا التعريف موجودة ومتداولة في قواعد كثير من اللغات . وفي مثل هذه الحالة يمكن أن نرضى بهذه الفرضية التقليدية المتعارف عليها بحيث أصبحت تبدو وكأنها حقيقة مسلم بها . ولكننا يجب الا نفعل ذلك ، بل علينا أن نحاول تأكيد تلك الفرضية أو تعديلها أو رفضها كلية وذلك بوضعها تحت المجهر ، اي بصياغة الاسئلة المناسبة التي يمكن أن تظهر حقيقتها . فيمكن أن نسأل الاسئلة التالية على سبيل المثال : هل هنالك علاقة مباشرة بين صيغة الفعل والزمن ، بأن تدل **صيغة الماضي** على **الزمن الماضي** وصيغة المضارع على **الزمن الحاضر** (**او المستقبل**) ؟ وهل هذه الدلالة الصرفية ثابتة في السياقات النحوية المختلفة ، اي في الجمل المختلفة ؟ وهل هنالك طرق لغوية اخرى غير الفعل للدلالة على الزمن ؟

ان الاجابة على أسئلة من هذا النوع تبين لنا بوضوح تام أن فرضيتنا السابقة لا يمكن قبولها على اطلاقها . بل علينا أن نعد لها بحيث تتمشى مع الواقع اللغوي ، بدلا من أن نتشبث بها ونحاول تبرير التغييرات التي تطرأ على العلاقة بين صيغة الفعل والزمن ، كما فعل بعض النحاة العرب مثلا عندما حاولوا تبرير اشارة الفعل المضارع المنفي بالحرف « لم » مثل « لم يذهب » الى الزمن الماضي ، بأن الحرف « لم » **حرف قلب** ، اي انه يقلب الحاضر الى الماضي . بينما كان الاحرى بهم أن يرصدوا **السياقات** المختلفة التي تقع فيها كل صيغة من صيغ الفعل ، ثم يشيرون الى دلالاتها الزمنية في تلك السياقات ، بأن يقولوا مثلا أن صيغة المضارع بعد حرف النفي « لم » تشير الى الماضي وهكذا . اي أن تعريف أو تحديد الدلالة او العلاقة اللغوية التي تشير اليها صيغة من الصيغ يجب أن تكون **نتيجة** للدراسات لا سابقة لها .

وفي واقع الامر فان الدراسة الوصفية لعلاقة صيغة الفعل بالزمن في اللغة العربية (وفي كثير من لغات العالم الاخرى ، بل ربما فيها جميعا) تشير بوضوح الى عدم وجود ثبات في تلك العلاقة ،

بل ان السياقات اللغوية هي التي تتحكم فيها ، بالاضافة الى « الظروف » والكلمات الاخرى المستعملة في الجملة . فاذا نظرنا الى الجمل التالية مثلا :

- **بعتك** الدار بألف دينار
- **غفر** الله لك
- اذا **زرتني** أزورك
- وحياتك لانكثت عهدك ما دمت حيا

نجد أن الفعل الماضي في الجملة الاولى يدل على الزمن الحاضر ، أما الافعال الماضية في الجمل الاخرى فتدل جميعها على الزمن المستقبل .

كما أن **صيغة المضارع** تدل على الزمن الحاضر في مواضع معينة وعلى الزمن المستقبل في مواضع معينة أخرى ، بل انها تدل على **الزمن الماضي** في مواضع اخرى كالجمل التالية :

- زرتك **ولم تكن** في البيت
- قطفت الثمرة **ولما تنضج**
- **لو ينتبهون** الى الشرح لاستفادوا (1)

علاوة على ذلك ، فان دراسة تحليلية من هذا النوع تظهر لنا أن هنالك معاني اخرى يدل عليها الفعل بالاضافة الى الحدث والزمن ، فهي تبين لنا اشارة فعلية الى علاقات زمنية مختلفة كالعلاقات التالية :

---

(1) رشيد الشرتوني : **مبادىء العربية** ج ٤ (المطبعة الكاثوليكية ببيروت) الطبعة العاشرة ص ١٠ - ١١

صيغة **كان فعل** تشير الى **الحدث البعيد التام** أو المنقطع
صيغة **كان قد فعل** تشير الى **الحدث القريب التام** أو المنقطع
صيغة **ما زال يفعل** تشير الى اتصال زمن الحدث الماضي بالحاضر (١) .

وعلاقات أخرى غيرها . وهذه الامثلة جميعها تدل على ضرورة فحص اي من المسلمات أو الفرضيات التي يحملها الباحث عن لغته مهما بدت مقنعة بناء على دراسات قديمة . كما نختم كلامنا عن هذه الركيزة الثابتة من ركائز المنهج العلمي في البحث بتأكيد ضرورة وضوح الاطار الذي يعمل اللغوي فيه ، والاسس التي يعتمد عليها والخطوات التفصيلية التي يتبعها في البحث ، **والثبات** عليها جميعا طيلة المدة التي يجري فيه البحث أو الدراسة .

أما الركيزة الثالثة الاساسية التي يعتمد عليها منهج البحث العلمي فلربما كانت اهم الركائز جميعا مثارا للجدل الآن في ضوء بعض النظريات اللغوية الحديثة . هذه الركيزة هي **الموضوعية** .

لقد أشرنا اشارات سريعة في الصفحات السابقة ، ستوضح فيما بعد ، الى أن احدى المدارس اللغوية الرائدة في الغرب في القرن الحالي هي المدرسة الوصفية التشكيلية ، قد تأثرت بالمنهج العلمي في البحث الى درجة كبيرة جدا ، واستخدمت هذا المنهج استخداما حرفيا ، بمقوماته المختلفة بما في ذلك صفة **الموضوعية** ، في وصف اللغات ، ولكنها اصطدمت بعقبة رئيسية هي صعوبة تطبيق هذا المنهج على **دراسة المعاني** التي تكون جزءا لا يتجزأ من اللغة ، بل ربما كانت أهم جزء منها على الاطلاق ، ولذلك فقد وقفوا دراساتهم على الشكل الخارجي للغة من أصوات ومفردات وجمل وأهملوا عالم المعاني بأسره ، فجاءت دراساتهم سطحية وقاصرة جدا . والسبب الاساسي في ذلك أن طبيعة اللغة تختلف اختلافا

---

(١) تمام حسان : المصدر السابق ، ص ٢٤٥ .

جذريا عن طبيعة المواد الكيماوية والظواهر الطبيعية .. الخ التي يستخدم المنهج العلمي في دراستها .

وعندما اكتشف علماء اللغة هذا القصور في البحث اللغوي ، أدخلوا عنصر المعاني فيه ، ولكنهم وجدوا أنهم بذلك يبتعدون عن احدى الركائز الاساسية لمنهج البحث العلمي . ولم يؤثر ذلك في عملهم لان هدفهم كان مخالفا لهدف من سبقهم . فقد فرق تشومسكي وزملاؤه وتلامذته منذ عام ١٩٥٧ حتى الآن ، بين القدرة اللغوية التي يشترك فيها جميع افراد مجتمع معين وبين **الكلام** الفعلي الذي يصدر عنهم ــ وهو الكلام الذي كانت الدراسات العلمية السابقة تبنى على عينة منه ــ وقالوا ان هدفهم هو استنباط القواعد التي تتألف منها تلك **القدرة** اللغوية الذهنية ، لا وصف الكلام الفعلي الذي لا يحتل الا جزءا ضئيلا من تلك القدرة ، بل ويمثلها بشكل ممسوخ في كثير من الاحيان . فقواعد اللغة بحسب راي هؤلاء يجب الا تسمح بتوليد الجمل الخاطئة او الناقصة المبتورة الخ ، الا أن هذا هو بالفعل السمة الغالبة على الكلام الفعلي .

والمشكلة هنا هي أن هذه المدرسة اللغوية تعتمد على الحدس الفردي أو الحس الخاص للفرد (intuition) كجزء من المادة (data) التي يعمل بها اللغوي ، وهذا أمر غير مقبول من علماء الطبيعة وزملائهم . ولكن وجهة نظر اللغويين المحدثين جميعا هو أن اللغة ظاهرة ذات طبيعة فذة تختلف عن طبيعة اية ظاهرة أخرى من ظواهر هذا العالم ، ولذلك فان المنهج العلمي الذي يجب أن يطبق على دراساتها يجب أن يعدل بالشكل الذي يتلاءم مع هذه الطبيعة الخاصة للغة .

ولا نريد هنا ان نسترسل في وجوه الخلاف بين المنهجين وأصحابهما ، ولكننا يجب أن نعترف بأن ما قدمته هذه المدرسة اللغوية من خدمات وما طلعت به علينا من نظرات عميقة جدا للنظام

اللغوي الكامل ، قد فاق كل ما قدم في التاريخ حتى الآن ، وهذا ما يعترف به جميع علماء اللغة المعاصرين مهما اختلفت اتجاهاتهم كما يعترف به علماء اخرون كثيرون من ذوى الاهتمامات المختلفة ، كما أن ابحاث هذه المدرسة لم تنقطع ابدا ويساهم فيها معظم اللغويين المعاصرين .ولذلك فانا نعتقد بأن الهوة الظاهرة الان بين موضوعية المنهج العلمي الذي يعتمد على التجريب المتجرد ، وبين ما يبدو مخالفا لذلك في منهج هذه المدرسة ، لا بد أن يتم ردمه بطريقة أو باخرى في السنوات القليلة القادمة .

وهنا نجد أن علينا أن نختتم هذا الفصل الذي اتسم بالعموميات في مجمله لننتقل الى النظر في بعض الدراسات التفصيلية المعاصرة وسنبدأ في الفصل القادم البحث في **طبيعة اللغة** .



الفصل الثالث

طبيعة اللغة

١ ـ النظريات الحديثة في طبيعة اللغة البشرية :

لقد أصبحت كلمة « لغة » تستعمل في الصحف والمجلات غير العلمية وعلى السنة الناس على نطاق واسع للاشارة الى عدد كبير من وسائل الاتصال المختلفة . فنحن نسمع بلغة النمل ولغة النحل ولغة الطيور ولغة الحيوان ولغة الاسماك ولغة الاشارة ولغة الكمبيوتر وحتى لغة العيون التي يتغنى بها الشعراء . نسمع ذلك وكأن وسائل الاتصال هذه التي يشار اليها بنفس الكلمة لغات حقيقية لا تختلف عن لغة الانسان . ولكن هل هذه هي الحقيقة ؟ واذا كانت لغة البشر تختلف عن وسائل الاتصال المذكورة فهل الاختلاف سطحي أم جذري ؟ هل هو اختلاف في النوع أو في الكم ؟ واذا كان اختلافا جذريا فما الذي يميز لغة الانسان عن غيرها من وسائل الاتصال المذكورة في مطلع هذا الكلام ؟ وبكلمات أخرى هل لغة الانسان ظاهرة خاصة بالانسان أم تشاركه فيها بعض الكائنات الحية الاخرى ؟ واذا كانت خاصة بالانسان فهل هي ظاهرة طبيعية فطرية أم تعليمية مكتسبة ؟ وهل الانسان هو الوحيد القادر على اكتساب او تعلم اللغة أم يمكن أن تتعلمها بعض الحيوانات الراقية مثلا ؟ واذا كانت بعض هذه المخلوقات يمكنها أن تتعلم لغة الانسان ولو بشكل بدائي فماذا يعني ذلك بالنسبة لنشأة اللغة وتطورها ؟

هذه الاسئلة وعشرات غيرها شغلت بال المفكرين من فلاسفة وعلماء نفس وعلماء لغة ورجال دين وعلماء اجتماع وسواهم منذ آلاف السنين . فلقد رأينا في أحد أجزاء الفصل الثاني بعض مظاهر الاهتمام في العصور القديمة عند الاغريق وفي العصور

الوسطى عند العرب بوجه خاص . ولكن هذا الاهتمام خبا نوره مدة طويلة الى ان تجدد على يد فلاسفة القرن التاسع عشر بشكل خاص ثم امتد حتى شمل القرن العشرين بأكمله وهو في أوج نشاطه في الوقت الحاضر .ونظرا لاهمية ما يجرى الان في هذا المجال وللصبغة العلمية التجريبية التي تسيطر على الابحاث المتعلقة به فسنقصر كلامنا على القرن الحالي ونركز على السنوات القليلة الماضية لنعطى القارىء فكرة موجزة عن الاتجاهات المعاصرة في هذه الدراسة .

لقد اشرنا سابقا الى اثر **المدرسة السلوكية** في علم النفس على الدراسات اللغوية حتى الخمسينات من القرن الحالي وذكرنا كيف ان **سكينر** (Skinner) عالم النفس الامريكي نظر الى اللغة على انها عادة مكتسبة مثلها في ذلك مثل العادات الاخرى التي يكتسبها الانسان أثناء نموه من الطفولة الى الرجولة وقال ان الطفل يولد وذهنه صفحة بيضاء خالية من اللغة تماما . كما عزا نجاح الطفل في اكتساب عادة اللغة المعقدة الى التدريب المتواصل المتحكم فيه الذي مكنه من تعليم عادات معقدة للحيوانات من الفئران وغيرها التي كان يجرى عليها التجارب في مختبره . هذا في امريكا أما في الاتحاد السوفياتي فقد كان لمدرسة **بافلوف** السلوكية أيضا نفس الاثر على علماء النفس المتاخرين من أمثال **فيجوتسكي** (Vygotsky) **ولوريا** (Luria) الذين كانوا يتفقون في الرأي مع ما نادى بـه سكينر واتباعه في الولايات المتحدة الامريكية . ويمكن تلخيص آراء هذه المدرسة بالنسبة للغة بأن اللغة تتألف من ردود فعل أو استجابات لمؤثرات خارجية يصبح الشكل المقبول اجتماعيا منها عادة لدى الفرد عن طريق الثواب الذي يقدمه له المجتمع سـواء اقتصر هذا المجتمع على الوالدين في بادىء الامر او امتد الى ابعد من ذلك فيما بعد . فعندما يتعلم الطفل اللغة بهذه الطريقة يتوصل في النهاية الى حفظ واختزان عدد محدود من نماذج الجمل التي يمكن مدها وتوسيعها **افقيا** بطرق مختلفة مع الابقاء على أسـاس

كل نموذج منها على ما هو عليه . وعندما يتأثر الفرد بمؤثر خارجي يستجيب له بأحد هذه النماذج المخزونة عنده .

وقد ذكرنا قبل قليل كلمة **افقيا** ونقصد بها أن العلاقات النحوية والصرفية بين مفردات الجملة تعتبر في نظر هؤلاء علاقات افقية اي أن الجملة تتألف من شريط أو مسلسل من الكلمات المصفوفة بعضها بجانب بعض وأن معنى تلك الجملة يتألف من معاني المفردات بالاضافة الى العلاقات الافقية الظاهرة بينها والتي تنظمها قواعد اللغة . وكما سنذكر بشيء من التفصيل بعد قليل ، فان انصار هذه المدرسة قد نظروا الى طبيعة اللغة نظرة سطحية ظاهرية تمشيا مع مبادىء ومنهج علم النفس السلوكي الذي لم يكن يعنى الا بظاهر الاشياء التي يمكن قياسها واجراء التجارب عليها . وبهذا حولوا عملية الكلام واكتساب اللغة الى عملية آلية لا كبير دخل للمحاكمات العقلية بها . ولا يعتبر بحثهم بالنسبة للغة بحثا في طبيعتها ما داموا قد اقتصروا على دراسة ظاهرها فحسب. وعندما طبق اتباع هذه المدرسة من علماء اللغة امثال **بلومفيلد** هذه النظرة على اللغة استبعدوا المعنى من دراسات اللغة وحصروها بالاصوات والتراكيب الصرفية والنحوية فقط . فقسموا الجملة الى نماذج من حيث شكلها الخارجي والترتيب الافقي التتابعي للمفردات فيها بغض النظر عن المعنى النهائي الذي ينتج عن ذلك . ولنعط هنا مثلا أو اثنين لتوضيح هذه النقطة . لقد كان أحد النماذج الـ وضعوها يتألف من اطارين :

الفعل اللازم / يتبعه الفاعل / ويمكن أن يتبعه اطار شبه الجملة كالجار والمجرور . ومثال ذلك :

ذهب / الرجل / الى السوق .

وتحت هذا النموذج تندرج جميع الجمل المشابهة . فمثلا الجملتان :

سعى / الرجل / الى رزقــه
سعى / الرجل / الى هلاكه

جملتان متشابهتان تماما وتتبعان نموذجا واحدا بالرغم من ان الجملة الاولى تفيد ان الرجل هو الذي حصل الرزق أما الثانية فان الرجل هو الذي سيقع عليه أو يصيبه الهلاك أو الموت .

واليكم مثلا آخر . ان احد النماذج الاخرى التـي قسمـوا اللغة اليها تتألف من ثلاثة اطارات :

الفعل المتعدى / الفاعل / المفعول به .
وعلى هذا فانهم ينظرون الى الجمل الثلاث التالية على أنها تتبع نموذجا واحدا :

فتح / الرجل / الباب
فتح / الريح / الباب
فتح / المفتاح / الباب

مع أن المعنى يختلف من جملة الى اخرى . ففي الجملة الاولـى : **الرجل** هو **الفاعل الحقيقي** . اما في الثانية فان **الريح** هو **السبب** في انفتاح الباب . اما في الثالثة فان **المفتاح** هو **الاداة** التي فتح بها البـــاب .

هذه أمثلة سريعة تعطى فكرة عن النظرة الساذجة التي نظر بها علماء النفس السلوكيون واتباعهم من اللغويين الـى اللغـة الانسانية .

أما المدرسة التي ثورت الابحاث في طبيعة اللغة فهي مدرسة **تشومسكي** التي اشرنا اليها فيما سبق فقد نقض تشومسكـي الفرضيات السلوكية الساذجة عن طبيعة اللغة ، وأثبت أن اللغة عملية عقلية معقدة ، وان العلاقات المعنوية في الجملة علاقات راسية كما هي علاقات افقية . كما قال بأن الانسـان يولد ولديه قدرة لغوية محددة تساعده على اكتساب اية لغة يعيش في مجتمعها .

كما ابرز صفة هامة للغاية من صفات اللغة هي قدرة المتكلم بها على تأليف وابتكار جمل وتعابير جديدة لم يقلها أحد من قبل ، أو على الاقل لم يسمعها هو نفسه من قبل .

هذه النظريات أو الفرضيات غيرت مجرى الابحاث المتعلقة بطبيعة اللغة ووجهتها وجهة مختلفة تماما . فقد بدأ العلماء يحاولون الاجابة على أسئلة من النوع التالي :

١ ـ ما هي الصفات التي تميز لغة الانسان عن وسائل الاتصال الاخرى ؟

٢ ـ هل الانسان هو الوحيد بين المخلوقات الذي يستخدم لغة حقيقية ؟

٣ ـ هل اللغة طبع أم تطبع أم شيء من هذا وشيء من ذاك ؟

٤ ـ هل يمكن تعليم الحيوانات لغة الانسان أو أية لغة حقيقية اخرى ؟

هذه الاسئلة يأخذها العلماء في الوقت الحاضر مأخذ الجد وتشغل بالهم الى حد كبير لدرجة أن قسطا كبيرا من دراساتهم وأبحاثهم وتجاربهم ينصب عليها كما سنرى عندما نعرض الى كل منها في الصفحات التالية . ولعل هذه الدراسات من أكثر الابحاث اللغوية امتاعا وأكثرها عمقا واثارة للتفكير والتأمل في طبيعة هذا السر العظيم الذي اختص الله به الانسان من بين سائر المخلوقات الاخرى .

٢ ـ لغة الحيوان :

لقد حاول الكثيرون تعريف اللغة فكانت تعاريفهم تصدر اما من وجهة نظر معينة كأن يكون المعرف مهتما بمظهر معين من مظاهر اللغة كمظهر الاتصال أو التبليغ أو بالمظهر الاجتماعي أو بالمظهر

الشكلي الظاهري ، فأتت معظم تعاريفهم اما قاصرة لا تستغرق الجوانب المختلفة للغة ، أو أنها تنطبق على وسائل الاتصال الاخرى التي تتعامل بها بعض المخلوقات الاخرى . ولذلك فقد أخذ العلماء يتجنبون هذه الطريقة في محاولتهم النفاذ الى جوهر اللغة .

ولعل أفضل المحاولات للوصول الى ذلك هي ما قام به العالم الامريكي **تشارلزهوكت** (Charles Hocket) خلال عشر سنوات من البحث والدراسة . فقد عكف هذا العالم على محاولة التوصل الى الخصائص أو الصفات التي تميز اللغة الانسانية وقد توصل الى حصر ست عشرة صفة مميزة (١) واضاف علماء آخرون لها عدداً اخر . ولكنا سنحصر بحثنا هنا في أهم تلك الصفات فقط .
وسنعمل في أثناء ذكرها على تجنب التسميات العلمية الدقيقة لانها لن تؤدي المعنى المطلوب منها عند محاولة ايجاد مرادفاتها باللغة العربية ولذلك سنحاول شرح كل منها شرحا يقربها الى الاذهان . هذا من ناحية أما من الناحية الاخرى فاننا سنشير عند ذكر كل من هذه الخصائص فيما اذا كانت بالفعل علاقة فارقة بالنسبة للغة الانسان أم ان التجارب الحديثة قد اثبتت أنها احدى الظواهر المتوفرة في وسائل الاتصال التي تستخدمها مخلوقات اخرى وذلك لنعمل في النهاية على حصر ما هو خاص منها فعلا بلغة الانسان فقط (٢) .

---

(١) Charles Hocket : "The Problem of Universals in Language" in J. H. Greenberg (ed.) : Universals of Language, (Cambridge : Mass : MIT Press), 1968, pp. 1-29.

(٢)
a) Jean Aitchison : The Articulate Mammal (London : Hutchinson), 1976, pp. 36-50.

b) Russell & Russell : "Language and Animal Signals" in N. Minnis (ed.) ; Linguistics at Large (U.K. Paladin), 1973 pp. 161-185.

وسنبدأ ببحث اكثر هذه الصفات وضوحا للانسان العادي الا وهي ان **الانسان يستخدم الجهاز الصوتي للحديث والجهاز السمعي للاستماع اليها** . وهذه صفة لا تستدعي الشرح ولكنها تستحق التعليق عليها . فهل يقتصر الانسان على هذين الجهازين وعلى حاسة السمع فقط كوسائل للاتصال اللغوي ؟ هذا سؤال . اما السؤال الاخر فهو : هل هذه الصفة صفة مميزة للغة الانسان أم يشاركه فيها وفي استعمال الحواس الاخرى بعض المخلوقات الاخرى ؟

أما جواب السؤال الاول فهو أن الانسان يستعمل وسائل اخرى للتعبير عما يريد قوله واكثر هذه الوسائل وضوحا هي الاشارات (gestures) التي تعتمد على حاسة البصر كحركة الجسم بأجمعه أو حركة اليدين أو القدمين او تعبيرات الوجه ومكوناته المختلفة وخاصة العينين . وقد جعل لبعض هذهالاشارات نظام خاص يعوض تعويضا كاملا عن النظام اللغوي الصوتي كما هو حاصل في لغة الاشارة التي يستعملها الصم البكم في الولايات المتحدة ولغة الاشارة التي يستخدمها بعض الرهبان الممنوعين من الكلام بموجب مذهبهم الديني ناهيك عن لغة الاعلام (الرايات) التي يستعملها الكشافة وغيرهم ولغة الاشارات الضوئية التي تستعمل بين المراكب .

كما يستعمل الانسان حاسة اللمس لتكوين نظام لغوي كامل وذلك في الحالات التي يكون فيها أحد الافراد محروما من نعمة البصر أو من نعم البصر والسمع والنطق جميعا كما كان الحال مع **هيلين كيلر** التي لا بد ان الجميع قد سمعوا بها .

ومن الناحية الاخرى فان كثيرا من الحيوانات البرية والبحرية والطيور ، بالاضافة الى استخدامها للحواس الاخرى كاللمس والشم والبصر والذوق للاتصال فيما بينها ، تستخدم أيضا الجهازين الصوتي والسمعي اللذين يعتمد عليهما معظم البشر في الاتصال

والتعبير . ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو : هل هنالك فرق بين استعمال الانسان للتصويت وسيلة للتعبير اللغوي وبين استخدام باقي المخلوقات له ؟ ولكي نستطيع الاجابة عن هذا السؤال نرى من الضروري أن نميز بين استعمالين مختلفين للتصويت كوسيلة لغوية . فهنالك صوت يطلقه الانسان كرد فعل مباشر لمؤثر ما كأن نطلق الصيحة « آه » او « اخ » التي تدل دلالة مباشرة على الالم والتي تتشابه الى حد كبير في المجتمعات اللغوية المختلفة . فالصيحة هذه **اشارة** مباشرة بسيطة لان العلاقة بينها وبين ما تدل عليه وهو **الالم** علاقة مباشرة واضحة كل الوضوح . أما عندما تتحدث الى صديقك او طبيبك فتشكو له من الم في رأسك مثلا فان كلمة **الم** لا تدل دلالة مباشرة على ما تشعر به ، بل هي **رمز** صوتي اصطلح عليه المجتمع العربي للدلالة على هذا النوع من الشعور . والرموز التي تدل على نفس المعنى في لغات المجتمعات الاخرى مختلفة تماما من الناحية الصوتية ، كما ان في اللغة العربية نفسها مرادفات كثيرة لهذه الكلمة لا تتفق معها من ناحية الصوت بأي شكل من الاشكال . بالاضافة الى هذا فان كلمة **الم** تتالف من ثلاثة اصوات مفردة او على الاصح من خمسة أصوات اذا احتسبنا الاصوات التي نعبر عنها **بالحركات** باللغة العربية **كالفتحة** في هذه الحالة . وكل من هذه الاصوات المفردة لا معنى له البتة بحد ذاته ، ولكننا **نركب** من الاصوات المفردة التي يستخدمها مجتمع لغوي معين كلمات اصطلح ذلك المجتمع على دلالاتها .

والسؤال الان هو : لاي نوع من الاصوات تنتمي أصوات الحيوانات والمخلوقات الاخرى ؟ هل تنتمي لفصيلة الاشارة البسيطة المباشرة ام لفصيلة الرمز الصوتي المركب ؟

لقد كان معظم العلماء يعتقدون حتى وقت قريب ان تصويت الحيوانات من النوع البسيط المباشر ولكن الدراسات الحديثة

دحضت هذا الاعتقاد . فقد وجـد ان بعض لغـات (١) الحيوان والطيور تتألف من أصوات مفردة يزيد عدد بعضها عن تلك التـي تستعملها بعض المجتمعات البشرية ، فالمجتمعات البشرية المختلفة تستخدم ما بين أحد عشر وسبعا وستين صوتا مفردا . ففي اللغة الانجليزية مثلا ما يقرب من ٤٥ صوتا وفي اللغة الايطالية ٢٧ صوتا وفي اللغة العربية حوالي ٤٠ صوتا بينما لا يوجد في لغة سكان جزر هاواي اكثر من ١٣ صوتا مفردا . اما لغات الحيوانات والطيور فان في لغة الطيور المختلفة ما بـين ١٢ و ٢٥ صوتا وفي لغـة الحيوانات الثديية الدنيا ما بين ٧ و ٣٦ وفي لغة الدلفين ما بين ٧ و ١٩ وفي لغة القرود المختلفة ما بين ١٠ و ٣٧ صوتا مفردا . فالفرق اذا في عدد الاصوات المفردة بين الانسان والحيوان ليس شاسعا ، بل أن في لغات بعض الحيوانات عددا من تلك الاصوات المفردة يفوق ما هو متوفر في لغات المجتمعات البشرية كما هو واضح في الاحصاءات المذكورة سابقا (٢) .

ولكن هذا الاكتشاف ليس هاما بحـد ذاته . بل الاهم هو كيفية دلالة تلك الاصوات على المعاني ، فهل هي دلالات مباشرة أم هي أشبـه بالاصوات المفردة عنـد الانسان التـي ليس لها دلالة مباشرة ؟ ثم هل يمكن للحيوان ان يركب من تلك الاصوات رموزا تدل دلالة غير مباشرة على المعنى المقصود ؟

والجواب عن هذين السؤالين هو ان اصوات الحيوان تدل في معظم الحالات دلالات مباشرة بسيطة معظمها تتعلق بالمشاعر أو العواطف من خوف والم وسرور وتودد ومـا الى ذلك ، مع أن بعضها يدل أيضا ــ كما هو الحال في لغة البشر ــ على المحيط أو البيئة وما يتعلق منها بالحياة والمعيشة كالدلالة على اقتراب خطر

---

(١) سنستعمل لفظة لغة للاشارة الى وسائل الاتصال عند المخلوقات الاخرى غير البشرية تجاوزا وتسهيلا للتعبير عما نريد قوله .

(٢) انظر : Russell and Russell, op-cit., p. 163.

أو توفر الغذاء وما الى ذلــك . الا انه تبين أيضا ان عددا مــن الحيوانات والطيور والحشرات تستطيع أن تركب من هذه الاصوات المفردة او منها ومن وسائل الاشارة الاخرى أو من وسائل الاتصال الاخرى غير الصوتية وحدها ما يمكن ان نسميها مفردات او جملا للتعبير عن معنى مركب لا تستطيع الاصوات المنفردة ان تعبر عنه . وقــد أثبت ذلــك الاستاذ بطــرس مارلــر (Peter Marler) المتخصص بدراسة سلوك الحيوان بجامعة روكفلر ـ فيما يتعلق بالطيور ، وبين الفرق في الدلالة بين ما اسماها بالصيحات المنفردة وبين الغناء المركب المؤلف مــن صيحات مختلفة (١) . كما لاحظ علماء اخرون أن أحد أنواع القرود يعبر عــن التهديد بصــوت معين مقرون بحركات جسمانية اخرى كهز الرأس ورفع الحاجبين واسدال الجفنين وفتح الفم بدون اظهــار الاسنــان . وبما اننــا سنبحث هذه النقطة ثانية فسنقتصر هنا على القول ان استعمال التصويت او الحواس الاخرى ليس صفة خاصة باللغة البشــرية بل تشاركه فيها مخلوقات اخرى .

أما **الصفة الثانية** التي يعتقد أنها لغة البشر فهي ما اشرنا اليها سابقا باسم **الاصطلاحية** او **التواضعية** والمقصود بها هو مــا ذكرناه قبل قليل من أن أصوات المفردات لا تدل على معانيها اي انه ليست هنالك صلة مباشرة بين كلمة **رجل** مثلا والمخلوق الذي تدل عليه الكلمة ، وأن الكلمات التي تدل على نفس المخلوق في اللغات المختلفة يختلف بعضها عن بعض قليلا او كثيرا بحسب العلاقــات الاسرية بين اللغات . .

وعلى الرغم من ان في كل لغة عددا محدودا من الكلمات التي يوحي صوتها بمعناها ، ومن أن الشعراء بشكل خاص يستفيدون

---

(١) انظر : Peter Marler. "Speech Development and Bird Song" in : G. Miller (ed.) : Psychology and Communication (Voice of America), 1974, pp. 83-93.

من هذه الظاهرة فيحاولون ان يجعلوا اصوات المفردات والعبارات اصداء للمعاني التي تعبر عنها الا أن من المسلم به بين علماء اللغة الان ان لا علاقة بين الصوت والمعنى في الاغلبية العظمى من مفردات اية لغة من لغات الارض .

اما في عالم الحيوان فان الملاحظ عموما بأن هنالك علاقة وثيقة بين الصوت او الاشارة التي يستخدمها الحيوان والرسالة التي يريد بثها . ومع ذلك فقد لوحظ أن هنالك بعض الاصوات او الاشارات الحيوانية التي لا علاقة لها بالرسالة المقصود ايصالها . فهنالك بعض الطيور المائية التي تتعرض للتهديد من جانب طيور مثلها وفي مثل هذه الحالة يتخذ الطير المهدد وضع الاستعداد للقتال فيرفع جناحيه كما يرفع راسه فيستقيم عنقه بينما يكون منقاره متجها الى اسفل فيقابله الطير الاخر بوضع مشابه وربما يبدأ القتال فعلا أو ينسحب المعتدي . ولكن الطير المهدد ربما عبر عن استعداده للقتال بطريقة اخرى تماما ، وذلك بأن يبدأ بنزع بعض الاعشاب القريبة منه وكانه سيستعملها ليبني عشا له . وعلى الرغم من أن هذه الحركة لا تدل على الاستعداد للقتال فان الغريم عادة ما يفهم الرسالة وينسحب طالبا النجاة .

خلاصة القول اذا ان هذه الصفة الثانية التي تميز لغة البشر رغم قلة توفرها في لغات الحيوانات ، لا تبدو وصفة مميزة للغة الانسان دون غيره من المخلوقات .

اما **الصفة الثالثة** فهي أن مفردات لغة الانسان تستطيع أن تشير الى أشياء محسوسة في عالم الواقع كما يمكنها أن تشير الى الافعال التي يؤديها الانسان أو غيره من المخلوقات ، وبامكانها ايضا **أن تعبر عن الافكار الذهنية المجردة** . بالاضافة الى ذلك فان باستطاعة الانسان ان يعمم الاسم مثلا على جميع الاشياء المتشابهة في الجوهر المختلفة في التفاصيل ـ فكلمة **صندوق** مثلا تشمل جميع أنواع الصناديق سواء كانت كبيرة ام صغيرة ، مكعبة الشكل أم

مخروطية ، مصنوعة من الخشب او الورق او المعدن الخ وهذا ينطبق على الافعال ايضا . فهل هذه صفة متوفرة في لغة الحيوان ؟ ان صعوبة المقارنة هنا تكمن في عدم امكاننا تفسير ما تقصده الحيوانات باصواتها المختلفة ، فهل يعني الصوت المعين الذي يطلقه القرد مثلا عندما يرى ثعبانا ، هل يعني « ثعبان » او « خطر » او « احذر الثعبان » أو انه مجرد صيحة منبهة لخطر معين ؟ هذا ما لم يهتد العلماء المختصون الى تفسيره بعد ، مع أنهم استطاعوا ان يميزوا بين صيحات مختلفة كل منها تنذر بخطر يختلف عن الاخر . ولهذا فمن الصعب علينا ان نؤكد او ننفي توفر هذه الصفة في لغة الحيوان . ثم هنالك **صفة رابعة** وهي أن اللغة البشرية المستخدمة في مجتمع معين يتوارثها الخلف عن السلف وانه حتى لو كان الاستعداد لاكتساب اللغة امرا بيولوجيا فطريا الا انه لا بد للطفل من مجتمع يعيش فيه ليكتسب اللغة فعلا ، فاذا عاش منفردا فلا لغة له على الاطلاق . اما بالنسبة للحيوانات فان الامر يختلف من نوع الى اخر وحتى من فصيلة الى اخرى داخل النوع الواحد . وقد دلت التجارب العديدة التي اجريت على الحيوانات والطيور ان بعض لغاتها وراثية كليا بينما بعضها الاخر جزء منه موروث والاخر مكتسب بينما النوع الثالث لغته كلها مكتسبة كما في غناء القبرة مثلا .

ان الفرق غير واضح تماما بالنسبة لهذه الصفة بين الانسان والحيوان ، خاصة ان البحث جار على قدم وساق في الوقت الحاضر لمعرفة نوع الاستعداد الفطري او القدرة الفطرية التي تخلق مع الطفل الوليد . ولكن يمكن القول بوجه عام ان الوراثة تلعب دورا اكثر بالنسبة للغة الحيوان منها في لغة البشر .

اما الخاصية او **الصفة الخامسة** فقد سبقت الاشارة اليها وهي ما تسمى **بالازدواجية** ومعناها أن الاصوات المنفردة في لغة الانسان لا معنى لها بحد ذاتها ، كحروف **الصاد والياء والفاء** مثلا الا انها عندما تركب بشكل معين فتتولد عنها كلمة **صيف** مثلا

يصبح لها معنى وان كان هذا المعنى اصطلاحيا لا طبيعيا . فهل هذه الصفة خاصة بلغة الانسان ؟

لقد اثبت العلماء المختصون أنها ليست كذلك ، لانها موجودة في اغاني بعض الطيور التي تتألف عادة من أصوات منفردة لا معنى لها بحد ذاتها ، ولكنها عندما تتصل معا بنماذج مختلفة يصبح بامكانها تأدية رسائل مختلفة ايضا .

وهنالك **صفة سادسة** تبدو اهم من سابقاتها وهي أن **باستطاعة لغة البشر أن تشير الى أشياء واحداث بعيدة عن المتكلم زمانا ومكانا** . فيمكن الاشارة الى أشياء غير موجودة في المحيط القريب وغير منظورة أو ملموسة او مسموعة او محسوسة ويمكن ان تبعد آلاف بل ملايين الاميال عن مكان المتكلم . كما أن اللغة يمكن أن تشير عن طريق الافعال الى الزمن الماضي او المستقبل غير المنظور . فهل بامكان لغة الحيوان أن تؤدي هذه الوظيفة ؟ من الصعب الاجابة عن هذا السؤال بشكل محدد الا في حالة النحل . فعندما تكتشف احدى النحلات مصدرا للرحيق فانها تعود الى الخلية وتقوم برقصات تختلف باختلاف بعد ذلك المصدر واتجاهه ويتمكن رفاقها من معرفة الاتجاه والمسافة التي يمكن أن تمتد الى عشرات الاميال ونوع الزهرة التي سيبحثون عنها ، ومن ثم يتجه سرب النحل الى المكان المحدد ليجد مطلبه فعلا . فهنا ايضا ، على الرغم من أن الرسالة التي تبعث بها النحلة بسيطة ومحددة ، الا أنها تتمتع بهذه الصفة التي نتحدث عنها ، ولذلك فلا يمكننا القول أن هذه الصفة خاصة بلغة البشر فحسب .

سنكتفي هنا بذكر **صفة اخيرة** اثارها تشومسكي في نظرياته اللغوية ربما كانت اهم هذه الصفات جميعا ، وقد ورد ذكرها مرارا في الصفحات السابقة الا وهي **مقدرة لغة البشر على الخلق او الابتكار** . والمقصود بهذه الصفة بايجاز شديد هو أنه بمقدور الانسان لا ان يركب من الاصوات المفردة مئات الالوف من المفردات

فحسب ، بل أن يركب من مفردات اللغة المختلفة عددا لا يحصى من الجمل واشباهها مما لم يسمع به من قبل وذلك حسب الموقف والظروف التي تتطلب الكلام . كما أن باستطاعته أن يفهم عددا لا حصر له من تلك الجمل واشباهها عندما يسمعها . وهو لا يفعل ذلك اعتباطا بل يلتزم بقواعد صوتية وصرفية ونحوية ومعنوية (نسبة الى المعنى) معقدة للغاية تصبح جاهزة لديه ، خلافا لما هو متوقع ، في فترة زمنية قصيرة للغاية لا تتعدى السنتين أو الثلاث في مطلع طفولته وتعد من حيث القصر معجزة فعلية اذا قورنت بما يبذله الفرد من الجهد والوقت في محاولة تعلم لغة اجنبية .

لقد دلت التجارب التي أجريت على الطيور وعلى النحل وعلى الدلفين بوجه خاص بأن التراكيب التي يستطيع أي من هذه المخلوقات تكوينها ، كل بوسيلة الاتصال الخاصة به ، تراكيب محددة . وقد امكن التوصل الى اكتشاف هذه التراكيب اللغوية وتحديد معانيها . ولم يتمكن العلماء من التثبت فيما اذا كانت لدى أي من هذه المخلوقات القدرة على تكوين تراكيب أخرى جديدة تتناسب مع ظروف تختلف عن تلك التي تتحرك تلك المخلوقات في اطارها . ولعل تجربة واحدة من تلك التجارب توضح ما نقول .

لقد قضى العالم الالماني **كارل فون فريش** عمره كله في دراسة لغة النحل فأحصى كل حركة من حركات تلك الحشرة ، وأجرى مئات التجارب على النحل الذي كان يحتفظ به حتى تمكن من وصف تلك اللغة وصفا تفصيليا مثيرا للغاية اشرنا الى بعضه في الصفحات السابقة . لقد تبين لذلك العالم بأن مملكة النحل مملكة في غاية التنظيم وان افراد تلك المملكة يتفاهمون بوسيلة خاصة للاتصال في كل ما يتعلق بحياتهم ومعاشهم بشكل دقيق واضح كل الوضوح حتى أيقن ان للنحل لغة لا تختلف بشيء عن لغة الانسان سوى انها تستخدم اكثر من حاسة واحدة لايصال الرسائل

المطلوب ارسالها . وقد وصفها وصفا دقيقا جدا يمكن للمهتمين في الموضوع الاطلاع عليه بالتفصيل فيما الف من الكتب .

لقد تبين لفون فريش مثلا أن النحلة تستطيع أن تدل زميلاتها على مكان الرحيق الذي يمكن ان يبعد ثلاثة عشر كيلو مترا عن الخلية ، وبحساب طول النحلة الى طول الانسان العادي مثلا نستطيع القول ان تلك المسافة تعادل حوالي الف كيلو متر بالنسبة للانسان . كما انه اكتشف ان لكل مسافة رقصة خاصة تؤديها النحلة وانها تاخذ في اعتبارها اثناء طيرانها ورقصها اتجاه المصدر وكذلك اثر قوة الريح على طيران النحلة الى ذلك المصدر . كما اكتشف ان النحلة تستطيع ان تدل على مصدر الرحيق حتى ولو كانت تؤدي رقصتها داخل الخلية ، اي في الظلام الدامس ، وفي اتجاه عمودي لا افقي . لقد كانت تلك الاكتشافات مذهلة حقا ومثيرة للعميق من التفكير والتأمل ، كما اكدت أن للنحل لغة تكاد تكون طبيعية حقيقية شبيهة جدا بلغة الانسان وان اختلفت في الوسيلة .

الا ان احدى التجارب خيبت الآمال الى حد كبير . وقد كانت التجربة بسيطة بحد ذاتها ولكن نتائجها كانت بالغة الاهمية . لقد اقام فون فريش احدى خلايا النحل على قاعدة من الاسمنت يقوم عليها برج للاسلكي . ثم اخذ عشر نحلات من تلك الخلية وصعد بها مسافة خمسين مترا داخل ذلك البرج الى ان اوصلها الى مصدر للغذاء مزود بمحلول السكر وتركها هناك . وبعد ان اكتشفت النحلات مصدر الرزق سارعت بالعودة الى اسفل البرج حيث الخلية واخذت تقوم برقصات معينة لمدة اربع ساعات كاملة الا ان سرب النحل اخذ يطير في جميع الاتجاهات حول البرج بشكل افقي ولم تصعد نحلة واحدة الى أعلاه مرة واحدة ، ولذلك لم يستطع النحل اكتشاف مصدر الرزق . وقد استنتج فون فريش من ذلك أن لغة النحل لم يكن فيها ما يدل على مفهومي « فوق » و « تحت » أو « اعلى » و « أسفل » وهما المفهومان الجديدان اللذان حاول فون

فريش أن يعـرف فيمـا اذا كان بامكان النحل ان يتكيف معهمـا ويدخلهما في لغته ، (١) وبناء على ذلك فانه لا يمكن اعتبار لغة النحل لغة حقيقية يمكن أن تعين على تكوين تراكيب جديدة غير معروفة سابقا كما هو الحال في لغة الانسـان .

لقد اجريت تجارب اخرى على الدلفينات استنتج منها في أول الامر ان لدى هذا الحيوان القدرة على الخلق او الابتكار اللغوي ، ولكن الحقيقة تكشفت بعد ذلك وتبين عدم وجود تلك القدرة .

الا ان التجارب التـي تجري علـى الدلفينات ذات المستوى العالي من الذكاء تقوم بها السلطات العسكرية الامريكية بسرية تامة نظرا لاهميتها في الحروب البحرية ولا يعرف العلماء خارج المؤسسة العسكرية ماذا يجري هناك بالضبط ولكن المعتقد أن العلماء هناك يقومون بتعليم الدلفينات على القيام بمهام معينة تستخدم القـدرة اللغوية الخاصة بها . (٢)

نخلص من كل ما سبق الى القول أنه ليس لدى اي من المخلوقات الاخرى غير البشرية لغة حقيقية تتوفر فيها جميـع المواصفات التي تتوفر في لغة الانسان . فبعضها تتوفر فيه بعض تلك المواصفات والبعض الاخر تتوفر فيه مواصفات اخرى ، الا أنها جميعا تبدو مقصورة على اطارات معينة لا تتعداها ، وليس في اي منها تلك المقومات التي تساعدها على خلق التراكيب التي تتطلبها المواقف الجديدة .

---

(١) انظر :

Karl von Frisch : The Dancing Bees, (Methuen), 1954, p. 139.

(٢) انظر :

Evans & Bastian : "Marine Mammal Communication", in H. T. Andersen : The Biology of Marine Mammals, (N.Y. Academic Press), 1969, pp. 432 ff.

فاللغة الحقيقية اذا ظاهرة خاصة بالانسان . الا ان ما دلت عليه الدراسات اللغوية الحديثة هو أن قواعد اللغة من صوتية وصرفية ونحوية ودلالية معقدة الى حد كبير جدا ، كما أن توافرها في ذهن الفرد يعطيه قدرة غير محدودة على أن يكون من عناصرها المختلفة المحدودة عددا لا يحصى من التراكيب تكاد تكون جميعها جديدة لم ينطق بها أحد من قبل ، هذا اذا استثنينا الاقتباس من مصادر معروفة كالكتب الدينية والاشعار وما اليها ، واذا استثنينا تلك التعابير المقننة التي تستعمل في مناسبات اجتماعية معروفة .

واذا كان الامر كذلك فهل يمكن لطفل أن يتمكن من تلك القواعد جميعا تمكنا يكاد يكون كاملا في سنتين أو ثلاث ، تمتد من سنوات عمره الاولى حتى الرابعة في المتوسط ، بحيث تصبح في ذهنه كمولد الكهرباء بامكانها توليد ما يشاء من الجمل في المواقف المختلفة — هل يمكن أن يتم ذلك كله عن طريق التعلم ، أي بالاستماع والمحاكاة ، كما يقول السلوكيون من علماء النفس ، أم أننا يجب أن نفترض خلفية لغوية فطرية يزود بها الخالق الطفل عند ولادته لتساعده على هذا ؟

لقد اتى تشومسكي بالنظرية الثانية وحاول ولا يزال يحاول ان يكتشف في اطار نظريته اللغوية الرئيسية مقومات تلك الخلفية الفطرية التي يدعوها **قدرة فطرية** (innate competence) ، مما أشرنا الى شيء ، منه فيما سبق من الكلام . وقد أثارت نظريته هذه كما اثارت نظريته اللغوية اهتمام عدد كبير من العلماء متنوعي الاهتمامات . واجريت ولا تزال تجرى مئات التجارب العلمية لاثبات أو تفنيد هذه النظرية . ولعل هذا هو ما يشغل بال العلماء بشكل رئيسي في الوقت الحاضر وبخاصة علماء النفس وعلماء ما يسمى بعلم النفس اللغوي أو علم اللغة النفسي . ونظرا لغزارة المادة وتنوعها في هذا المجال فربما كان افضل ما نفعله هو أن نذكر أهم النتائج لاحدث تلك التجارب وهذا ما سنحاول القيام به في الصفحات التالية .

٣ ـ هل اللغة طبع أم تطبع ؟

مع ان هذا السؤال قديم قدم ما وصل الينا من الحضارات الانسانية الا انه ظل موضوعا للتأملات الفلسفية المحضة في معظم الحالات ولم يثر على شكل علمي تجريبي الا في النصف الثاني من القرن الحالي كما ذكرنا سابقا .

ان من الواضح تماما أن اللغة بمعنى اللغة العربية أو الانجليزية أو الصينية مثلا ليست صفة أو غريزة أو قدرة وراثية تتطور وتنمو بمعزل عن المجتمع كما هو الحال بالنسبة للوقوف منتصبا على القدمين والمشي والتبول والنمو الجنسي مثلا . فقد اثبت اكتشاف عدد من الحالات (وكانت حالة او اثنتان منها في الشرق الاوسط) أن الفرد الذي يعيش منذ ولادته أو طفولته المبكرة جدا بمعزل عن المجتمع البشري يبقى بدون لغة او يكتسب لغة الحيوانات التي يعيش بينها . ولكن مثل هذه الحالات اثبتت ايضا أن بامكان مثل هذا الفرد ان يتعلم لغة مجتمع معين بسرعة اذا اكتشف وهو صغير السن ، ويبطىء في تعلمها كلما زاد عمره ، ولا يتمكن من تعلم اية لغة بعد سن معينة يقدرها العلماء المختصون بما بين الثانية عشرة والرابعة عشرة . (وسنأتي على شرح هذه الظاهرة في مناسبة قريبة) . ومعروف ايضا أن الطفل العربي اذا اخذ منذ نعومة اظفاره وعاش في المجتمع الفرنسي مثلا فانه يتقن تلك اللغة بنفس السرعة التي كان يمكن ان يتقن بها لغته العربية فيما لو عاش وترعرع في مجتمع عربي .

اذا لا يمكننا القول ان الطفل يولد مزودا بلغة معينة حتى ولو كانت تلك اللغة هي لغة آبائه واجداده ، او حتى القول بأنه يولد وعنده الاستعداد لتعلم لغة معينة بالذات . وفي نفس الوقت لا يجوز أن نسخر من سذاجة ذلك الفرعون المصري القديم الذي اراد ان يعرف اصل جميع لغات العالم فعزل طفلين وليدين عن المجتمع عزلا كاملا ومنع الخادم الوحيد المسؤول عن رعاية امورهما

من الكلام في حضرتهما تحت طائلة العقوبة ، وانتظر الى أن يكبرا ويبدأ احدهما بالنطق ، وتقول الرواية أن اولى الكلمات التي نطق بها احد الطفلين كانت كلمة « بيكوس » التي فسرها العلماء عندئذ بأنها الكلمة التي تستعمل في احدى مناطق شمال غرب تركيا وتعني « خبز » ، ومن ذلك استنتج الفرعون أن تلك اللغة هي أصل اللغات جميعا . ان المغزى الذي يجب استنتاجه من هذه التجربة (وهي تجربة علمية بالفعل) ليس ما توصل اليه الفرعون بالنسبة لاصل اللغات ، بل شيء أهم من ذلك بكثير ، وهو ان الطفل كان قد بدأ يصدر اصواتا مختلفة متعددة دون أن يسمع أصوات البشر[1] .

ومع اننا نعلم الان أن هذه الاصوات التي يطلقها الطفل خلال الفترة التي نسميها : **فترة المناغاة** لا معنى لها ، الا انها بتعددها وتنوعها وطرق تركيبها تدل دلالة واضحة على أن لدى الطفل على الاقل **استعدادا** لتعلم لغة بشرية . اذا نستطيع أن نستخلص من الملحوظات البسيطة السابقة أن لدى الطفل الوليد على الاقل استعدادا لتعلم اية لغة بشرية وانه يكتسب بالفعل لغة المجتمع الذي يعيش فيه ، وانه بعد سن معينة لا يستطيع اكتساب اية لغة بشرية على الاطلاق . ولقد كان الراي السائد الى ما قبل سنوات قليلة ليس بين الناس عامة فحسب بل وبين معظم العلماء ايضا بأن الطفل يتعلم لغة المجتمع الذي يعيش فيه عن طريق الاستماع والمحاكاة وبمساعدة مستمرة من الابوين ومن أفراد المجتمعين الصغير والكبير اللذين يعيش فيهما ، وكان كثير من الاهتمام موجها الى هذه المساعدة او التدريب . الا ان ما ذكرناه في الفصل السابق عن طبيعة اللغة المعقدة غاية التعقيد وعن السرعة المذهلة التي يتقن بها الطفل اهم مقومات اللغة وهي القواعد المختلفة كما أن التجارب والدراسات العديدة التي تجرى حاليا على لغة الاطفال في سنهم المبكرة جدا قد قلبت هذا الاعتقاد راسا على عقب . فلم يكتف العلماء المعاصرون بفكرة توفر الاستعداد الفطري عند الطفل

الوليد لتعلم اللغة البشرية بل أثبتوا أن لديه أكثر بكثير من مجرد استعداد فطري ، وقالوا بنظريات مختلفة كلها يؤدي الى نفس النتيجة وهي أن الانسان ليس مفطورا على تعلم اية لغة بشرية فحسب ، بل ان لديه **قدرات لغوية معينة** بعضها نيورولوجي (عصبي) وبعضها بيولوجي وبعضها الاخر عقلي . أما القدرات العصبية والبيولوجية فسنتحدث عنها في الجزء القادم من هذا الفصل واما القدرة العقلية فهي التي يكثر الخلاف حولها وتزداد التجارب لمعرفة كنهها . وهذه كلها هي الخلفية اللغوية التي تمكن الطفل من اكتساب اللغة بتلك السرعة المذهلة . كما أن هؤلاء العلماء مختلفي المشارب والتخصصات قد **الغوا** تقريبا من الافكار السائدة فكرتين هامتين :

اولهما : أن هنالك علاقة وثيقة بين مستوى الذكاء واكتساب الطفل للغة ما .

وثانيهما : ان هنالك فائدة كبيرة في التدريب الذي يقوم به الوالدان وبقية أفراد الاسرة والمجتمع الذي يعيش فيه الطفل وأن هذا التدريب يلعب دورا ايجابيا في سرعة ونوعية اكتساب للغة ذلك المجتمع .

كما أضافوا فكرة جديدة في غاية الاهمية وهي ان الطفل لا يكتسب اللغة وهو خالي الذهن ، بل انه يفعل ذلك بوعي كامل ويستعمل أساليب عقلية علمية تجريبية في أثناء تعلمه لغة مجتمع ما . فهو عنصر ايجابي متفاعل مع اللغة التي يتعلمها وليس اناء يصب المجتمع فيه قوالب جاهزة من تلك اللغة يغرف منها الطفل ما يشاء حين يشاء .

خلاصة القول من هذه المقدمة هي ان اللغة لا هي طبع كامل ولا تطبع كامل بل هي حصيلة الاثنين معا . وما دام الامر كذلك فان الامر يستدعي النظر في كل من هذين الامرين نظرة جديدة في ضوء النظريات الحديثة . فماذا يعنى العلماء المحدثون بأن لدى الطفل الوليد **قدرة لغوية فطرية ؟**

ثم هل توصل هؤلاء الى معرفة الطريقة التي يكتسب بهـا الطفل لغة ما ؟ هذان هما السؤالان الهامان اللذان سنحاول الاجابة عنهما في الصفحات التالية .

ونبدأ اولا بالاجابة عن السؤال الاول . ولكي نستطيع ان نفعل ذلك لا بد لنا من ان نعرض بايجاز شديد جدا وجهة نظر تشومسكي صاحب هذه النظرية في العصر الحديث . ثم نرى بعد ذلك ما الذي استطاع العلماء الاخرون اثباته أو دحضه من بنود أو مقومات تلك النظرية .

لقد اشرنا سابقا الى نظرية تشومسكي النحوية وذكرنا انه اتى بفكرة البنية الداخلية أو **الطبقة العميقة** لكل تركيب سواء كان جملة كاملة أو جزءا مترابطا منها والتي لا بد أن تتوفر في ذهن المتكلم قبل أن يحولها الـى رموز صوتية وينطق بهـا على شكل البنية الخارجية او الظاهرة . وأن هذه البنية الداخلية تتألف من وحدات المعنى المتمثلة في وحدات كلامية منفردة بعضها يعبر عما تعبر عنه المفردات اللغوية المعروفة وبعضها يعبر عن معان نحوية كالزمان والمكان والافراد والجمع وما اليها . وأن الفرد قبل أن يتكلم فعلا يستخدم قوانين أو قواعد خاصة (دعاها قواعـد التحويل) وذلك لتحويل تلك البنية الداخلية الى بنية خارجية هي الكلام المنطوق فعلا . واضـاف تشومسكي الى ذلك فرضية هامة لا تزال موضع بحث وجدل كبيرين وهي أن البنيات الداخلية متشابهة في جميع لغات العالم اي انها تدخل ضمن ما يسـمى حاليا **بالعموميات اللغوية** اي العناصر المشتركة بين جميع اللغات . ونحن نذكر هذا كله لسبب هام جدا يتعلق بنظرية تشومسكي بالنسبة لنظرية القدرة اللغوية الفطرية المتوفرة لدى الطفل الوليد . فما هي هذه النظرية ؟ (1) .

---

(1) See : N. Chomsky : Aspects of the Theory of Syntax, (Cambridge : Mass., M.I.T. Press), 1965.

سنحاول تبسيط هذه النظرية المعقدة بحيث لا تبدو مغلقة على الفهم وان كان هذا التبسيط سيبتعد قليلا عن الدقة العلمية الكاملة ويتجاوز بعض الجوانب الهامة من النظرية ، ويمكن تلخيص هذه النظرية فيما يلي :

اولا : انه لا بد للطفل الذي يستطيع أن يستخلص من ذلك الخليط العجيب من الكلام الذي يسمعه من حوله ــ والذي يشبه شبها كاملا اية لغة أجنبية نسمعها دون أن نعرف منها شيئا ــ تلك القواعد المعقدة التي تحكم نظام تلك اللغة فتجعل منها نماذج واضحة مفهومه ، لا بد لذلك الطفل ان يكون مزودا بجهاز عقلي فطري باستطاعته تكوين الفرضيات المتزايدة في التعقيد عن قواعد تلك اللغة وأن هذا الجهاز لا يمكنه أن يقوم بشكل سليم الا اذا كانت لديه معرفة فطرية بتلك العموميات أو الاسس العامة التي تحكم انظمة اللغات **جميعا** .

ثانيا : ان هذه العموميات أو الاسس اللغوية العامة تتألف من نوعين :

النوع الاول قال به العلماء من قبل تشومسكي وهو يشمل **المحتوى اللغوي أو المادة** التي تتألف منها جميع اللغات مثل مجموعة الاصوات اللغوية الممكنة ومثل اجزاء الكلام الرئيسية كالاسماء والافعال والصفات ومثل المفاهيم العامة كالزمان والمكان وما اليها .

اما النوع الثاني ــ وهو الاهم في نظر تشومسكي فانه يشمل **الشكل اللغوي** أي العلاقة الصرفية والنحوية او الطريقة التي بموجبها تتصل وحدات القواعد اللغوية بعضها ببعض والقيود التي تحكم تلك العلاقات .

ثالثا : (وهذا الجزء من النظرية خاص بتشومسكي ومختلف في أمره حاليا ومرتبط ارتباطا وثيقا بنظريته اللغوية الخاصة) . أن الطفل الوليد يعلم بشكل آلي أن في كل لغة بنيتين : احداهما داخلية

والاخرى ظاهرية كما يعرف تلك القواعد التي تحول الاولى الى الثانية . وأن هذه المعرفة بشكل خاص هي التي تساعد الطفل على تكوين فرضيات معقولة مبنية على الكلام الذي يسمعه والمؤلف من خليط غير مفهوم من الاصوات . وأن هذه الفرضيات تكون ساذجة في أول أمرها ثم يبدأ الطفل بتعديلها تدريجيا بحيث يتوصل في النهاية الى القواعد الصحيحة والكاملة التي تحكم نظام تلك اللغة التي يسمعها حوله .

لقد فتحت هذه النظرية وخاصة الجزء الثالث منها الباب على مصراعيه لابحاث لا زال العلماء يقومون بها حتى الآن . وهم يحاولون الاجابة على الاسئلة التالية :

اولا : هل صحيح أن الطفل يقوم بتكوين الفرضيات على الكلام الذي يسمعه الى أن يتوصل الى القواعد الصحيحة الكاملة للغة ؟

ثانيا : هل لدى الطفل بالفعل ما يقول به تشومسكي من معرفة مسبقة بالعموميات أو الاسس المشتركة بين اللغات بما فيها بنية الكلام الداخلية وقواعد التحويل ؟

ثالثا : اذا ثبت هذا فانه يعني أن لغة الاطفال في سنواتهم الاولى لا تتألف من مجرد أصوات ومفردات مبعثرة بل أن لها في كل فترة تركيبا مرحليا يمكن التوصل اليه ومعرفته . فهل هذا صحيح أيضا ؟

لقد امضى عدد كبير من المتخصصين بعلم اللغة وعلم النفس وعلم اللغة النفسي السنوات الخمس عشرة الماضية وهم يدرسون لغة الاطفال منذ اللحظة التي يولدون فيها الى ان يصبحوا متمكنين من اللغة او من قواعدها بشكل خاص وقد غطت هذه الدراسات أمريكا وأوروبا بأسرها . وكانت معظمها منصبة على محاولة الاجابة عن الاسئلة المذكورة قبل قليل وبخاصة السؤال الثالث منها فقام

عدد منهم بدراسة لغة الطفل في الفترة التي ينطق فيها كلمات مفردة فقط . ومن هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر فيجوتسكي من روسيا (١) ماكنيل من جامعة تشيكاغو (٢) وبلوم من جامعة كلومبيا في الولايات المتحدة الامريكية (٣) . ومع أن بعضا من هؤلاء العلماء رأى في الكلمات المفردة تعبيرا عن بنيات أو تراكيب نحوية اعتبروها جملا كاملة الا انه كان من الصعب عليهم نظرا لصعوبة هذا النوع من الدراسة ان يحددوا تلك الجمل التي تعبر عنها الكلمات المفردة . كما أن وجهات النظر بين العاملين في هذا الحقل كانت متباينة جدا لدرجة لا يمكن الاعتماد على أي منها اعتمادا كبيرا .

ولكن البحث كان أكبر جدوى في الجمل المؤلفة من كلمتين والتي يستعملها جميع أطفال العالم بعد فترة الكلمات المفردة ، في الجمل الاطول من كلمتين وذلك في محاولة لمعرفة ما اذا كان لهذه الجمل قواعدها الخاصة بها أم انها مجرد محاكاة غير كاملة للغة البالغين .

لقد كانت دراسة جمل الاطفال المؤلفة من كلمتين أوضح دلالة من النظر في الكلمات المفردة . ولعل أدق تلك الدراسات وأكثرها قيمة ما قامت به لوي بلوم (٤) التي اجرت تجاربها على اطفالها

---

(١) Vygotsky, L.S. : Thought and Language, (Cambridge : Mass., M.I.T. Press), 1962.

(٢) NcNeill, D. : The Aquisition of Language, (N.Y. : Harper and Row), 1970.

(٣) Bloom, L. : One Word at a Time, (The Hague : Mouton), 1973.

(٤) Bloom, L. : Language Development, (Cambridge : Mass., M.I.T. Press), 1970.

الثلاثة بطريقة مستمرة ودقيقة للغاية وقد اتضح لها بما لا يدع مجالا للشك أن للجمل المؤلفة من كلمتين نظاما نحويا ثابتا يعتمد على قواعد مقررة وان الطفل يعبر بواسطتها عن علاقات معينة كعلاقة الفاعل والمفعول به وعلاقة المكان وعلاقة الملكية بنفس نظام ترتيب الكلمات المتعارف عليه في اللغة الانجليزية التي يتكلمها البالغون . وهذا يدل على ان الطفل يعرف ان اللغة تحكمها قواعد معينة بدليل انه يعبر عن العلاقات اللغوية بشكل ثابت بينما تدل الاخطاء التي يرتكبها على الفرضيات التي يكونها والتي يعدلها فيما بعد . كما أن من الواضح ان الاطفال في هذه السن المبكرة جدا (بين العام الاول والرابع) خلاقون في اللغة التي يستعملونها بدليل استخدامهم تراكيب لم يسمعوها من قبل . ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو : ما دام الامر كذلك ، فهل هذا دليل على أن لدى الطفل معرفة فطرية بمواصفات الجملة ؟ وهنا تختلف الآراء فالبعض يؤكد ذلك ، ولكن كثيرين اخرين ممن اجروا تجاربهم في السنوات الثلاث أو الاربع الماضية يعتقدون بأن معرفة الطفل لا تتصل بالعلاقات اللغوية نفسها بقدر اتصالها بالمفاهيم أو المعاني التي تعبر عنها تلك العلاقات : **كالزمان والمكان والملكية والرغبة** وما اليها .

وسيبقى هذا السؤال مفتوحا لفترة من الزمان الى أن تجرى عليه التجارب الكافية وسيترك الاتجاه الجديد اثره على نوع قواعد اللغة التي سيصار الى صياغتها والتي ربما تعتمد في الاساس على المعاني ، وهو اتجاه بدأ يقوى ويتسع مداه في الآونة الاخيرة .

أما الدراسات التي جرت على الجمل التي تزيد عن كلمتين (والتي اشهرها ما اجراه ولا يزال يجريه عدد من العلماء العاملين في جامعة هارفارد على الاطفال الثلاثة **آدم وحواء وسارة** الذين ينتمون الى ثلاث أسر مختلفة والذين اصبحوا مشهورين في أوساط

المهتمين بعلوم اللغة) ، (١) فقد اكدت تأكيدا كاملا ان نظرية تشومسكي صحيحة فيما يتعلق بكون الطفل لا يكتسب اللغة عن طريق محاكاة البالغين بل انه يفعل ذلك عن طريق تكوين الفرضيات واستعمال قواعد خاصة به يجرى تعديلها باستمرار الى أن تشبه القواعد التي تحكم لغة الكبار ، وانه يعلم بشكل آلي أن اللغة محكومة بقواعد معينة عليه اكتشافها . وقد اضافت الدراسات الجديدة معلومات اضافية لتلك النظرية وهي أن فرضيات الاطفال تتشابك ، اي أن الطفل لا يتخلى عن فرضية قديمة بمجرد اكتشاف فرضية جديدة بل يتمسك بالقديمة الى فترة تطول أو تقصر وأن الاخطاء التي يرتكبها يمكن أن تعزى الى ذلك التشابك .

بقي علينا الان ان نفحص ذلك الجزء من نظرية تشومسكي الذي يقول ان الطفل يكتسب اللغة بكفاءة وسرعة بالغتين لان لديه معرفة فطرية بالعموميات او **الاسس العامة** التي تقوم عليها جميع لغات الارض والتي يقول تشومسكي انها تشمل فكرة **البنية الداخلية والبنية الخارجية** لكل تركيب لغوي كما تشمل **القواعد** التي تحول الاولى الى الثانية والتي أشرنا اليها في أكثر من موضع في هذا الكتاب .

لقد دلت التجارب والابحاث (التي لم نستطع أن نشير الى أي منها بشيء من التفصيل لضيق المقام) أن الطفل يولد ولديه فكرة عن طبيعة اللغة وانه سرعان ما يتبين عندما يبدأ الكلام انه يعرف مسبقا أن اللغة وانه سرعان ما يتبين عندما يبدأ الكلام انه وكأن الطفل يعلم مسبقا بأن اللغات مركبة بطريقة هرمية وهذا يعني أننا بدلا من أن نقول مثلا :

---

(١) See, for example : Brown, R. : A First Language, (London : Allen and Unwin), 1973.

رايت / الرجل
نستطيع أن نقـول :
رايت / الرجل الشجاع
أو : رايت / الرجل الشجاع القوي الجسم
أو : رايت / الرجل الشجاع القوي الجسم الذي كان يصارع الثـور .

وأمثالها من الجمـل التـي تستطيـع أن تمـتد الى ما لا نهـاية من كل طرف من أطرافها . اي اننا نستطيع أن نستعمل كلمة واحدة فقط أو عددا غير محدود من الكلمات المترابطة ايضا في كل اطار من اطاري هذه الجملة وغيرها من الجمل . كما تبين للدارسين أيضا أن لدى الطفل ادراكا فطريا بأن هنالك عمليات لغوية تعتمد اعتمادا كاملا على التركيب اللغوي ، اي اننا لا نستطيع تحريـك الكلمات المفردة في الجملة من موضع الى اخر على هوانا ، ولكننا نستطيع تحريك الاطارات التي يحتوى كل منها على مجموعة من الكلمات المترابطة بموجب قوانين وقواعد لغوية معينة .

هذه كلها نتائج هامة للغاية ، الا اننا لم نجب بعـد عـلى السؤال الثاني الذي ذكرناه في بداية هذا الكلام وهو : هل توصل العلماء الى اكتشاف الطريقة التي يكتسب بها الطفل اللغة وينميها ، وكيف يتم ذلك بالضبط ؟ كما نريد أن نعرف أيضا لماذا يتبع الاطفال الذين يعيشون في مجتمع لغوي واحد خطوات متشـابهة اثناء تعلمهم لغة ذلك المجتمع ، بعد أن أثبتت الدراسات ذلك وبنيت تلك الخطوات بتفصيل كبير ؟

ان ذلك الجزء من نظرية تشومسكي الذي أشرنا اليه قبل قليل لم يستطع أن يقف على قدميه امام الدراسات التي أجريت عليه ، وخاصـة تلك التي اجريت ولا زالت تجرى على اطفال جامعة هارفارد : **آدم وحواء وسارة** ، بل هي تكاد تكون قد دحضت تلك النظرية بشكل قاطع . فقد ثبت مثلا ان الاطفال يكتسبون المقدرة على صياغة أنواع من الجمل تقول نظرية تشومسكي أنها تحتاج

الى قواعد تحويلية معقدة للغاية وذلك بسرعة وسهولة أكبر من اتقانهم لجمل ابسط بكثير في نظره . كما أنه تبين بوضوح ان الطفل لا يفكر اثناء اكتسابه اللغة بما اطلق عليه تشومسكي **البنية الداخلية أو العميقة للجملة** بل هو يبحث عن انماط تتبع نظاما متناسقا في **البنيات الخارجية للجمل** . فهو يتعلم مثلا استعمال الجملة المبنى فعلها للمعلوم منفصلة عن تلك المبني فعلها للمجهول ولا يكتشف العلاقة العميقة بينهما الا بعد مدة طويلة ، مع أن المفروض أن اساس الجملتين واحد . وهذا ايضا ينطبق على أشكال أخرى من الجمل كالمثبت والمنفي والاستفهام وبعض التراكيب اللغوية الاخرى .

وبناء على ذلك فقد انطلق العلماء يبحثون عن الاجابات عن الاسئلة السابقة بطرق اخرى اتت حتى الان بنتائج افضل . وأهم هذه الطرق ثلاث :

اولاها : دراسة المراحل التي يمر بها الطفل في تكوين جملة ، من أبسطها اي تلك التي تتألف من كلمتين الى أن يتوصل الى الشكل النهائي الصحيح لها ، ومحاولة اكتشاف الاستراتيجية أو الخطة العامة ــ ان وجدت ــ التي يتبعها الطفل للوصول الى ضالته .

ثانيتها : دراسة نوعية الاخطاء التي يرتكبها الطفل اثناء تطور مقدرته اللغوية .

اما الثالثة فهي : تحليل لغة الاطفال الذين يتعلمون لغتين في آن واحد .

وقد اثبتت الطريقة الثالثة انها افضل الطرق جميعا وعلى الرغم من أن الابحاث لا زالت مستمرة في هذا المجال الا أن الباحثين اخذوا يبتعدون عن آراء تشومسكي الخاصة بهذه الناحية ويستبدلونها بفرضية اخرى تقول ان الطفل يولد مزودا بعقل نشيط ذي تركيب معقد جدا وربما كان مزودا بما يمكن ان يسمى

جهاز لحل الالفاز يستطيع الطفل بوساطته أن يستخلص قواعد اللغة المعقدة (التي ليس من الضروري ابدا أن تكون من نوع القواعد التي اقترحها تشومسكي) من ذلك الخضم المتلاطم من الاصوات والعبارات التي يتعرض لها الطفل في سنواته الاولى . والامر مع ذلك لا زال بحاجة الى المزيد من البحث والتقصي والتجربة . الا ان الكل مجمع الان أن الطفل لا يولد وذهنه صفحة بيضاء ، كما انه لا يكتسب اللغة عن طريق الاستماع والمحاكاة فحسب .

لقد قمنا حتى الان بعرض ما تم من الابحاث في السنوات الاخيرة بالنسبة لطبيعة اللغة ، وبينا كيف ثبت للدارسين أنالطفل يولد ولديه مقدرة من نوع معين على اكتساب أية لغة من اللغات ، وقد كانت معظم تلك الابحاث تعتمد على الجانب اللغوي فقط . فهل هناك دليل بيولوجي أن الانسان لديه مثل تلك القدرة بينما لا يتوفر مثلها لدى عالم الحيوان ؟ .

هذا هو الموضوع الذي سنتعرض له في الصفحات التالية .

● ● ●

٤ ـ الدليل البيولوجي على المقدرة الفطرية (١)

لقد حفزت الدراسات والتجارب اللغوية التي اشرنا اليها سابقا ، والتي تبينت بوضوح تام أن اللغة بمفهومها الحقيقي قدرة فطرية خاصة بالجنس البشري ، حفزت علماء الاحياء (البيولوجيا) والتشريح والاطباء ، على البحث فيما اذا كانت هنالك ظواهر بيولوجية تؤيد القول . ومن أشهر أولئك الباحثين الاستاذ **اريك لنبرغ** (Eric Lenneberg) من جامعة هارفارد ، وأن كان هذا اسما واحدا فقط من بين اسماء كثيرة لعلماء ركزوا اهتمامهم على هذه الناحية .

يقول لنبرغ (٢) ان الاسباب التي دفعته هو وغيره الى أن يتوقعوا ان تكون بعض الصفات البيولوجية المحددة متوفرة في الانسان ولها علاقة مباشرة باللغة هي :

(١) **وجود بعض العلاقات بين اللغة والنواحي الفسيولوجية والتشريحية الخاصة بالانسان** . نقد تزايد عدد الادلة التي تشير أن للسلوك اللغوي علاقات عديدة بالخصائص المرفولوجية (أي التشكيلية) والوظيفية لجسم الانسان منها العلاقة بين اللغة وتركيب جهازي السمع والنطق ، ومنها العلاقة بينها وبين الدماغ والتخصصات التي اكتشفت في أجزائه المختلفة ، وبينها وبين بعض مراكز التنسيق بين

---

(١) ان اهم كتاب حديث يبحث علاقة اللغة بالناحية البيولوجية هو :
Eric Lenneberg : Biological Foundations of Language (N.Y. Wiley), 1967.

(٢) انظر المرجع التالي :
Eric Lenneberg : "A Biological Perspective of Language", in Lenneberg (ed.) New Directions in the Study of Language (Cambridge, Mass., M.I.T. Press), 1968, pp. 65-85.

الحركات العضلية الخاصة بالنطق ، وخاصية السيطرة على التنفس ليتمكن الانسان من مواصلة الكلام فترة طويلة ، وخصائص اخرى تتعلق بالحس والادراك اللازمـة للادراك اللغوي .

(٢) **الجدول الزمني للتطور اللغوي** : فقد اصبـح من الواضح تماما أن البدء بالنطق والسلوك اللغوي يأتي حسب جدول زمني دقيق ويتطور بموجب ذلك الجدول في جميع اطفال العالم مهما اختلفت لغاتهم وحضاراتهم . كما أن أول مـا يتعلمه الطفل لا يتألف من مفردات اللـغة بل من بعـض المبادىء المتعلقة بتصنيف تلك المفردات الى اسر . فالكلمات الاولى التي يكتسبها الطفل لا تشير الى اشياء أو أحداث معينة ، بل تشير الى مجموعات او اسر . فكلمة كرسي مثلا تشير ، بالنسبة للطفل ، الى أسرة الكراسي جميعا بغض النظر عن أحجامها والوانها والمواد المصنوعة منها ، وهكذا . كما أن الطفل يكتسب أولا الاسس التي بموجبها يمكنه تركيـب الاصوات بعضها مع بعض بحيث تنتج عنها الكلمات .

لقد تم أيضا اكتشـاف بعض المبادىء العامة التي تتعلق بالنحو وبالمعاني في لغة الاطفال في فترة مبكرة مـن فـترات تعلمهم اللغة ، كما تبين أن جدول النمو اللغوي لا يتغير حتى لو طرأ تغيير جذري على جدول التطور الجسماني الشامل للطفـل .

(٣) **صعوبة كبت اللغة او وقف تطورها** : ان القدرة الكامنة عند الطفل والتي تمكنه من اكتساب اللغة قوية لدرجة أنها تتطور في وجه أعتى الصعوبات . فالاطفال المكفوفون يكتسبون اللغة كالاطفال الاسوياء فيما عدا بعض المفردات التي لا يستطيعون التعرف عليها الا عن طريق اللمس . ومع أن الاطفال الذين يولدون بدون حاسة السمع تعترضهم صعوبة لا تقهر بالنسبة

لتطور الناحية الصوتية من اللغة الا أن بالامكان اكتسابهم اللغة المكتوبة من غير صعوبة تذكر . اما أولئك الاطفال الذين يولدون لآباء وامهات صم بكم منذ رأوا النور فانهم يستطيعون اكتساب اللغة بشكل عادي أو يتأخرون تأخرا بسيطا لا يذكر .

(٤) **اللغة البشرية لا يمكن تعليمها لغير البشر** : لقد دلت جميع التجارب حتى الآن أنه ليس لدى جنس غير بشري لغة أو حتى وسيلة أخرى للاتصال تصل في تنظيمها وتعقيدها وقدرتها على الابتكار الى مستوى لغة الانسان . كما اثبتت أيضا أنه لا يمكن تعليم هذه اللغة لاي جنس غير بشري ، (رغم التجارب الحديثة التي تجرى على تعليم القرود لغة البشر بوساطة غير صوتية ، مما سنأتي على ذكره عما قريب) .

(٥) **العموميات أو الاسس العامة لجميع اللغات** : لقد بين الكثير من اللغويين (ومن اهمهم تشومسكي وجرينبرغ وهيلمسلف) (١) أن هنالك أسسا صوتية ونحوية ودلالية مشتركة بين جميع لغات العالم بغض النظر عما اذا كانت بين بعضها علاقات تاريخية أم لم تكن . ففي جميع لغات العالم مفردات تدل على الاشياء والمشاعر والصفات والافعال والعلاقات المختلفة . ومن الناحية البيولوجية ليس هنالك

---

(1)
a) N. Chomsky : Syntactic Structures (The Hague : Mouton), 1957.

b) J. H. Greenberg (ed.) : Universals of Language (Cambridge, Mass. : M.I.T. Press), 1968.

c) L. Hjelmslev : Prolegomena to a Theory of Language; Indiana Univ. Publications in Anthropology and Linguistic Memoir 7 (Baltimore : Waverly Press), 1953.

فروق تذكر من حيث دلالات هذه المفردات ، كما أن هنالك اسسا اخرى مشتركة بين اللغات وردت الاشارة الى بعضها اعلاه ، بالاضافة الى هذا فان من المعروف ان اي طفل أو أي انسان عموما بامكانه ان يتعلم اية لغة في العالم . وعلى هذا فان من الواضح أن المهارات الاساسية اللازمة لاكتساب اللغات المختلفة واحدة على الرغم من وجود الاختلافات بين اجناس البشر من النواحي الفيزيولوجية .

هذه هي الاسباب التي دعت هذا النوع من العلماء الى محاولة اكتشاف الصفات البيولوجية المميزة للجنس البشري وحصرها . فماذا كانت نتائج دراساتهم حتى الان ؟

بالنسبة لنظرية النشوء والارتقاء التي نادى بها العالم **داروين** (Darwin) في القرن التاسع عشر فقد تبين انهـا لا تتعارض مع وجود صفات خاصة مميزة لانواع معينة من المخلوقات، فهنالك نظريات بيولوجية معروفة لتفسير ذلك لا داعي للخوض في تفاصيلها هنا وان كانت بعض تلك الصفات المميزة لا تستطيع أن تفسر ولا تتمشى دائما مع وظيفة الاعضاء التي تتمتع بتلك المميزات، كما أن كثيرا من وظائف الاعضاء لا يمكن دائما تفسيرها على أساس بنيتها البيولوجية . ثم ان قدرة الانسان على التفاهم والاتصال بأخيه الانسان ليس أمرا فريدا في عالم الحيوان (الذي ينتمي اليه الانسان) فقد سبق أن ذكرنا طرقا مختلفة للاتصال تتميز بها انواع معينة من الحيوانات وتختلف نوعياتها بينها . الا أن العلماء لم يتوصلوا بعد في ظل نظرية النشوء والارتقاء الى معرفة اقرب نسب للغة البشرية ، فقد اتضح من دراسة لغة القرود ، وهي اقرب الحيوانات الى الانسان من الناحية البيولوجية ، أن لغتها تختلف لا من حيث الكم فحسب بل من حيث نوعها وطبيعتها اختلافا جذريا عن لغة الانسان .

ولو نظرنا الى اللغة من حيث الوراثة نرى أن أبحاثا كثيرة قد أجريت على الجينات الحاملة للوراثة واصبح من المتفق عليه علميا الان أن هنالك أساسا في الجينات لبعض أنواع السلوك . وهذا لا يعني أن انواعا معينة من الخصائص السلوكية ناتجة عن جينات محددة ، بل ان الاستعداد او الميل لبعض انواع السلوك يمكن أن يكون وراثيا . الا أن بعض هذه الخصائص أقوى من غيرها بحيث انها يمكن أن تقاوم التغير أو التطور رغم ان التغير في الجينات يكون قد أحدث تغيرا في التركيب العام للشكل والوظيفة في فرد من الافراد . فكيف نطبق هذا على اللغة ؟

ان اكتشاف عيوب لغوية وراثية ليس جديدا بل هو قديم قدم علم الطب . الا أن تلك العيوب قلما تؤثر على مستوى الذكاء . كما أن هنالك ابحاثا حديثة جدا ومعاصرة على الكروموسومات تشير الى انه اذا طرأ خلل على كروموسوم او أكثر فان من الممكن أن يحدث عيوبا جسدية دون أن يؤثر على الذكاء كما أن خللا اخر يمكن أن يؤثر على الذكاء ولكن لا يؤثر بالضرورة على اللغة .

ان البحث في العيوب اللغوية الوراثية يؤمل أن يلقي بعض الضوء على ما اذا كان أساس القدرة اللغوية له علاقة بالجينات أي بالوراثة . ولكن هذا لم يتأكد بعد . والدراسات لا تزال جارية لاثباته أو نفيه . الا أن من الواضح أن الاستعداد أو الميل لاكتساب اللغة قد بقي ثابتا عند الانسان عل ىالرغم مما طرأ على جيناته من التغيرات المختلفة خلال تطوره الطويل .

ان الفائدة الحقيقية من التأكد من أن أساس اللغة اساس بيولوجي هو أن نتمكن من ايجاد علاقة محددة بين اللغة بمقوماتها المختلفة وبين صفات بيولوجيةاخرى محددة. ولكن هذا لم يتم بعد. وكل ما تم التوصلاليه هواعادة النظر فيبعض الامور التيكانت تعتبر شبه مؤكدة كعلاقة اللغة بالذكاء مثلا . فقد كان يعتقد حتى وقت قريب أن قدرة الانسان على استعمال اللغة هي نتيجة للمستوى

العالي من الذكاء العام الذي يتمتع به . واخذت ظاهرة نسبة وزن دماغ الانسان الى وزن جسمه ومقارنته بالحيوانات الاخرى كدليل بيولوجي على ارتفاع نسبة ذكائه . ولكن حتى لو استطعنا أن نقيس ذكاء كل من الحيوان والانسان وان نعقد مقارنة بينهما (وهذا موضوع غير متفق عليه بالمرة) وتبين أن نسبة ذكاء الانسان أعلى بكثير من ذكاء الحيوان فهل هذا دليل على أن الذكاء هو الذي ساعد الانسان على الكلام أو أن اللغة هي سبب الذكاء الانساني كما يقول بعض العلماء والفلاسفة ؟ ان معظم العلماء المعاصرين يعتقدون أن القدرة على اكتساب اللغة هو تطور بيولوجي لا علاقة له بالذكاء . وقد اكدت بعض الدراسات التي اجريت على ضعاف العقول ذلك بشكل قاطع . فاللغة تبدأ عند الطفل السوى بنفس الطريقة التي تبدأ بها عند الطفل المتأخر عقليا ، ويختلف كلاهما عن لغة الشمبانزي مثلا اختلافا جذريا . كما أن الرجل البالغ ضعيف العقل الذي لا يزيد معامل ذكائه عن ٢٠ الى ٣٠ من مائة عنده لغة كاملة تقريبا فيما عدا قليل من الصعوبة في النطق أو فيما عدا بعض الاخطاء النحوية . وهكذا فانه ليس من الضروري ابدا أن يعطل التأخر العقلي اكتساب اللغة .

أما البحث في وزن الدماغ فلم يأت بنتيجة . فقد تبين أن بعض الافراد الذين يبقون اقزاما لسبب مرضى أو بيولوجي بحيث لا يزيد طول احدهم عن قدمين أو ثلاثة يكتسبون لغة الانسان بشكل طبيعي على الرغم من أن وزن دماغ الواحد منهم ضعيف للغاية . (١) ونظرا الى هذه النتائج فقد اتجه نظر العلماء الى دراسة الدماغ من الناحية العصبية الفسيولوجية اي من ناحية **الكيف** لا الكم التي كان معظم الاهتمام مركزا عليها حتى عهد قريب .

---

(١) H. Seckel : Birdheaded Dwarfs, (Springfield, III. : Thomas), 1960.

ان النظرة السريعة تشير الى وجود وجوه شبه كثيرة بين دماغ الانسان ودماغ الشمبانزي وبعض الحيوانات الاخرى ، ففي كل من هذه المخلوقات ينقسم الدماغ الى جزئين : جزء علوي هو **المخ** . وجزء سفلي هو **المخيخ** او ساق الدماغ . والجزء الاخير هو المسؤول عن استمرار الحياة في الجسم لانه ينظم عمليات التنفس وضربات القلب وما اليها . اما الجزء العلوي فانه ليس ضروريا للحياة بل وظيفته ان يكيف الانسان أو الحيوان مع المحيط الذي يعيش فيه ، وهذا هو الجزء الذي يساعد على تنظيم اللغة ايضا وينقسم الى منطقتين : يمنى ويسرى ، تصل بينهما عدة جسور .

ويعتقد الكثيرون ان كلا المنطقتين في مخ الحيوان تقومان بنفس الوظائف ، فاذا تأكد هذا يكون هنالك اختلاف جذري بين الحيوان والانسان ، **ففي مخ الانسان تسيطر المنطقة اليسرى منه على النصف الايمن من الجسم بينما تسيطر المنطقة اليمنى على النصف الايسر من الجسم . كما ان المنطقة اليسرى من المخ في البالغين هي التي تسيطر على اللغة** . وهذا ليس اكتشافا حديثا بل انه اكتشاف مضى عليه اكثر من مائة واربعين عاما ، والجديد فيه انه تأكد الآن بشكل قاطع بفضل الابحاث التي اجريت عليه وخاصة خلال القرن الحالي الذي امكن فيه استعمال اساليب علمية حديثة بالاضافة الى الملاحظة التي كان يعتمد عليها في السابق . ومن هذه الاساليب حقن المنطقة اليسرى من المخ بنوع من المخدر لفترة قصيرة وملاحظة اثر ذلك على القدرة على الكلام . ومنها ايضا طريقة حديثة جداً وهي وضع سماعة منفصلة في كل اذن من الاذنين تتصل كل منهما بجهاز تسجيل منفصل . وقد تبين انه اذا اصدر من جهازي التسجيل في آن واحد كلمتان مختلفتان فان الفرد يسمع الكلمة التي تصل الى اذنه اليمنى بوضوح اكثر بكثير من تلك التي تصل الى اذنه اليسرى . بينما اذا اصدرت نغمتان موسيقيتان مختلفتان الى الاذنين معا فان الاذن اليسرى تميز النغمة أكثر من

اليمنى . وقد كانت نتائج التجارب المتواصلة واحدة تقريبا ودلت بشكل مؤكد بأن المنطقة اليسرى من المخ هي المسؤولة عن اللغة .(١)

وقد تلا هذا الاكتشاف اكتشاف اخر حديث وهو أن هنالك علاقة بين كون القدرة اللغوية متمركزة في المنطقة اليسرى من المخ وبين كون معظم الناس يستعملون ايديهم اليمنى في الاعمال عامة وفي الكتابة بوجه خاص . ولكن لوحظ ايضا بأن معظم الافراد الذين يستعملون ايديهم اليسرى في الكتابة تكون القدرة اللغوية عندهم متمركزة في المنطقة اليسرى من المخ ايضا ، وان من المحتمل أن تكون الصعوبات في الكلام والكتابة التي يشكو منها بعض الاطفال راجعة الى عدم كون مركز القدرتين في منطقة واحدة من المخ .

ويستنتج من هذا ، وان لم تكن الادلة حتى الان قاطعة تماما ، بأن هنالك صفة بيولوجية عصبية خاصة في الانسان تميزه عن الحيوان وتخلق عنده الاستعداد لاكتساب اللغة ؛ وان هذه الصفة تكمن في سيطرة كل من منطقتي مخ الانسان على الجانب المعاكس من جسمه . ومما يجدر ذكره هنا أن هذه الصفة أو الظاهرة الانسانية لا تكون موجودة في الطفل الذي يقل عمره عن السنتين بل تبدأ بالتكون بين سن الثانية والرابعة عشرة . فاذا أصيبت المنطقة اليسرى من مخ الطفل بين هذين العمرين بخلل ما فان بامكان القدرة الكلامية الانتقال الى المنطفة الاخرى ، أما اذا حدث ذلك بعد سن الرابعة عشرة فان القدرة الكلامية يمكن أن تتعطل كليا أو جزئيا بحسب شدة الاصابة .

وتنصب معظم الدراسات الحديثة على محاولة اكتشاف فيما اذا كانت جميع العمليات اللازمة للكلام متركزة في المنطقة اليسرى من المخ ام أن بعضا منها يمكن ان تقوم به المنطقة الاخرى . ويمكن

---

(١) D. Kimura : "Functional Asymmetry of the Brain in Dichotic Listening", in Cortex 3, 163-168, referred to in Aitchison. op. cit. 57-58.

الاشارة بايجاز شديد الى ما تم التوصل اليه حتى الان :

أولا : تم حتى الان اكتشاف منطقة في الجزء الايسر من المخ سميت **منطقة بروكا** (Broca's Area) نسبة الى مكتشفها تقع أمام الاذن اليسرى مباشرة واعلى منها قليلا ، تبين أنها منطقة مهمة جدا بالنسبة للغة . ويعتقد الان بأن هـذه المنطقة ومنطقة أخرى تسمى باسم مكتشفها **فرنيكه** (Wernicke's Area) لهما علاقة بالتخطيط للكلام وبفهمه .

ثانيـا : كما أمكن تحديد منطقة أخرى تمتد في منتصف المخ تقريبا باتجـاه رأسي تسـيطر على جميـع الحركـات الجسمية الارادية ، ومنها النطق الفعلي للكلام .

ثالثـا : ان الفرق بين السيطرة على الحركات الجسمية الارادية في الانسان والحيـوان أن مسـاحات أكبـر من مخ الانسـان مخصصة للسيطرة على حركات اليدين والفم مما هو الحال عليه في الحيوان .

رابعا : ـ أما تحديد التخصصات الاخرى بالنسبة للمخ وعلاقتها بمظاهر أخرى محددة من اللغة فلا يزال البحث فيه جاريا في الوقت الحاضر .

ان المشكلة الرئيسية في هذا البحث أن المعلومات تجمع في معظم الحالات من المرضى المصابين باصابات في أدمغتهم . وعـلى الرغم من أن بعض الباحثين من الاطباء بوجه خاص (من امثـال **بنفيلد وروبرتس** في كندا) (١) يحاولون اجراء بعض التجارب على الاصحاء الا أن المخاطر التي يمكن أن تنتج من مثل هذه التجارب تمنعهم من متابعتها او التعمق فيها .

---

(1) Penfield and Roberts : Speech and Brain Mechanism (Princeton University Press), 1959.

ننتقل الان الى المظاهر الاخرى التي تدل أن للغة الانسانية اساسا بيولوجيا ، وسنبحث هذه تحت موضوعين :

الاول : جهاز النطق عند الانسان ومقارنته بمثيله عند الحيوان .

الثاني : تطور القدرة اللغوية عند الانسان ومقارنتها بمظاهر السلوك الاخرى التي لها أساس بيولوجي .

أما جهاز النطق في الانسان فانه يتمتع بصفات تبدو غير عادية بالنسبة للحيوانات الاخرى الا انها لا تشير بحد ذاتها الى قدرة الانسان على النطق . ولكن بما أننا نعلم أن الانسان قادر على استخدام اللغة التي نعرفها فان هذه الصفات تبدو وكأنها تساعده على الجانب المنطوق منها (*)

فرئتا الانسان مثلا شبيهتان بمثيلاتهما في الثدييات الاخرى من ناحية التركيب ، الا أن عملية التنفس عند الانسان تبدو مكيفة تكييفا مناسبا جدا لعملية الكلام . ان نظام التنفس في معظم الحيوانات نظام متناسق ومتوازن تماما وهذا ينطبق على الانسان الذي لا يستطيع مثلا الامتناع عن التنفس تحت الماء لاكثر من دقيقتين كما أن اضطراب أو تسارع التنفس بشكل كبير بسبب الاجهاد ربما يودي بحياة الانسان . ولكن هذا النظام يتغير تغيرا واضحا اثناء الكلام فيصبح الشهيق اسرع وأقصر بكثير مما هو عليه عادة بينما تصبح عملية الزفير ابطأ واطول . وربما امتد هذا التغير لساعتين او أكثر قبل أن يشعر الانسان بالاجهاد . وهذه القدرة على تغيير نظام التنفس التي تلزم للسباحة او العزف على احدى آلات النفخ الموسيقية كالبوق مثلا تحتاج الى تدريب شاق طويل في هذه الحالات الا أن القدرة اللازمة للكلام توجد مع الطفل منذ ولادته (*)

وبين حنجرة الانسان وحنجرة القرود مثلا اختلاف رئيسي فالاولى ابسط من حيث التركيب وهذا يساعد على مرور الهواء من الرئتين بدون عوائق الى ان يصل الى الفم والانف ، وبساطة التركيب في نظر علماء الاحياء دليل على التخصص في عضو معين . وان كان الانسان يدفع ثمنا غاليا نتيجة هذا التخصص في حنجرته فالقرد يستطيع أن يسد ما بين فمه وقصبته الهوائية أثناء الاكل بينما لا يستطيع الانسان ان يفعل ذلك وكثيرا ما يغص هذا لدخول شيء من الطعام في قصبته الهوائية ويسبب له الكثير من الازعاج وربما يودي بحياته .

وهنالك اختلافات ايضا بين فم الانسان وغيره من الحيوانات فأسنان الانسان متقاربة في الارتفاع وتشكل حاجزا كاملا كما انها ليست مائلة والفكان يمكن أن ينطبق أحدهما على الاخر انطباقا كاملا . وهذه الصفات كلها ليست لازمة لعملية الاكل ولكنها ضرورية لعملية نطق بعض الاصوات بوجه خاص . كما أن عضلات الشفتين اكثر تطورا وتشابكا في الانسان منها في القرود مثلا . واللسان سميك مرن الحركة قوي العضلات اذا قورن بلسان القرد وهذا يساعد على تكوين حجرات متفاوتة في الاتساع لازمة لنطق كثير من الاصوات الصامتة المختلفة (كالالف والواو والياء وغيرها) . واخيرا فان الفم بمجمله صغير نسبيا ويمكن أن يفتح ويغلق بسرعة وهذا يساعد أيضا على نطق بعض الاصوات وخاصة ما تسمى بالاصوات الانفجارية .

أن جميع هذه الصفات الخاصة بجهاز النطق عند الانسان تبدو مواتية لنطق الاصوات المختلفة المستعملة في لغات البشر . فاذا نظرنا الى بدء اللغة وتطورها عند جميع أطفال العالم نجد أنها تتبع جدولا زمنيا يكاد يكون ثابتا بالنسبة لهؤلاء جميعا مهما اختلفت لغاتهم وحضاراتهم ، كما نجد أن تطور اللغة شبيه من وجوه عديدة جدا بأنماط السلوك الاخرى المحكومة بيولوجيا . (١)

(1) Lenneberg : Biological Foundationc of Language.

فمن اهم صفات هذه الانماط السلوكية : حتمية ظهورها في الفرد التابع لاحدى الفصائل الحيوانية في وقت معين ، تختلف قليلا من فرد الى آخر ، اذا نشأ هذا الفرد في ظروف طبيعية . وهذه الصفة متوفرة بالنسبة للغة ، وقد أشرنا اليها من قبل .

ومن الصفات الاخرى أن السلوك المحكوم بيولوجيا يظهر قبل ان تدعو الحاجة اليه . وهذه ايضا احدى الصفات التي تميز نشأة اللغة عند الطفل فهي تبدأ في الظهور قبل ان يحتاج لها الطفل كوسيلة للاتصال مع الاخرين ، وعندما يكون ما زال في رعاية امه التـامة .

وصفة ثالثة ان ظهور مثل هذا النمط من السلوك لا يأتي بقرار واع أو نتيجة لظروف ومؤثرات خارجية . وهذا ينطبق على اللغة ايضا ، فلا دخل لارادة الطفل في ظهور اللغة عنده . كما ان اللغة تظهر حتى لو لم يتغير شيء في ظروف الطفل الخارجية . ومع هذا فان للمحيط أثرا على التطور الطبيعي للغة وهذا واضح من النظر الى طفل ينشأ في محيط غني من الناحيتين اللغوية والثقافية واخر ينشأ في محيط أفقر من الناحيتين ، فان المحيط الفقير يعيق تطور اللغة ويفقرها من حيث المفردات والقواعد . الا انهذا التأخير لحسن الحظ تأخير مؤقت يمكن التغلب عليه بسرعة حالما ينتقل الطفل الى محيط افضل ، فتتغلب الناحية البيولوجية على التأثير السيء للمحيط او البيئـة .

ويتصف السلوك المحكوم بيولوجيا **بصفة اخرى هامة** وهي ان من المحتمل جدا أن تكون هنالك فترة حرجة بالنسبة لاكتساب ذلك السلوك . وقد احتاج تطبيق هذه الصفة على اللغة الى دراسات وتجارب عديدة . فقد تبين مثلا أن اشارة الانطلاق بالنسبة للغة مرتبطة بنمو الدماغ وحجمه وانها تتفق عادة مع الوقت الذي يبدأ فيه الطفل بالوقوف منتصبا على قدميه والقيام بخطواته الاولى .

ان عدد الخلايا في دماغ الانسان محدد منذ طفولته وهي تعد بالبلايين الا أن الاتصالات بين هذه الخلايا تتزايد مع النمو وكذلك حجم الدماغ ووزنه الذي يبدأ بحوالي ٣٠٠ غرام ويرتفع الى حوالي الف غرام في سن الثانية . هذا ما يتصل ببدء اللغة . فهل هنالك سن محدد يصبح فيه الانسان غير قادر على اكتساب اية لغة ؟ لقد دلت الملاحظة والتجارب على وجود هذه النقطة الحرجة وقدرت بسن **الرابعة عشرة كما** اشرنا الى ذلك من قبل . وقد اتى الدليل على ذلك من مصادر ثلاثة :

اولها : ما ذكرناه سابقا من امثلة كثيرة عن اطفال يعيشون في عزلة عن المجتمع فاذا اكتشفوا بدون لغة وهم قبل سن الرابعة عشرة اصبح بالامكان تعليمهم لغة ما وان كان اكتسابهم للغة يبطىء كثيرا كلما ازداد عمرهم . (١)

وثانيها : دراسة تطور اللغة عند المتاخرين عقليا مثل **المونجول** وهؤلاء يتعلمون اللغة بنفس طريقة الطفل السوي الا انهم ابطأ بكثير ويزيد هذا البطء الى درجة كبيرة جدا عندما يصلون سن البلوغ ولذلك يبقون متأخرين لغويا عمن هم في سنهم من الاطفال الاسوياء . (٢)

اما المصدر الثالث : فهو مقدار شفاء المرضى المصابين بخلل في الدماغ ناتج عن صدمة او ضربة او ما الى ذلك .

فقد تبين أنه اذا اصيب طفل في المنطقة اليسرى من دماغه وهو تحت سن الثانية فان قدرته اللغوية تتطور وتنمو بشكل

---

(١) a) R. Brown : Words and Things (N.Y. The Free Press), 1958, pp. 186-192.

b) Curtiss et al : "The Linguistic Development of Genie" in Language vol. 50 (1974), pp. 528-554.

(٢) Lenneberg : Biological Foundation of Language.

طبيعي . وكلما زاد عمره صعب اكتسابه للغة فاذا ما بلغ سن الرشد كانت النتيجة انه يصاب بعاهة لغوية لا يشفى منها . (١)

اما الصفة الخامسة والاخيرة فهي انه لا اثر للمران والتدريب المكثفين على تطور ونمو الصفة المحكومة بيولوجيا كما ان هنالك سلسلة من العلامات الواضحة لذلك النمو يمكن ان يكون لها علاقة بالسن او بمظاهر اخرى من مظاهر النمو الجسماني . وقد تطلب اثبات هذه الصفة للغة دراسات طويلة ايضا وقد حاول عدد من المتخصصين (٢) ولفترات طويلة ان يجعلوا اطفالهم يستعملون انواعا معينة من التراكيب النحوية وباءوا بالفشل بينما اتت فترة معينة من العمر استطاع هؤلاء الاطفال ان يتقنوا تلك التراكيب فيها بدون تدريب اطلاقا ، وهذا التدريب هو ما يقوم به الابوان عادة بشكل مستمر بالنسبة للطفل وقد تبين انه لا يفيد الا من ناحية واحدة هي زيادة مفردات الطفل وهي اقل مظاهر اللغة صعوبة من حيث الاكتساب . كما ان الاطفال يتعلمون الكثير من مجرد الاستماع ، وقد اشرنا سابقا الى ان هذه التجارب واضرابها اظهرت بوضوح ان الطفل لا يتعلم عن طريق الاستماع والمحاكاة فقط بل تساعده على ذلك القدرة اللغوية التي فطر عليها ، مهما كانت طبيعة تلك القدرة . (٣)

---

(١) انظر نفس المرجع ص ١٢٦

(٢) راجع مثلا :

a) M. D. Braine : "The Acquisition of Language in Infant and Child", in : Reed ed.) The Learning of Language (Appleton-Century-Crofts), 1971.

b) C. Cazden : Child Language and Education (Holt, Rinehart & Winston), 1972.

c) R. Brown : Psycholinguistics (N.Y. The Free Press), 1970.

(٣) انظر مثلا :

S. M. Ervin : "Imitation and Structural Change in Children's Language" in : Lenneberg : New Directions ... op. cit. pp. 163-189.

أما بالنسبة لتطور اللغة عند الطفل فقد اثبتت الدراسات المفصلة على لغات الاطفال (١) أن ذلك التطور يتبع جدولا زمنيا تفصيليا من حيث أن الطفل يبدأ بالتصويت ثم بالمناغاة ثم بالكلمة الواحدة ثم بتنغيم الجملة الكاملة ثم بالكلمتين معا ثم بجمل تبدو وكأنها جمل مكسرة . علاوة على ذلك فقد استطاع علماء اللغة أن يحددوا ترتيب ظهور كل شكل من أشكال جمل الطفل اثناء تطور لغته ووجدوا أن تلك الاشكال متشابهة من حيث النوع ومتزامنة مع غيره من الاطفال الذين يتكلمون اللغة نفسها . (٢)

....

ونكتفي هنا بالبحث في موضوع طبيعة اللغة الذي يكاد يكون اهم الموضوعات التي تشغل بال علماء اللغة وعلماء النفس هذه الايام .

وننطلق للاجابة عن سؤال تابع للموضوع وهو : ما دامت اللغة ظاهرة خاصة بالانسان فهل أمكن تعليمها لغيره من الحيوانات وخاصة الثدييات كأرقى انواع القرود مثلا ؟

هذا ما سنجيب عنه باقتضاب في الصفحات التالية بذكر بعض التجارب المعاصرة المثيرة للغاية في هذا الموضوع .

---

(١) هذه ثلاثة من اهم تلك الدراسات :

a) Bar-Adon and W. F. Leopold : Child Language (Prentice-Hall), 1971.

b) Roger Brown : A First Language, op. cit.

c) Ferguson and Slobin : Studies of Child Language Development, (Holt, Rinehart & Winston), 1973.

(٢) انظر الجدول في ص ٨٠ من كتاب J. Aitchison المذكور سابقا .

٥ ـ هل يمكن أن تتعلم الحيوانات اللغة ؟

لقد اتضح مما سبق قوله في هذا الفصل ان ما نطلق عليه **لغة الحيوان** ليست لغة حقيقية ، اذ لا تتوفر في اي منها جميع المميزات التي تتوفر في لغة الانسان ، بل هي وسائل للاتصال تختلف في مدى تعقيدها ، الا انها جميعا تشترك في انها وسائل محدودة تتالف في معظمها من اشارات مباشرة لا رموزا تشير اشارات غير مباشرة كما أنها جميعا تفتقر الى عنصر التجديد أو الابتكار الذي يتوفر في لغة الانسان ويشكل أهم خاصياتها .

اذا ليس لدى الحيوان لغة طبيعية شبيهة بلغة الانسان . وقد أصبح هذا أمرا ثابتا لا مجال للشك فيه . اي أن الحيوان ليس مفطورا على اكتساب لغة شبيهة بلغة الانسان . وما دام هذا هو الواقع فقد اتجه العلماء الى التجربة لمعرفة فيما اذا كان بالامكان تعليم لغة البشر لبعض الحيوانات الراقية التي بدا انها قابلة للتعلم . وقد تركز هذا بشكل خاص على الدلفين من حيوانات البحر والشمبانزي من حيوانات البر .

أما الدلفين فقد سبق ان ذكرنا ان التجارب العلمية المكشوفة لم تأت بنتيجة تذكر حتى الان . وان كانت هنالك نتائج لها قيمتها فهي محفوظة في طي الكتمان الشديد لدى الجهات العسكرية الامريكية التي يقوم بعض علمائها بتجاربهم بسرية تامة ولذلك فلا فائدة من متابعة البحث بالنسبة لهذا الحيوان .

ولكننا نستطيع ان نرى ما تم من التجارب بالنسبة للشمبانزي الذي اصبحت تربيته ومحاولة تعليمه اللغة البشرية ظاهرة شائعة جدا في السنوات الاخيرة بين علماء الولايات المتحدة الامريكية . وسنكتفي هنا بوصف اربع من هذه التجارب تتصف الاثنتان الاخيرتان منها باهمية بالغة .

اما اولى هذه التجارب التي سنذكرها فهي تلك التي قام بها الاستاذ **كلوج** وزوجته في عام ١٩٣١ (١) فقد حصلا على شمبانزي انثى سمياها **جوا** Gua عندما كان عمرها سبعة شهور فنشئاها بنفس الطريقة التي كانا ينشئان بها ابنهما الذي كان في نفس السن . فكانا يطعمانها بالملعقة ويحميانها ويلفانها بالفوط الخ ، وفي نفس الوقت كانا يسمعانها اللغة العادية التي كان يسمعها ابنهما . وقد كانت النتيجة أن الشمبانزي لم تتكلم مطلقا الا انها استطاعت في نهاية الفترة المقررة أن تفهم معاني ما يزيد على سبعين من مفردات اللغة . اما الطفل فقد شب بشكل طبيعي يفهم ويتكلم كأي طفل سوي .

اما التجربة الثانية فقد قام بها الاستاذ **هايز وزوجته عام ١٩٤٧** (٢) على شمبانزي طفلة سمياها **فيكي** Viki . والفرق بين هذه التجربة والتجربة السابقة أن هذه الشمبانزي لم تترك على سجيتها كالطفل الآدمي الذي يستمع للغة ويحاول تنميتها بمفرده . بل قام العالمان بتدريبها تدريبا متصلا مكثفا لمدة ثلاثة اعوام . وقد كانت النتيجة أن « فيكي » اصبحت في نهاية تلك الفترة قادرة على فهم عدد كبير من مفردات اللغة كما فعلت « جوا » من قبل ، الا انها تفوقت عليها بأنها استطاعت ان تنطق أربع كلمات فقط ، اثنتان منهما هما « بابا وماما » ، وحتى هذا العدد المحدود جدا من الكلمات لم يكن بامكان فيكي أن تنطقه بصورة واضحة .

لقد دلت هاتان التجربتان غير المجديتين كما دلت التجارب المماثلة السابقة لهما أن القرد ليس مهيأ فسيولوجيا لنطق الاصوات

---

(١) Kellog and Kellog : The Ape and the Child (N.Y. McGraw Hill), 1933; also in Brown : Words and Things, op. cit.

(٢) Hayes : The Ape in Our House (N.Y. Harper), 1951; also in Brown : Words and Things, op. cit.

التي تتكون منها لغات البشر (وقد ذكرنا سابقا كيف تدل الصفات البيولوجية الخاصة بجهاز النطق في الانسان على مقدرة فطرية خاصة به تتعلق بنطق أصوات اللغة) . وبناء على النتائج المخيبة للآمال لمثل هذه التجارب ، فقد نحا العلماء منحى آخر في تجاربهم وكفوا عن محاولة تعليم لغة البشر بأصواتها المعروفة لهذه الحيوانات .

انهم يعرفون اشكالا أخرى من وسائل الاتصال لا تستعمل الصوت كواسطة لانتقال الرموز ، ومع ذلك فقد تعلمها بعض ذوى العاهات من البشر واستطاعت ان تنقل جميع الافكار التي تعبر عنها اللغة العادية . فقد استعملت حاسة اللمس لتعليم اللغة البشرية لهيلين كيلر التي لم تكن تستطيع لا الابصار ولا الكلام ولا السمع كما أن هنالك لغة الاشارة التي تعلم للصم البكم في الولايات المتحدة والتي تفي بجميع الاغراض الانسانية . كما فكر هؤلاء العلماء بوسائل اخرى ممكنة كضغط الاجراس أو استعمال النماذج البلاستيكية أو الخشبية . فلماذا لا يحاولون بعض هذه الوسائل ؟ لقد استعملوا بعضها فعلا وكانت نتائجها مذهلة .

وسنأتي في هذه العجالة على ذكر اهم تجربتين فقط : احداهما استعملت فيها لغة الاشارة ، أما الثانية فقد استعملت فيها النماذج المذكورة .

أما التجربة الاولى فقد قام بها الاستاذ جاردنر وزوجته (١) في الولايات المتحدة الامريكية . فقد حصلا على انثى شمبانزي عام ١٩٦٦ عندما كانت تبلغ من العمر عاما واحدا تقريبا واسمياها

(١) a) Gardner and Gardner : "Teaching Sign Language to a Chimpanzee", in Science, (1965) pp. 666-672.
b) B. Gardner and R. Allen : "Two-way Communication with an Infant Chimpanzee", in : Shrier & Stollnitz (eds.) : Behavior of Nonhuman Primates, vol. IV (N.Y. The Academic Press), 1971.

واشو (Washoe) وقد استعملا لتعليمها لغة الاشارة التي يستعملها الصم البكم في تلك البلاد . ومع انها كانت من آن لاخر تخضع لشيء من التدريب ، الا ان الاسلوب الذي اتبع في تعليمها هـذه اللغة هي ان يقوم الاستاذان وعدد من طلابهما الذين يعرفون لغة الاشارة باستعمال تلك اللغة في وجودها وفي محاولة التحدث معها بشكل مستمر .

لقد كان تطور اللغة عند **واشو** وخاصة في الاطوار الاولـى شبيها بما يحدث للطفل الانسـاني العادي . فقد اكتسبت **واشو** من المفردات حوالي اربع وثلاثين بعد واحد وعشرين شهرا ولكن هذا العدد أخذ يتزايد بسرعة حتى بلغ المائة في فترة قصيرة . وقد كان الاستاذ وطلابه يحصون هذه الاعداد بشكل مستمر فاذا فهمت **واشو** كلمة واستعملتها في الموقف المناسب وفي ايـام متتالية ، اضافوا تلك الكلمة الى المفردات التي اكتسبتها .

ولكن الاهم من اكتساب المفردات هو توفر المميزات الخاصة بلغة البشر في لغـة واشو . فقد ذكرنا ان احد ىتلك المميزات هي **دلالة الكلمة على شيء او فعل معين** . وقد لوحظ ان لغة واشو تتمتع بهذه الخاصية ومن امثلة ذلك ما يلي :

اولا : لقد عودت واشو بصعوبة على ان تنظف اسنانها بفرشـاة الاسنان بعد كل وجبة طعام . ثم رات الاشارة التي تدل على الفرشاة في عدة مناسبات بعد ذلك الى ان تيقـن الاستاذ وطلابه انها قد فهمت تلك الكلمة تماما . وفي احد الايام تركت واشو « الكرافان » الذي كانت تعيش فيه في الحديقة ودخلت بيت الاستاذ جاردنر فرات اناء فيه عدد من فراشي الاسنان في الحمام وفي الحال قامت بعملالاشارة الت يتدل على الفرشاة (وذلك بفرك الاسنان بسبابة اليد) اي انها كانت تشير الى انها تعرف ان كلمة فرشاة تدل على ذلك الشيء الذي تفرك به الاسنان . ولكن الم تكن تطلب

فرشاة أسنان مثلا ؟ الجواب هو النفي ، لان الفراشي كانت في متناول يدها . الا يجوز أنها كانت ترغب في أن يقـوم أحدهم بتنظيف أسنانها ؟ الجواب هو النفي أيضا وذلـك لانها كانت تكره تلك العملية . اذا يستنتج من ذلك أنهـا عرفت العلاقة بين الكلمة وما تدل عليه من الاشياء الموجودة في العالم الحسي .

ثانيا : أما المثل الثاني فهو أن **واشو** تعلمت الاشارة التي تدل على **الزهرة** (وهذه الاشارة عبارة عن ضم أصابع احدى اليدين الى بعضها البعض ولمس الانف بها) . وقد استعملـت « **واشو** » هذه الاشارة مرتين : مرة اثناء مرورها في حديقة مليئة بالازهار ومرة عندما عرضت عليها صورة فيها رسوم الازهـار .

لقد تبين من التجربة أيضا ان في لغة تلك الشمبانزي صفة أخرى من الصفات المميزة للغتنا وهي **القدرة عـلى التعميم** أي استعمال الكلمة أو العبارةفي المناسبات والمواقف المتشابهة وعدم اقتصار ذلك على مناسبة أو موقف واحد . وقد بدا هذا واضحا من استعمال الشمبانزي « واشو » للاشارة التي تعني **أكثر** فقد كانت تستعملها أولا لتطلب ممن يكونون حاضرين أن يدغدغوها (وهذا ما تحبه القـرود كثيرا) وكان استعمال هذه الاشارة في باديء الامر مقصورا على هذا الموقف . ولكنه سرعان ما امتد الى مواقف أخرى كالاكل وجرها في عربة معينة وغيرها من الاعمال . وكانت صفة التعميم واضحة أيضا في استعمال كلمة **مفتاح** التي كانت الاشارة الدالة عليها تستعمل أولا للدلالة على مفتاح معين ثم عمم الاستعمال ليدل على أنواع مختلفة من المفاتيح بما في ذلك المفاتيح التي يشغل بها محرك السيارة .

وقد كانت لغة واشو تتمتع بميزة اخرى من ميزات لغة البشر **وهي الاشارة الى اشياء غير موجودة** او الى اناس بعيدين وغير مرئيين . فقد كانت واشو تستعمل الاشارات احيانا لطلب حضور اناس غائبين او للحصول على انواع من الاكل او من الاشياء غير الموجودة في المحيط المباشر .

ولكن اهم صفة من صفات لغتنا اصبحت لغة الشمبانزي **واشو** تتميز بها **هي القدرة على الخلق والابتكار** . وقد ظهر هذا من مقدرتها على استعمال عفوي لعدة تراكيب من المفردات (الاشارات) . فقد صدرت عنها تراكيب من كلمتين او ثلاث تشبه لغة الاطفال وتفيد معاني مختلفة مثل : « تعال دغدغني » او افتح الثلاجة » او » استمع الى جرس الاكل او » اسرع واعطني فرشاة الاسنان » . ولكن امرا هاما لوحظ هنا عند مقارنة هذه التراكيب بمثيلاتها في لغة الاطفال وهو ان الشمبانزي **واشو** لم تكن تتقيد بالنظام التتابعي للكلمات (Word order) وهو النظام الهام جدا بالنسبة لقواعد لغة غير معربة كاللغة الانجليزية بينما جميع الاطفال يتقيدون به حتى عندما تكون جملهم تتألف كل منها من كلمتين اثنتين فقط .

ان حل هذا الامر هام للغاية ويستطيع ان يقرر بشكل قاطع فيما اذا كانت **واشو** قد اكتسبت لغة البشر على طريقة الصم البكم (الذين يبدو انهم احيانا لا يتقيدون بذلك النظام التتابعي للكلمات) . وقد طرحت نظريات كثيرة لتفسير تلك الظاهرة وتقول اكثرها تشاؤما بأن هذا دليل على انه لم يكن بوسع **واشو** ان تفهم طبيعة اللغة التي تعتمد على نماذج متكررة من التراكيب اللغوية . ولكن حل هذه المشكلة كان امرا صعبا نظرا الى ان **واشو** اصبحت من الضخامة بحيث خشي اذاها ولم يستطع الاستاذ وطلابه ان يواصلوا مرافقتها طيلة اوقات صحوها كما كانوا يفعلون من قبل . بل اضطرهم الامر في النهاية الى التخلي عنها وارسالها الى احدى حدائق الحيوان لتعيش مع قبيلة من الشمبانزي . ولا زال الطلاب

يتابعون تطورها ويذهبون اليها ويتحدثون معها بلغة الاشارة ، ولا زالت تضيف الى لغتها تراكيب جديدة من اختراعها . والكل ينتظر أن يرى فيما اذا كان بامكانها أن تعلم هذه اللغة الجديدة التي اكتسبتها الى زملائها من القرود .

أما التجربة الثانية التي سنذكرها هنا فهي تختلف من حيث الواسطة التي استعملت لتعليم اللغة وتختلف أيضا من حيث النتائج . وقد قام بها الدكتور **دافيد بريماك** من جامعة **كليفورنيا** في سانتاباربارا . (١) لقد حصل بريماك على أنثى الشمبانزي التي دعاها **سارة** (Sarah) عام ١٩٦٦ وخلافا للطريقة التي استعملها الاستاذ جاردنر الذي ترك **واشو** طليقة تتعرض للغة الاشارة وتعليمها والتحدث بها بشكل طبيعي كما يفعل الطفل ، فان سارة تخضع طول الوقت لتدريب دقيق شبيه بما يجري في مختبرات علم النفس . فهي تعيش في قفص خاص وتدرب على استعمال نماذج بلاستيكية وتحريكها على لوحة ممغنطة ، اما النماذج فان كل شكل منها يمثل كلمة واحدة . فالنموذج المثلث الشكل الازرق اللون مثلا يعني **تفاحة** أما النموذج المربع الشكل الاحمر اللون فانه يعني كلمة **موزة** كما تدل نماذج اخرى لا على اسماء أخرى فقط ، بل وعلى افعال وحروف جر وادوات شرط وغيرها من الكلمات أيضا .

أما النتائج التي ظهرت حتى الان فانها تتلخص فيما يلي :

اولا : تستطيع سارة أن تفهم أكثر من مائة كلمة .

---

(١) a) D. Premack : "The Education of Saras", in Psychology Today (1970), 4, pp. 55-58.

b) ———— : "Language in Chimpanzee?" in Science (1971), 172, pp. 808-822.

c) ———— : "Teaching Language to an Ape", in Scientific American (1972), pp. 92-99.

ثانيـــا : تستطيع أيضا ان تفهم بعض المفاهيم المعقـدة مثل **شبيه** او **مختلف عن** او **بعض الجمل الشرطية** .

ثالثـــا : كما انها تطيع الاوامر وتنفذها وتستطيع الاجابة عـــن الاسئلة فاذا اراها مدربها النماذج المكونة من الكلمـات التالية : « سارة ، وضع ، التفاحة ، الصحن » تضـع التفاحة على الصحن . واذا سئلت سؤالا يتألف مـــن النماذج الدالة على الكلمات التالية :
« سؤال ، كوب ، يشبه ، ملعقة » فانها تجيب اجابة صحيحة بأن تستعمل النموذج الدال على كلمة « لا » وهكذا .

رابعا : جميع الفحوص التـــي تجري على ســـارة تتعلق بالفهـم فقط . وهذا يعني انها لا تقوم باجراء محادثات بينها وبين مدربها أو غيره كما انها لا تبدأ هي الحديث .

خامسـا : في كل مرة تقوم سارة بعملية صحيحة من عمليات الفهم او الاجابة عن السؤال او الاثنين معا ، تقدم لها قطعة من الشيكولاته مكافاة على ذلك . وهذا يجعل التجربة تبدو شبيهة بتجارب علماء النفس السلوكي . وان كان مـــن الصعب اثبات ذلك حتى الان .

سـادسا : ربما كانت اهم نتائج هذه التجربة حتى الان هي ما يبدو من ان سارة اصبحت تفهم خاصية هامة مـــن خصائص لغتنا هي خاصيـــة **الشـكل الهـرمي** للتركيب (وهـــي الخاصية التي شرحناها في موضع سابق) (١) فقد ظهر حتى الان ان سارة تفهم مثـلا أن بالامكان وضع عبارة مؤلفة من كلمتين مثل « الصحن الاحمر » في نفس اطار الاسم المجرور الذي يمكن ان توضع فيه كلمة «الصحن» ، كما في الجملتين التاليتين :

---

(١) انظر الصفحة ٢٢٦ وما يليها .

سارة ، ضعي التفاحة في / الصحن
سارة ، ضعي التفاحة في / الصحن الاحمر

ولكن بامكان الانسان أن يقوم بأكثر من ذلك ، فبامكانه أن يغير ترتيب الكلمات في الجملة لهدف معين دون أن يشوه التركيب الاساسي للجملة ، كما يحدث عندما نحول الجملة من المعلوم الى المجهول أو من الجملة المثبتة الى المنفية أو الاستفهامية وما الى ذلك كما أن باستطاعته أن يحذف بعض الكلمات أو التراكيب دون أن يؤثر ذلك في معنى الجملة ، فيمكنه مثلا أن يقول :

احمد ذهب الى السوق وعلي ذهب الى السوق

او أن يقـول :

أحمد ذهب الى السوق وعلي فعل مثله

او :

أحمد وعلي ذهبا الى السوق

وذلك بحذف الخبر (في الواقع) من الجملة المعطوفة كلية (واعتبار **احمد وعلي** مبتدأ خبرهما **ذهبا الى السوق**) .

ان نتيجة التجارب التي أجريت ولا زالت تجرى عـلى القردتين **واشو** و **سارة** تشير بوضوح الى أن بالامكان تعليم القرود نوعا من اللغة البشرية ، تتمتع بكثير من مميزات هذه اللغة ، وان كانت أقل تعقيدا منها بمراحل . كما أن هذه التجارب تفتح آفاقا جديدة للبحث والتجربة يمكن أن تزودنا بفهم أكبر للغة البشر بشكل خـاص .

ومهما يكن من أمر هذه التجارب ومدى نجاحها ، فان النقطة التي ينبغي الا تغيب عن اذهاننا ، هي **أن ايا من الحيوانات غيرمطبوع فطريا لتعلم لغة شبيهة بلغة الانسان** ــ وسنظل نؤمن بهذا الى أن يثبت العكس .

....

ولكي تكمل البحث في طبيعة اللغة سننتقل الى موضوع هام اخر متمم له الا وهو : ما الذي يجرى فعلا في اذهاننا عندما نتكلم فنطلق الاصوات التي تحمل في طياتها المعاني المختلفة ، وكذلك عندما نستمع الى تلك الاصوات فنستطيع حل رموزها وفهم معانيها ؟

٦ ـ كيف يصدر الكلام عن المتكلم وكيف يفهمه السامع ؟

ربما كان هذا الموضوع هو أهم ما يشغل بال علماء اللغة والنفس والتربية في الوقت الحاضر لما له من انعكاسات على الناحية العملية المتعلقة بتعلم وتعليم اللغات الاصلية والاجنبية وباستخدام افضل الطرق التعليمية للوصول الى افضل النتائج .

ولكنه في نفس الوقت اصعب المواضيع التي يمكن بحثها بشكل علمي منتظم ، لانه موضوع يتعلق بما يدور في ذهن الانسان ، والادلة الوحيدة التي يمكن اخضاعها للتحليل العلمي والتي يمكن ان تلقى شيئا من الضوء على ما يدور في ذهن الانسان بالنسبة للغة تنحصر فيما يصدر عنه من الكلام ، وبما أن هنالك أكثر من طريقة لتناول تلك الادلة بالبحث والتحليل والتفسير لذلك فان من الممكن بل وما هو حاصل فعلا هو ان يتوصل الباحثون المختلفون الى نتائج أو فرضيات مختلفة بل وربما كان بعضها يناقض الاخر ، ولكن هذا لا يعني أن نتوقف عن البحث ، بل العكس هو الصحيح ، أي أن علينا أن نتابع هذا النوع من البحث الى ان يتم التوصل الى بعض النظريات أو الفرضيات التي تبدو أقوى أساسا من غيرها .

لقد سبق أن اشرنا الى هاتين العمليتين : عملية اصدار الكلام وعملية سماعه وفهمه ، اشارة سريعة في مستهل هذا الكتاب (الجزء الثاني من الفصل الثاني) . فوضعنا ما يتصور بعض علماء اللغة والنفس حدوثه في ذهن المتكلم عندما يصدر عنه اي كلام ، كما اغفلنا ما يحدث عندما يستمع الانسان الى الكلام ويفهمه .

وكانت تلك الاشارة مبسطة جدا من جهة ، وتعبر عن وجهة نظر معينة من جهة اخرى وهنا سنتطرق الى وجهة نظر أخرى وسنعرض للعمليتين كليهما بشيء من التفصيل .

ان البحث في هاتين العمليتين يواجه مشكلة اساسية مبدئية وهي أن العلاقة بينهما لا تبدو واضحة مستقيمة . فهل عملية فك رموز الرسالة مشابهة لعملية تركيب رموزها ، أم عملية معاكسة ، أم هي مشابهة من بعض الوجوه ، معاكسة من وجوه أخرى ؟ يبدو أن هذا السبب يدعونا لان نحاول النظر في كل من العمليتين على انفراد ، وربما اتضح لنا في النهاية ان الجزء الاخير من السؤال السابق هو الاحتمال الاقوى . فلنبدأ اذا بدراسة العملية الاولى وهي عملية **التعبير اللغوي** (١) .

وقبل ان نفعل ذلك نود ان نكرر مرة اخرى بأن ما توصل اليه العلماء وبخاصة المختصون في علم اللغة النفسي ، على الرغم من اتساع مجال بحوثهم وازدياد عمقها ، لا يعدو أن يكون فرضيات أو احتمالات قابلة للنقض في اي وقت عن طريق دراسات وأبحاث جديدة ولكنا نجد من المفيد جدا ان نطلع على المنهج الذي يتبعونه في دراسات عقلية من هذا النوع ، والذي يحاولون أن يجعلوا منه منهجا أقرب ما يكون الى منهج البحث العلمي .

ان القرائن أو الادلة التي يعتمدون عليها في هذا البحث غير مباشرة في الغالب . فما دام النظر في الكلام السوي لا يؤدي وحده الى نتيجة تدل على طريقة تأليفه والتعبير به ، فقد لجأ العلماء الى دراسة ما يمكن ان يطرأ من التردد او الخلل على التعبير لعل ذلك يوصلهم الى بعض ما يريدون . وهذه الادلة يمكن أن تقسم الى نوعين :

---

(١) Aitchison, op. cit., pp. 206-229.

النوع الاول : يتألف مما يحدث أثناء الكلام العفوي غير المعد من **توقف وتردد** لفترات قصيرة لاسباب مختلفة يمكن تقصيها .

اما النوع الثاني : فيتألف من **الاخطاء اللغوية** التي كثيرا ما نلحظها في الكلام العادي وندعوها **زلات اللسان** بالاضافة الى تلك التي تقع في كلام المصابين باضطرابات لغوية ناتجة عن اصابة في الدماغ .

أما التوقف او التردد في الكلام فهو اما أن يكون توقفا متصلا بعملية التنفس مباشرة ، وهذا النوع قليل ، ويحدث عادة عند فواصل واضحة بين اقسام الجملة الطويلة الواحدة كما يمكن أن يحدث عند الفواصل المبينة في الجملة التالية :

ان الرجل الطويل الذي تراه واقفا على ناصية الشارع هو الرجل الذي حدثتك عنه امس .

فالتوقف هنا بعد كلمة « الشارع » وهو الحد الفاصل بين اسم ان وتوابعه ، توقف طبيعي . وهو قليل الحدوث في كلام الانسان في الظروف العادية ، أي عندما يكون تنفسه عاديا ، ويزداد عندما تكون الرئتان مجهدتين والتنفس سريعا نتيجة الجري أو العمل الشاق المستمر .

ولكن التوقف الذي اولاه العلماء عناية اكبر هو ذلك الناتج عن **التردد** ، وهو النوع الذي يبشر بنتائج افضل نظرا الى انه كثير الحدوث لدرجة انه يصل أحيانا الى ما بين ثلث ونصف الوقت الذي يستغرقه الكلام كله . ان اكثر ما يهتم به دارسو هـذه الظاهرة هو **الموضع** الذي يحصل فيه التردد .

وعلى الرغم من اختلاف نتائج الابحاث الجاريـة على هذه النقطة فهنالك ملاحظة هامة جدا توصلوا اليها جميعا ، وهي أن التوقف المتسبب عن التردد لا يحصل بين جملة وأخرى بل يحصل

في أواسط الجمل (١) (ونقصد **بالجملة** هنا بالاضافة الى **الجمل التامة** المعروفة ، **تلك الجمل الفرعية** التي نسميها باللغة العربية : « الجملة الموصولة او جملة الشرط / جواب الشرط او الجملة الاعتراضية أو جملة الحال أو الجملة التي تعمل عمل الصفة الخ) . ويستدلون من هذا ان المتكلم عندما يخطط للكلام في عقله لا يفعل ذلك بالنسبة لكل جملة على حدة ثم يتفوه بها ، ثم يتوقف قليلا ليخطط للجملة التالية ثم يتفوه بها وهكذا ، بل يبدو أنه يخطط للجملة الاولى ثم يبدأ النطق بها ثم يتوقف احيانا في وسطها ليخطط للجملة التالية وهكذا فاذا كان هذا الافتراض صحيحا ، هل يمكن تأكيده عن طريق النظر الى ادلة اخرى ؟

لننظر الان ماذا فعل علماء اللغة بالنوع الثاني من الادلة وهي الاخطاء اللغوية أو الاخطاء في الكلام ، وهي التي تتألف من زلات **اللسان** بالنسبة للاصحاء **والاضطرابات الكلامية** بالنسبة للمصابين بالحبسة (aphasia) (٢) .

---

(١) للاطلاع على نتائج الابحاث المختلفة راجع :

A) D. S. Boomer, "Hesitation and Grammatical Encoding," in Language and Speech No. 8 (1965), pp. 148-158, reprinted in Oldfield and Marshall (eds.) Language (Penguin), 1968, pp. 159-169.

B) F. Goldman-Eisler, "Hesitation, information and levels of Speech production" in De Reuk and O'connor : Disorders of Language (London : Churchill), 1964.

(٢) من الكتب المختصة في هذا الموضوع .

A) V. A. Fromkin : Speech Errors as Linguistic Evidence (The Hague : Mouton), 1973.

B) Goodglass and Blumstein : Psycolinguistics and Aphasia (Baltimore : John Hopkins Univ. Press), 1973.

اما زلات اللسان فهي شائعة جدا في كلام المرهقين والمخمورين والمتوترين عصبيا ، وهي للاسف مقترنة في عقول الكثيرين بالجنس، منذ ان طلع العالم النمساوي **سيجموند فرويد** بنظريته عن العقل الباطن الا أن الاغلبية لا تؤمن بذلك في الوقت الحاضر . وربما كان التفسير الذي يقدمه علماء اللغة اقرب الى الصواب فهم يقولون بأن زلات اللسان هذه تدلنا على الكيفية التي يخطط فيها الانسان في ذهنه للكلام الذي سينطق به . وهي لذلك أجدر بأن تسمى « زلات العقل » لا « زلات اللسان » .

أما الاخطاء الكلامية التي يرتكبها المصابون باصابات عقلية فهي متنوعة ومتشعبة جدا ، ولذلك سنقتصر كلامنا هنا على أكثرها شيوعا الا وهي **صعوبة التسمية** او صعوبة العثور على الاسماء المناسبة في الحديث . وبما أن أوجه شبه عديدة تجمع بين **زلات اللسان** وهذا النوع من الاخطاء ، لذلك فان من الممكن بحثهما جميعا معا .

فقد لاحظ الباحثون أن هذه الاخطاء يمكن أن تقسم بوجه عام الى نمطين :

النمط الاول : الذي يتالف من استعمال الكلمة الخطأ مكان كلمة أخرى في الجملة كأن تقول :

أعطني مفتاح السيارة
وانت تقصد ان تقول :
أعطني مفتاح الخزانة

ومن أمثلة ذلك أيضا أن تكون راكبا السيارة بجانب السائق وتريد أن تدله على الطريق الى مكان ما فتخاطبه قائلا :

اتجه يمينا
بدلا من أن تقول ما تقصد فعلا وهو :
اتجه يسارا

ومن امثلته ايضا ان تطلب « ملعقة » مثلا وانت تقصد « شوكة » وهكذا . وهذا النمط من الخطأ ناتج عن خطأ في الاختيار أو الانتقاء ، أي اختيار الكلمة المناسبة .

اما النمط الثاني : فيتألف من التنفيذ الخاطىء للبرنامج الذي خطط في الذهن ، اي ان البرنامج سليم في الذهن الا ان الخطأ في اخراجه الى حيز الوجود عن طريق النطق كأن تقول :

رافقنا العروس الى الفندقين
وانت تقصد ان تقول :
رافقنا العروسين الى الفندق

فهنا وقع الخطأ باضافة علامة التثنية الى « الفندق » بدلا من اضافتها الى المكان الصحيح وهو كلمة « العروس » .

ومن الامثلة على هذا النوع أيضا قولك :
لا تشتر الكتاب الذي نهايته في فهرسه
وانت تقصد ان تقول :
لا تشتر الكتاب الذي فهرسه في نهايته
او قولك :
اريدك ان تخبر عليا .... اقصد ...
اريدك ان تخبر محمدا بما قاله علي .

لقد قام العلماء بتقسيم كل نوع الى اقسام اخرى يجمع بين كل منها التشابه في نوع الخطأ الحاصل ، وحاولوا دراسة هذه الظاهرة دراسة علمية تفصيلية ــ لا حاجة بنا هنا للدخول فيها ــ فوصلوا الى عدة نتائج هامة لها دلالاتها . وقد حصروا هذه النتائج التي توصلوا اليها حتى الان بما يلي :

١ ــ لقد توصلوا الى فرضية مقنعة من **وحدة الكلام** (Unit of Speech) التي يخططها الانسان في ذهنه قبل النطق بها .

٢ ـ كما استطاعوا حتى الان ان يتقدموا بفرضيات اخرى عن كيفية التخطيط للمفردات ولقواعد اللغة وتجميعها معا .

٣ ـ كما انهم بدأوا يهتدون الى الكيفية التي يختزن بها الانسان المفردات اللغوية ثم يختار من بينها ما يحتاجه للكلام .

اما بالنسبة للنتيجة الاولى فانهم يكادون يجزمون الان بأن وحدة الكلام التي يخططها الانسان في ذهنه قبل أن ينطق بها ما دعوه **بالمجموعة ذات النغم الواحد** (Tone group) وهي تلك الجمل القصيرة او ذلك الجزء القصير من جملة طويلة الذي ينطقه الانسان عادة بنغمة واحدة ، كالجملة القصيرة المثبتة :

اشتريت كثيرا من الفاكهة امس

أو الاستفهامية مثل :

ماذا كنت تفعل هناك ؟

فرغم اختلاف التركيب في كل من الجملتين ، الا ان كلا منهما ذات نغمة واحدة او تنغيم واحد (One intonation contour)
أما الدليل الذي يقدمونه لتأكيد هذه الفرضية فهو أن جميع الاخطاء التي سميناها « زلات اللسان » تحدث عادة في **داخل** مثل هذه المجموعات او الوحدات ، وكنا قد ذكرنا سابقا أن معظم حالات التوقف المؤقت او التردد تقع **أثناء** النطق بمثل هذه الجمل ، وليس عند الحدود الفاصلة بينها ، وهذا يشير الى أن التخطيط للجملة او المجموعة الكلامية التالية يحدث في **اثناء** نطق الانسان لما خطط له سابقا وليس **بعد** أن ينتهي من نطقه .

أما النتيجة الثانية التي توصلوا اليها فهي متصلة بالنتيجة الاولى وموضحة لها . فقد تبين ان من الممكن تقسيم تخطيط الكلام الى مرحلتين : مرحلة **التخطيط الاجمالي** ومرحلة **التخطيط التفصيلي** . اما التخطيط الاجمالي فانه يبدأ اثناء النطق بالجملة **السابقة** ، بينما يحصل التخطيط التفصيلي اثناء النطق بالجملة المخطط لها . كما أن التخطيط الاجمالي يشمل اختيار المفردات

الرئيسية والقواعد والنغمة المناسبة بينما يشمل التخطيط التفصيلي تنظيم المفردات والقواعد المختارة بعضها مع بعض بالشكل السليم .

ان اوضح دليل على التخطيط الاجمالي يأتي من ظاهرة الاستعمال الخاطيء لكلمة معينة في الجزء الاول من جملة طويلة ينوي المتكلم ان يستعملها في الجزء الثاني ، فيسبق لسانه الى النطق بالكلمة في موضع سابق للموضع المخطط استعمالها فيه . ومثال ذلك أن يكون المتكلم قد خطط لقول الكلام التالي :

« عندما تذهب الى السوق اشتر لي شيئا من الفاكهة »
في حين أن ما يقوله فعلا هو :

عندما تذهب الى الفاكهة اشتر لي شيئا من السوق .
ثم يكتشف خطاه فيعيد قول الجملة بالشكل السليم .
ومثال اخر ما يمكن أن تقوله مضيفة الطائرة للمسافرين استعدادا لهبوط الطائرة .
فبدلا من ان تقول :

« يرجى ربط احزمة المقاعد ، والامتناع عن التدخين »
يمكن أن تقول :

« يرجى الامتناع عن احزمة المقاعد وربط التدخين »
ثم تستدرك الخطأ وتعيد قول الجملة بالشكل الصحيح .

ان هذا النوع من الخطأ يكسر القاعدة التي سبق أن اشرنا اليها بأن زلات اللسان تحدث عادة في أواسط الجملة الواحدة القصيرة . ورغم ان هذا النوع من الخطأ قليل الحدوث الا انه يدل بشكل واضح على وجود تخطيط اجمالي للجمل . كما أن هذه الظاهرة تشير الى ان هذا **التخطيط يتركز على اختيار الاطار العام للتركيب النحوي والمفردات الرئيسية** بالاضافة الى النغمة المناسبة للجملة . بينما يترك التخطيط التفصيلي الى وقت لاحق . وربما

كان هذا التخطيط التفصيلي يتوافق مع ما اشرنا اليه سابقا من التوقيف القصير أو التردد الذي يحدث عادة وقد بدانا الكلام بالفعل ، اي في أواسط الجملة القصيرة الاولى بالنسبة للتالية وهذه بالنسبة لما يليها وهكذا .

ويشمل **التخطيط التفصيلي هـذا امريـن : الاول وضـع** المفردات في مواضعها الصحيحة من الجمل ، والخطأ الذي يمكن ان يقع هنا يتضح من المثال التالي :

ان من الخطر وجود كمية زائدة من الدم في السكر بدلا من :

ان من الخطر وجود كمية زائدة من السكر في الدم **والامـر الثاني** هو اضافة الزيادات الصرفية في مكانها المناسب من المفردات والخطأ هنا يتضح في المثال التالي :

ضع الكتاب على الرفين

بدلا من قولنا :

ضع الكتابين على الرف

اما النتيجة الثالثة التي توصل اليها العلماء فتتعلق بالشكل الذي يختزن الانسان المفردات اللغوية عليه ثم يختار منها ما يحتاجه للتعبير . فقد دلت الابحاث العديدة واهمها تلك التجربة التي قام بها الاستاذ روجر براون من جامعـة هارفارد (١) ، بأن الكلمات تختزن بطريقتين في آن واحد ، فالانسان يختزن المعنى كما يختزن الشكل الصوتي . أما من حيث المعنى ، فمن الواضح أن الانسان يختزن المفردات في مجاميع مترابطة من حيث معانيها ، وربما كان أوضح مثال على ذلك تلك المفردات التي تدل على صلة القربى كالاب والام والاخ والاخت والعم والخال .. الخ فعندما يحتاج الانسان

---

(١) Brown & Mcneill, "The Tip of the Tongue Phenomenon" in Journal of Verbal Learning and Verbal Behavior, 5, 1966, pp. 325-337, reprinted in R. Brown : Psycholinguistics. (N.Y. The Free Press), 1970.

الى استعمال احداها فانه يتجه اولا الى المجموعة ككل ثم يختار واحدة منها ، فاذا أخطأ كان خطؤه في القالب ناتجا عن استعمال احداها بدلا من الاخرى . اما من حيث الشكل الصوتي للكلمة فيبدو ان الاطفال يحتفظون بها عن طريق النغمة العامة نها ، بينما يستطيع الكبار أن يذكروا بالاضافة الى النغمة العامة الصوت الاول من الكلمة .

أن هذه النتائج بالغة الاهمية ليست لانها نتائج نهائية قاطعة ولكن لانها ترينا المنهج العلمي المتبع في الوصول اليها ، انها في الواقع فرضيات قابلة للتأكيد او النقض خاصة انها تتعلق بامور تجري جميعها داخل العقل البشري ، ولكنها ليست تخرصات او تأملات باطنية او نتائج قائمة على جدل منطقي ، بل قد اتخذت وسيلة لها المنهج العلمي الذي ان لم يوصلنا اليوم الى نتائج او قوانين ثابتة اكيدة فانه كفيل بأن يؤدي الى ذلك غدا او بعد غد .

لننتقل الان الى النظر في بعض الدراسات التي اجريت لمحاولة تفسير ظاهرة فهمنا لما نسمعه من الكلام (١) .

ان احد مناهج البحث في هذا الموضوع يعتمد على دراسة ذلك الكلام الذي يجد المستمع صعوبة في فهمه ومحاولة ايجاد الاسباب التي تجعله صعبا او مستعصيا على الفهم فلعل ذلك يلقي بعض الضوء على الكيفية التي يفك بها المستمع رموز الرسالة الشفوية التي يبعث بها المتكلم .

وربما كان من الضروري هنا ان نتخلص من بعض المفاهيم الخاطئة التي كانت سائدة عن عملية الاستماع والفهم . لقد كان المفهوم السائد حتى وقت قريب حتى بين علماء اللغة والنفس هو ان المستمع اشبه ما يكون بالطابع على الآلة الكاتبة ، فهو يتلقى الرموز الصوتية المفردة التي تتألف منها الكلمات بشكل سلبي تماما ثم

(١) Aitchison, op. cit., pp. 177-205.

يطابقها على الاصوات اللغوية المخزونة في ذهنه فيتعرف عليها الواحدة تلو الاخرى . الا ان التجارب العديدة التي أجراها بعض علماء اللغة وعلماء الاصوات قد اثبتت بشكل قاطع بطلان هذه النظرية . فمن الناحية الصوتية البحتة ، ليس بامكان الفرد ان يسجل الاصوات منفردة وبالتتابع لاسباب كثيرة . ان مجرد النظر الى سرعة النطق بتلك الاصوات يجعل هذا الامر مستحيلا .

فاذا افترضنا ان الكلمة باللغة العربية تتالف بالمتوسط من خمسة اصوات ، وان معدل سرعة النطق بالكلام هو أربع كلمات في الثانية فان هذا يعني ان على الاذن والدماغ ان يتمكنا من استقبال وتحليل عشرين صوتا في الثانية الواحدة ، وقد ثبت ان هذا مستحيل (١) بالاضافة الى ذلك فان الصوت الواحد يختلف نطقه من كلمة الى اخرى وذلك بحسب ما يسبق ذلك الصوت او ما يتبعه أو كليهما . فان طريقة نطقنا للالف في كل من الكلمات (سار ، جار ، طار) تختلف اختلافا واضحا . كما تبين بالدراسة العلمية العملية أن طريقة نطق الاصوات تختلف اختلافا بينا من شخص الى آخر . ولولا هذه الاختلافات لامكن بكل سهولة الاستغناء عن العنصر البشري في عملية الطباعة على الآلة الكاتبة ، واختراع الآلة الكاتبة السمعية التي يمكن للانسان أن يملي عليها ما يريد فتقوم بطباعته مباشرة وبشكل آلي . وفوق ذلك كله فان الاصوات اللغوية ليست في الواقع اصواتا منفصلة بعضها عن بعض فقد اظهرت الآلات الحديثة التي تصدر الصوت بشكل مرئي عدم وجود الحدود الواضحة المعالم بين الاصوات ذات الصفات المميزة المتشابهة فصوت الياء يتداخل مع صوت الثاء الذي يتداخل بدوره مع صوت الكاف وهكذا (وسنرى في الفصل القادم ان معظم الصفات المميزة لهذه الاصوات متشابهة) . وهذا كله يثبت انه ليس باستطاعة الانسان أن يستخلص المعلومات التي تحملها الامواج الصوتية بالطريقة

---

(١) Lieberman et al : "Perception of the Speech Code" in Psychological Review, 74 (1967), pp. 431-461.

التي تستعملها أجهزة الامن مثلا عندما تطابق بصمات اصابع المتهم على بصماته المحفوظة لديها . بل ان كل ما يستطيع المستمع أن يستخلصه من الاصوات التي يسمعها لا يعدو ان يكون دليلا على محتوى الرسالة الصوتية أو اطارا عاما يمكنه من اعادة بناء الجمل . وربما كان دور المستمع أشبه بدور المحقق الجنائي الذي تتجمع لديه أدلة مختلفة غير مترابطة في ظاهرها ، فيحاول هو أن يربطها معا ليهتدي الى دليل متكامل يرشد الى هوية المجرم . ولا بد أن نذكر هنا أن الظروف التي تحيط بعمليتي الكلام والاستماع كثيرا ما تكون غير مواتية فتشوه الاصوات أو تعرقل مسيرتها في الهواء أو تعترض تلك المسيرة أو تقحم فيها اصوات اخرى بحيث لا تصل الرسالة الصوتية واضحة وضوحا كاملا الى اذن المستمع .

خلاصة القول هنا أن دور المستمع ليس دورا سلبيا بل هو دور ايجابي الى حد كبير . فالمستمع يحاول أن يستخلص الرسالة الصوتية التي يحتمل أن تكون قد صدرت عن المتكلم ، مستفيدا من **معرفته المسبقة باللغة** . وهذه المعرفة المسبقة امر هام للغاية لسببين : اولهما انها تزود المستمع **بتوقعات** معينة من حيث الاصوات التي يسمعها ، كما أن هذه التوقعات تنسحب أيضا على النظام النحوي مثلما تنسحب على نظام المعاني في اللغة . ان نتائج التجارب والابحاث في وضعها الحاضر تشير الى أن هذه التوقعات تشكل جزءا هاما من مقدرة المستمع على فهم ما يسمع . فعلى الرغم من أن انسانا ما يمكن ان يكون خالي الذهن بالنسبة لما سيتكلم عنه انسان اخر ، الا انه ليس في الواقع خالي الذهن أبدا بالنسبة لمعرفته بانظمة لغته من نظام صوتي ونظام نحوي ونظام للمعاني ، ولذلك فهو يتوقع أن يسمع كلاما يتمشى مع هذه الانظمة جميعا ، وتبعا لذلك فليس من الضروري أن يسمع كل صوت مما يقال بل يفتش فيما يسمعه عن اشارات تشير الى الاطار العام لتركيب الجملة لكي يتوقع ما هو آت من الكلام . ولنضرب بعض الامثلة لتوضيح ما نقول .

فنحن كمتحدثين باللغة العربية عندما نسمع شخصا يبدأ كلامه قائلا :

الرجل ....

ماذا نتوقع أن نسمع بعد ذلك ؟ ان معرفتنا للغة العربية قد زودتنا بالتراكيب الاساسية المختلفة للجملة البسيطة . وسواء اكنا مثقفين أم اميين فان في ذهننا أن الجملة البسيطة في اللغة العربية تتألف من عنصرين هما المبتدأ والخبر ، أو الفعل والفاعل . كما أننا نعرف أيضا بأن المبتدأ يسبق الخبر في الغالب ، لذلك فاننا حالما نسمع كلمة « الرجل » نعتبرها مبتدأ وننتظر الخبر الذي يمكن أن يكون كلمة واحدة مثل : مريض ، فتصبح الجملة :

الرجل مريض

أو شبه جملة مثل « في البيت » ، فتصبح الجملة :

الرجل في البيت

أو فعلا (وفاعلا) مثل « يدخن » ، فتصبح الجملة :

الرجل يدخن

أما اذا بدأ المتحدث **بالفعل** بأن قال :

تقاعد ....

فان معرفتنا بقواعد اللغة العربية تجعلنا نتوقع سماع **الفاعل** ، كما أن معرفتنا بمعاني المفردات تجعلنا نتوقع أن يكون الفاعل اسما لانسان عاقل ، ولذلك فاننا ننتظر أن نسمع هذا الفعل متبوعا باسم مثل « الموظف » فتصبح الجملة :

تقاعد الموظف

كما أن معرفتنا باللغة تساعد على أن نتوقع سماع شيء عن سبب التقاعد ، أهو لبلوغ السن القانونية أو لسبب اخر . ونحن نتوقع السبب الاول لانه الوضع الطبيعي ولذلك فانا نستنتج ذلك حالما يتابع المتحدث كلامه مبتدئا بكلمة « بعد » وقبل أن يتم جملته التي يمكن أن تكون :

تقاعد الموظف بعد ان بلغ السن القانونية

اما اذا كان سبب التقاعد غير ذلك ، وكانت توقعاتنا الاولية غير صحيحة فانا نغير استراتيجيتنا حالما نسمع أول الكلام التالي للفعل والفاعل (أو للجملة الاساسية) يبدأ بالتعبير « مع انه » ونتوقع أن نسمع سببا للتقاعد مغايرا للتوقعات الطبيعية ، وربما كانت الجملة التي تقال فعلا هي :

تقاعد الموظف مع انه لم يبلغ السن القانونية وذلك لاصابته بمرض أقعده عن العمــل .

ولعل بامكان القارىء الان ان يأتي بأمثلة كثيرة مشابهة لما سبق ويحاول تحليلها بنفس الطريقة .

لقد دلت الابحاث التي اتبعت هذا المنهج في الدراسة وخاصة تلك التي قام بها الاستاذ توم بيفر (١) في جامعة كولومبيا بالولايات المتحدة الامريكية ان **المستمع يسمع ما يتوقع أن يسمعه** ويساعده على هذا التوقع معرفته بأصوات لغته ومعرفته بقواعد لغته ومعرفته بمعاني المفردات في لغته ، وكذلك معرفته بالعالم بوجه عــام وبحضارة أمته بوجه خاص . فالمستمع اذا عنصر ايجابي فعال عند استماعه الى الكلام وهو يستفيد من تلك المعرفة بأن يرسم لنفسه استراتيجية معينة يتوقع بموجبها سمــاع الاصوات والتراكيب والمعاني التي تتمشى مع النظام الخاص بلغته .

وقد دلت الابحاث كذلك على أن استيعاب المستمع للجمل البسيطة أسهل بكثير من استيعابه للجمل المعقدة ويعزى هــذا الى أن التغيير في الاستراتيجية مرات عديدة اثناء الاستماع لجمـلة طويلة معقدة لكي يتفق ما يسمعه مع ما يتوقعه يستغرق وقتا اطول

(١) T. G. Bever "The Cognitive basis for Linguistic Structures" in Hayes : Cognition and the Development of Language, (N.Y. Wiley) 1970.

مما يحتاجه عندما لا يضطر لتغيير تلك الاستراتيجية ، أي في حالة الجمل البسيطة . كما انه تبين للدارسين بأن المستمع يفهم الجمل ذات التركيب الاساسي العادي بأسرع مما يفهم تلك التي تختلف عن ذلك التركيب . فالجملة المؤلفة من فعل وفاعل (وربما مفعول بـه) أسهل على الفهم بهذا الشكل مما لو كانت مؤلفة من فعل مبني للمجهول يعقبه نائب عن الفاعل (الذي هو في المعنى مفعول به فعلا) . فجملة مثل :

اشترى الرجل سيارة

أسهل فهما من جملة :

اشتريت السيارة (من قبل الرجل) .

كما ان الجمل الاساسية التي لا تتضمن جملا فرعية كجملة الصفة أو الحال أو الجملة الموصولة اسهل على الفهم من الجملة المؤلفة من جملتين احداهما أساسية والاخرى فرعية فجملة :

الرجل مريض

أسهل كثيرا على الفهم من جملة :

الرجل الذي حدثتك عنه مريض

وكلما زاد عدد الجمل الفرعية زادت صعوبة فهم الكلام .

* * *

ليس في نيتنا الخوض في تفاصيل هذه الابحاث من جهة ولا التركيز على النتائج من جهة أخرى . فهنالك اسباب كثيرة أخرى بعضها لغوي والاخر نفسي تجعل فهم بعض الكلام عسيرا . ولكننا نعيد هنا ما سبق ان ذكرناه بأن المهم هو معرفة المنهج العلمي الذي يتبعه الباحثون في دراساتهم وتجاربهم بحيث يمكن اثبات النتائج بالبرهان والدليل العلمي لا بالتأمل العقلي فقط . ولا يدعي أحد من الدارسين والعلماء انهم قد توصلوا الى حل لغز الكلام والفهم ولكن أبحاثهم ودراساتهم مستمرة ، ومنهجها علمي ، ولذلك فانا

نرجو الخير الكثير منها في القاء الضوء على سر هام جدا من اسرار اللغــة .

نود أن نشير هنا ، ونحن ناتي على نهاية هذا الفصل باننا قد أطلنا فيه بعض الشيء لسببين : أولهما أن الدراسات في موضوع طبيعة اللغة قد اكتسبت دفعا جديدا بعد أن استطاعت أن تسير على منهج علمي مغاير للمناهج التقليدية السابقة . أمـا السبب الثاني فهو طرافة الموضوع من ناحية ، واهميته من ناحية اخرى .

وننتقل الان الى البحث التالي وهو النظر في علاقة اللغــة بالمجتمع واثر كل منهما على الاخر .





الفصل الرابع

اللغة والمجتمع

١ ـ الشكل والوظيفة :

لقد رأينا سابقا أن اللغة يمكن ، بل يجب ، أن تدرس من زوايا عديدة وقد تعرضنا في الفصل السابق الى تلك الدراسات التي يتعاون على القيام بها علماء اللغة وعلماء النفس والتي تتناول بوجه خاص علاقات اللغة بالعمليات الفكرية ، اي التي تهدف الى محاولة التوصل الى ما يحدث في الدماغ عندما يتكلم الانسان وعندما يسمع كلام غيره ، والى معرفة كيفية اكتساب الطفل للغة والى تحديد الصفات الخاصة بلغة البشر والتي تميزها عن لغات الحيوانات المختلفة .

ونحن عندما نقوم بدراسة اللغة نفسها ، يمكننا ، بل ينبغي ، أن نفعل ذلك من زاويتين :

الزاوية الاولى : هي التي تتعلق بالشكل او بالبنية الظاهرة ، اي بالطرق أو القواعد التي تستخدم في اللغات المختلفة لتنظيم أصوات اللغة ومفرداتها بحيث تؤدي المعاني المطلوبة . وهذه الناحية هي التي تطرق لها معظم اللغويين القدامى ، وان كان الدارسون المعاصرون قد اتجهوا بها اتجاهات مغايرة ، كما سنرى في الفصل القادم .

اما الزاوية الثانية : فهي التي تتعلق بالوظيفة او الوظائف التي تؤديها اللغة في المجتمعات البشرية ، وبعلاقة اللغة بالمجتمع : كيف تؤثر فيه وكيف يؤثر فيها ، وما يطرأ على كل منهما من تغيير وتطور نتيجة لذلك ، الخ . وقد كان كل من هذه الموضوعات يدرس في السابق على حدة ، وفي ابواب متناثرة هنا وهناك ضمن

اطارات علوم أخرى غير علم اللغة . امـا الوضع الحاضر فهو أن العلماء المعاصرين يحاولون ان يجمعوا تلك الموضوعات ويضعوها في اطار موحد متصل اتصالا وثيقا بعلم اللغة ، كما يسعون الى أن يتوصلوا الى بعض القوانين العامة التي تتحكم في الاستعمال الفعل للغة في مجتمع معين أو في جميع المجتمعات . ويتعاون عدد مـن العلماء المختلفون في اهتماماتهم ، واهمهم هنا علمـاء الاجتماع والانثروبولوجيا مع علماء اللغة في التوصل الى ما يريدون .

ونظرا لحداثة عهد **بعض** الابحاث في هذه الناحية الثانية ، من جهة وطرافتها من جهة ثانية ، فسنقدم النظر فيها على الدراسات اللغوية المحضة ، ونحاول التعرض لاهمها في هذا الفصل ، بينما نرجىء النظر في الناحية الاولى الى الفصل التالي .

٢ ـ وظائف اللغـة :

لقد كان الاتجاه السائد قديما يؤكد ان اللغة وعاء **للفكر** وان وظيفتها هي التعبير عن الفكر البشري سواء كان متعلقا بأمور عقلية محضة ام بالعواطف والاحاسيس والرغبات الانسانية . وسنرى بعد قليل أن هذا التعريف لوظيفة اللغة فيه كثير من التحديد من ناحيته ، كما أن العلاقة بين اللغة والفكر ليست واضحة تمامـا ولكنها على كل حال ليست علاقة في اتجاه واحد .

أما المحدثون فكثير منهم يفضلون أن يقصروا وظيفة اللغة على **الاتصال** (Communication) ولكن كلمة « اتصال » فيها كثير من غموض الدلالة بحيث لا نعلم ان كان بامكانها أن تشمل كثيرا من الوظائف اللغوية الكثيرة التي تبدو ذات طابع اجتماعي بالدرجة الاولى . كما انها يمكن أن تشمل فعلا وسائل الاتصال الاخرى غير اللغوية التي يستخدمها الانسان كالاشارات وتعبيرات الوجـه واللمس والحركات الجسمانية الاخـرى بالاضافة الى شمولهـا لوسائل الاتصال الاخرى التي تستخدمها الحيوانات المختلفة .

وربما كان أفضل ما نفعله هنا لكي نأخذ فكرة شاملة عما يمكن ان تقوم به اللغة هو ان ننظر في اللغة على إساس انها مظهر من مظاهر السلوك الانساني ، ان لم تكن أهم تلك المظاهر جميعا نظرا الى أننا نضطر في معظم الاحيان لاستعمالها لترافق مظاهر السلوك الاخرى غير اللغوية وتتفاعل معها . وهذا هو ما فعله **ادوارد هول** في كتابه « لغة بغير كلام » ، الذي قسم فيه مظاهر الحياة المختلفة الى عشرة انواع يتفاعل كل مظهر منها مع التسعة الاخرى لتكون معا تلك الشبكة المتداخلة من العلاقات الانسانية . وقد وضع اللغة على راس هذه المظاهر جميعا (١) .

(أ) ان اولى الوظائف اللغوية أو مظاهر السلوك اللغوي تلك التي تشبه الى حد كبير ما تؤديه الحيوانات من الاصوات والحركات الجسمانية ، هي استعمال اللغة **للتحية** بأنواعها ، ولاظهار **التأدب والتلطف** ، وذلك في المناسبات الاجتماعية المختلفة كمناسبة اللقاء ، والجلوس معا في مكان واحد ، والحفلات الاجتماعية وما شابهها . فأنت ترى أو تقابل أحد الجيران أو المعارف صباحا فتقرئه السلام المعتاد ويرد هو السلام بالشكل التالي مثلا :

- صباح الخير
- صباح الخير
- كيف الحال
- حسن ، الحمد لله

وينتهي الحديث ويذهب كل منكما في سبيله . ويمكن بالطبع أن تستعمل تعابير اخرى مختلفة ولكنها كلها تؤدي نفس الوظيفة . فما هي هذه الوظيفة ؟ وهل نفهم من هذه التعابير معانيها الحرفية مثلا ؟ لنفترض ان جارك هذا كان في ازمة مالية أو في حالة نفسية سيئة لأي سبب من الاسباب ، فهل يختلف اجاباته عما ذكرناه ؟

(١) Edward Hall : The Silent Language, (N.Y. Doubleday), several impressions.

ربما اختلفت بعض الشيء ، كأن يجيب عن سؤالك عن حالـه قائلا : **ماشي الحال ، الحمد لله** . ولكن ليس من المنتظر أن يجيبك قائلا : **زي الزفت** مثلا . فعباراتك وعباراته اذا تكاد تكون عبارات مقننة أو « كليشهات » متعارفا عليها في المجتمع الذي تعيش فيه انت وجارك لا تعني أي منها بالفعل ما تعنيه كلماتها حرفيا ، اذ ليس هذا هو المقصود منها .

ان القصد من مثل هذه العبارات ، ومن الاحاديث عن الطقس ، ومن الاحاديث التي تدور في الحفلات التي يجتمع فيها من الناس من لا يعرف بعضهم البعض الاخر معرفة جيدة أو انهم يعرفون بعضهم بعضا معرفة جيدة ولكنهم يجتمعون بشكل متكرر جدا لدرجة أنهم لا يجدون موضوعا مهما يتحدثون فيه ــ ان القصد من هذه الاحاديث على ما يبدو لا يعدو أن يكون اقامة العلاقات الاجتماعية أو تأكيد تلك العلاقات وتمتين أواصرها . فوظيفتها الاولى اذا وظيفة اجتماعية ،اذ ليس فيها من الافكار أو المعلومات ما هو هام يحتاج الى توصيل من فرد الى اخر .

وهذا لا يعني بالطبع ان هذه الوظيفة قليلة الاهمية ، بل انها في الواقع احد الاسس التي يقوم عليها الشعور بالانتماء الاجتماعي . فانت تشعر في الحال بانك قريب الصلة جدا من انسان يجلس الى مائدة أخرى وأنتما في بلد أجنبي عندما تسمعه يتكلم لغتك ، بينما جميع الاخرين يتكلمون لغات أجنبية . كما انك تشعر حتى وانت في بلدك بقوة تجذبك نحو انسان يتكلم **اللهجة** المحلية التي تتكلمها انت وهكذا . ان مثل هذه الروابط ومثل هذا الشعور هي التي تشد أفراد مجتمع معين بعضهم الى بعض ، وان قوة تماسك ذلك المجتمع أو ضعفه يتوقفان على قوة تلك الروابط او ضعفها .

والعبارات المختلفة المستخدمة للتحية وتلك المستخدمة للتأدب عند مخاطبة الغير لها وظيفة اجتماعية اخرى . فهي في كثير من الحالات تدل على الطبقة الاجتماعية أو المركز الاجتماعي الذي

يشغله كل من المتكلم والمخاطب على السواء كما تدل على العلاقة الاجتماعية بينهما ، مما سنأتي على ذكره في مناسبة قريبة .

(ب) وشبيه بهذه الوظيفة اللغوية استعمال اللغة في الطقوس الدينية والاوردة والادعية من ناحية واستعمالها في طقوس السحر والشعوذة الخ من ناحية اخر ى. ففي الحالة الاولى تكون وظيفة اللغة الاساسية هي اقامة أو متابعة الاتصال بالخالق ، كما تكون لها وظيفة فرعية هي تمتين أواصر الصلة بين ابناء ذلك المجتمع الذي يدين بدين معين . فان اللغة التي تستعمل في المراسم الدينية لا يهم معناها الحرفي بقدر ما يهم مجرد استعمال صيغ معينة موحدة متعارف عليها بين أفراد المجتمع الواحد . ونحن هنا لا نتكلم فقط عن لغة الكتب السماوية فهذه بطبيعتها ثابتة لا تتغير يحاول المجتمع بكل طاقته المحافظة عليها دون أي تغيير ولكنا نشير الى اللغة التي هي من وضع الانسان كلغة الاذان والصلاة في الاديان المختلفة وخطبة الجمعة أو الاحد ولغات المناسبات المختلفة كعقد القران والانفصال والوفاة والدفن والتعزية والتهنئة ، واللغة المستعملة في القسم ، ولغة السؤال ، واستفتاح الكلام او الكتاب ثم لغة الصوفية والزاهدين ثم لغة المشعوذين واضرابهم .

وهذه اللغات تتميز عادة ببعض مميزات خاصة كاستعمال الكلمات الغامضة والقديمة والاستفادة من الامكانيات الصوتية للغة لاضفاء الجرس الموسيقى عليها ، واستعمال الرمز والمجاز على نطاق واسع . كما انها تتميز بصفة هامة جدا هي المحافظة الشديدة بحيث يستمر نص معين قيد الاستعمال أحيانا لمئات السنين بدون تغيير أو تبديل . وبسبب قلة اهمية المعنى الحرفي لعبارات هذا الاستعمال اللغوي يصل الامر الى استعمال لغة غير معروفة في العصر الحاضر لغة للمراسم الدينية كاستعمال اللاتينية حتى عهد قريب في الطقوس الدينية لجميع الطوائف المسيحية الكاثوليكية — وقد كانت تستعمل لجميع الطوائف المسيحية لمئات السنين — واستعمال السنسكريتية للطقوس الدينية الهندية ، والقبطية

للطقوس الدينية المسيحية في مصر والعربية للطقوس الدينيـــة للمسلمين الذين لا يعرفون اللغة العربية .

فوظيفة اللغة هنا اذا مرتبطة بالعلاقة الشخصية بين العبد وربه من ناحية كما انها تدل على انتماء الفرد لاسرة دينية معينة من ناحية اخرى . فقول احدهم « السلام عليكم » أو « بسم الله الرحمن الرحيم » أو « لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم » تدل في الحال على انتمائه الى مجتمع اسلامي ، بينما قول اخر « الرب حافظك » أو « باسم الاب والابن والروح القدس » تدل دلالة مباشرة على الانتماء الى مجتمع مسيحي ، وذلك بغض النظر عن المعنى الحرفي لاي من هذه العبارات .

(ج) ثم هنالك استعمال آخر للغة في مناسبات رسمية وبعضها ذات طابع ديني أو قانوني ايضـــا كالمحاكمات والبيـــع والشراء والزواج والطلاق . الا أن وظيفة اللغة هنا لا هي اجتماعية صرفية ولا هي شكلية قليلة المعنى ، ولا هي في نفس الوقت نقل المعلومات أو الافكار . فعندما يعقد قران أحد الناس ويقول وكيل الفتـــاة مثلا « زوجتك وانكحتك موكلتي .. الخ » ويجيب العريس أو وكيله قائلا : « قبلت زواج موكلتك .. الخ » فان لكلام كل منهما وقع الفعل ، فقد تم عقد القران بمجرد نطقهما بتلك العبارات امام الشهود . ونفس الوظيفة يؤديها الكلام المتعلق بالطلاق فحالما يقول الرجل لزوجته : « انت طالق ... الخ » فقد حرمت عليه ، وادت العبارة وظيفة الفعل . وينطبق نفس الكلام على أحكام المحاكم ، عندما ينطق القاضي بالحكم قائـــلا : « حكمت عليـــك المحكمـــة بكذا .... » .

(د) ووظيفة أخرى للغة نحاول عن طريقها السيطرة عـــلى محيطنا بشكل دائم ومنظم هي اصدار الاوامر والتحكم في تصرفات الاخرين أو السيطرة على اشياء اخرى في البيئة المحيطة بنا . وتشمل هذه الوظيفة نواحي كثيرة من حياتنا اليومية منذ ان

نستيقظ من نومنا صباحا الى أن نأوى الى الفراش مساء . ان جزءا كبيرا من اللغة التي نستعملها خلال حياتنا اليومية يتالف من نوع من الامر ــ أمر ، طلب شديد ، طلب عادي ، طلب لطيف ، رجاء ، استجداء الخ ــ نحصل بواسطته على ما نحتاج اليه من أمور مادية كطعام الافطار او الغداء الخ أو الملابس التي سنرتديها أو كالامور الكثيرة الاخرى التي نريدها أن تنفذ في نطاق أعمالنا وهكذا .

(هـ) وفي حياتنا العادية تختلط الاوامر والنواهي المذكورة في الفقرة السابقة بالسؤال عن الاشياء والـرد على السؤال باعطاء بعض المعلومات مهما كانت تلك المعلومات تافهة ، كأن تسأل زوجتك صباحا قائلا : « أين حذائي الابيض ؟ » وتجيبك زوجتك قائلة : « تحت السرير » . أو كسؤال أحدهم عن الوقت واجابته بأن الساعة كــذا .

وهذه احدى الوظائف الاساسية التي يشار اليهــا بوظيفة الاتصال (communication) التي ذكرناها سابقا . والواقع ان المعلومات التي تنقل من شخص الى آخر او من فرد الى مجموعة مؤلفة من عدد صغير أو من آلاف او ملايين الناس ، ليست كلهــا معلومات عادية تتعلق بأمور الحياة اليومية ، بل ان تلك المعلومات التي يتم نقلها في اجتماعات تجاريــة او اقتصادية او سياسية او علمية ذات مستوى رفيع ، هي معلومات في غاية الاهمية وتؤثـر على حياة الملايين . اما لغة الخطب ولغــة الصحف ولغــة الاذاعة والتلفاز التي تمتلىء بها حياتنا طوال النهار وبعض الليل ، فان فيها من المعلومات ما هو هام وفيها ما هو غير هام ، ولكن فيها أيضا أمر اخر غير المعلومات . فمعظم ما يقال وما يكتب في وسائل الاعلام تلك يقصد الى التاثير على البشر واقناعهم اما بشراء بضاعة او بالايمان بمبدأ أو بتغيير سلوكهم بطريقة ما أو .. أو .. الخ ففي تلك اللغة اذا كثير من التوجيه والاقناع اي كثير من محاولة التأثير على البشر ، لا مجرد نقل المعلومات اليهم .

(و) **واللغة المكتوبة** وظيفة في غاية الاهمية فعلى الرغم من ان من الممكن ان يقوم مجتمع معين بحفظ دينه وتراثه واساطيره وادبه وعاداته بالطريقة الشفوية ، اي عن طريق نقل ذلك التراث شفويا من جيل سابق الى جيل لاحق ، فان ذلك التراث معرض للضياع او التحريف والتغيير لاسباب تتعلق بالحفظ والذاكرة ، كما تتعلق بالنفس البشرية . ولكن نفس هـذا المجتمع اذا تطـور فاصبح مجتمعا معقدا وزاد تراثه زيادة هائلة بحيث لم يعد بالامكان الاعتماد على الافراد وذاكرتهم ، فان الوسيلة الوحيدة لحفظ ذلك كله هو تسجيله كتابة . والواقع ان الامة التي لم تستعمل الكتابة قط قد فقدت معظم تاريخها وتراثها . كما انه لم يعد ممكنا الان بحال من الاحوال الاعتماد على اللغة المنطوقة ، بل ان اللغة المكتوبة نفسها اصبحت لا تفـي بالغرض فقد اخـذ الناس في وقتنا الحاضـر يستخدمون الآلات الحديثة كالحاسب الآلي لتخزين هذه الكميات الهائلة من المعلومات والعلوم والاداب ومعالم الحضارة الاخرى التي يزخر بها عصرنا الحاضر ، وذلك لمصلحة الدارسين والباحثين من ابناء جيلنا الحالي والاجيال القادمة .

(ز) ولا شك ان اللغة تستعمل ايضا للتعبير عن المشاعـر المختلفة من سعادة وفرح وحزن وغضب واستياء الخ الخ ويتراوح مستوى التعبير عن تلك الاحاسيس من التصفير او الغناء دلالة على الفرح والسعادة او الشتم او التجديف دلالة على الغضب الشديد ، الى ارقى انوا عالادب من شعر ونثر . وفي معظم هذه الحالات يكون استعمال اللغة نوعا من التنفيس عما في داخل الاسان بغض النظر عما اذا كان هنالك من يسمع ذلك الكلام ام لا . ولذلك فهذه احدى الوظائف التي لا تدخل تحت تعريف اللغة كوسيلة **للاتصال** ، ولكن ربما امكن ان تشملها الوظيفـة الاخرى التي ذكرناهـا في اول هذا الكلام وهي : **التعبير عن الافكار والمشاعر الانسانية** .

(ح) وهنا ناتي الى ذكر هذه الوظيفة التي كانت تعتبر الوظيفة الوحيدة للغة والتي لا زالت تعتبر من اهم وظائفها الا وهي :

التعبير عن الفكـر . وربما كان مـن طريف ما يذكر هنا ان هنالك وظيفة مناقضة لهذه وهي استعمال اللغة لاخفاء الفكر او لاخفـاء الفقر الى الافكار . وهذا الاستعمال شائع في لغة السياسيين وفي لغة الخارجين على القانون فيما بينهم وفي الكلام المحرم اجتماعيـا (taboo) وفي هذه الحالات اما ان يستعمل كلام كبير لتغطية افكار هزيلة او تستعمل عبارات خاصة معناها الخارجي غير مقصود بل هي تشير الى معان أخرى متفق عليها بين افراد فئة معينة من الناس أو تستعمل عبارات لطيفة مهذبة مكان عبارات لا يستسيغ المجتمع استعمالها . ، وسنأتي على تفصيل أكبر لهذه الحالات فيما بعد .

ان وظيفة اللغة في نقل الافكار من اهم وظائفها جميعا ومنذ اختراع الكتابة وتسجيل الافكار بها تمكن البشر من نقل تلك الافكار عبر القرون وكانت نتيجتها هـذه الحضارة المتقدمة جدا التـي يعيشها عدد كبير جدا من سكان العالم اليوم .

ليس هنالك اذا خلاف على هذه الوظيفة . ولكن هنالك خلافا كبيرا على علاقة اللغة بالفكر ، وهي العلاقة التي تستحق ان تتناولها بشيء من التفصيل في الفقرات التالية .

ويكفي هنا أن نلخص ما مضى من الكلام فنقول ان وظائف اللغة متعددة ، وأن لها بالاضافة الى الوظائف الهامة الاخرى ، وظائف اجتماعية في غاية الاهمية تتطلب منا ان نتعرض للعلاقات المختلفة التي تقوم بين اللغة والمجتمع لنرى اثر كل منهما على الاخر ، وهذا ما سنفعله في هذا الفصل ان شاء الله .

ولكن لنبدأ اولا بجلاء الامر بالنسبة لعلاقة اللغة بالفكر .

٣ ـ اللغة والفكـر

لقد ذكرنا قبل قليل أن اللغـة وسيلة للتعبير عـن المشاعر والاحاسيس الانسانية وهذا يعني اننا افترضنا وجود تلك المشاعر والاحاسيس اولا ثم التعبير عنها بوساطة اللغـة بعد ذلك . فهل

يمكننا ان نقول نفس الكلام عندما نذكر ان اللغة وسيلة للتعبير عن الفكر ؟ اي هل هنالك فكر مجرد لا يعتمد على اللغة ؟ أم أن اللغة والفكر شيء واحد ؟ أم ان اللغة هي التي تحدد مسار الفكر وترسم له حدوده ؟

ليس هنالك جواب قاطع على اي من هذه الاسئلة حتى يومنا هذا . وقد اتخذ الباحثون المختلفون مواقف مختلفة ، واحيانا متعارضة ، من هذا الموضوع . فعلماء النفس من اتباع **المدرسة السلوكية** مثل **جون واتسون** (John Watson) كانوا لا يميزون بين **اللغة والكلام** بل يعتبرون اللغة هي الكلام (المنطوق فعلا) وقد اعتبروا التفكير نوعا من الكلام الداخلي المنطوق على مستوى الحنجرة فقط ، كما أن سكينر (Skinner) المشار اليه سابقا كأحد رواد علم اللغة النفسي كان يعتبر التفكير نوعا من السلوك البشرى ، كالسلوك اللغوي تماما ولذلك فقد قال بعدم جواز التمييز بينهما على أنهما شيئان مختلفان .

هذه احدى وجهات النظر التي لم تثبت طويلا للنقد والتجريب . فقد تبين بالتجربة العلمية أن شل حركة جميع اعضاء النطق بوساطة مخدر مثلا قد اثر على النطق فأوقفه كلية ولكنه لم يترك اي اثر على القدرة على التفكير . هذا من الناحية الجسمانية . أما من الناحية اللغوية فقد اثبت **دوسوسير وتشومسكي** وغيرهما ، أن اللغة نظام تجريدي يشارك فيه ابناء المجتمع الواحد ، اما الكلام الفعلي فهو واحد فقط من مظاهر القدرة اللغوية الكاملة ، وربما كانت هنالك مظاهر لا تقل اهمية عن الكلام كالفكر مثلا الذي يستفيد حتما فائدة كبيرة جدا من ذلك النظام الذي يتمثل في اللغة .

أما وجهة النظر المعارضة فتتمثل في نظريات **هردر** (Herder) وهمبولت (Humboldt) وغيرهما في اوروبا ، **وسابير** (Sapir) في امريكا التي تقول بأن للغة تأثيرا كبيرا على الطريقة التي يفكر بها

أفراد المجتمع الذين يتكلمون تلك اللغة والتي تختلف عن طريقة تفكير أفراد مجتمع اخر يتكلمون لغة أخرى . ولكن هؤلاء جميعا لم يوضحوا بشكل صريح آراءهم في نوع العلاقة بين اللغة والفكر . أما صاحب النظرية الواضحة بالنسبة لهذه العلاقة فهو **بينامين لي وورف** (Benjamin Lee Whorf) الامريكي ، تلميذ سابير ، الذي طلع من دراسته للغات الهنود الحمر في أمريكا ومقارنتها باللغات الاوروبية الحديثة ، بالنظرية أو الفرضية المعروفة باسمه (Whorf Hypothesis) والتي تقول ان البنية اللغوية او التركيب اللغوي هو الذي يحدد الفكر ويسيطر عليه سيطرة كاملة ، ولذلك فان معرفة البشر بهذا العالم وتجاربهم فيه ونظرتهم اليه ومواقفهم منه تختلف باختلاف اللغات التي يتكلمونها . اي ان العالم كما يراه البعض يختلف عن العالم كما يراه البعض الاخر ، اذا كان كل من المجموعتين او المجتمعين يتكلم لغة مختلفة . وقد أعطى صاحب النظرية امثلة كثيرة من بنية الافعال بشكل خاص في احدى لغات الهنود الحمر المسماة (Hopi) وقارنها ببنية الفعل في اللغة الانكليزية واستنتج من ذلك ان نظرة كل من المجتمعين الى **الزمن** مثلا تختلف اختلافا جذريا عن المجتمع الاخر . ولعل أوضح مثل اعطاء **وورف** تأييدا لاثر اللغة على الفكر هو ما اتى به من واقع عمله كمسؤول في احدى شركات التامين اثناء بحثه عن أسباب الحرائق . فقد لاحظ ان العمال كانوا يعاملون براميل النفط **الخالية** بدون مبالاة بينما كانوا حريصين جدا في تعاملهم مع البراميل **المليئة** بالنفط . وبذلك كان هؤلاء العمال يتجاهلون الواقع المؤلم وهو أن بعض تلك البراميل كانت **مليئة** بالفعل ، ولكنها لم تكن مليئة بالنفط ، بل بالابخرة والغازات التي يخلفها النفط عند تفريغه منها . وفي راي وورف ان الذنب في هذه الحالة يقع على كلمة **خالية** اي على **اللغة** التي اثرت في طريقة تفكير العمال فجعلتهم يتصرفون بذلك الشكل . وهذه النظرية في النهاية تعني أنه لا وجود للفكر بدون اللغة ، وهي بهذا تتفق مع النظرية السابقة .

ولكن هذه النظرية ، او هذا الشكل المتطرف من النظرية ، لم يثبت كذلك امام النقد والتجربة . فمن الواضح ان هنالك فكرا بدون لغة بدليل توفر الانتاج الفني من رسم ونحت وتصوير وموسيقى دون حاجة للغة . كما أن بعض العلوم الفعلية كالرياضيات والمنطق الرمزي مثلا تقوم حاليا على رموز لا كبير علاقة لها باللغة التي نستعملها . ولكن حتى هذه الامور اذا أردنا الكلام عنها فانا نحتاج الى اللغة التي لا غنى لنا عنها في مثل هذه الاحوال . ان ذلك النتاج الفني والذهني من عمل افراد معدودين جدا ذوي مواهب خارقة في ناحية من النواحي ، الا أنه بالنسبة للاغلبية العظمى من الناس ، فليس باستطاعتهم التفكير ، بمعنى التأمل ، في حدود أبعد مما تسمح به قدرتهم اللغوية . وعلى الرغم من ان من الواضح ان للغة تأثيرا على طريقة تفكير الفرد الذي يتكلم لغة معينة ، الا أن العلاقة بينهما ليست واضحة كأن يتكون الفكر أولا ثم تتبعه اللغة المعبرة عنه أو بالعكس . ويبدو أن من الاسلم القول بأن اللغة والفكر يعتمد كل منهما على الاخر الى حد كبير فنحن لا نستطيع أن نفكر أبعد من قدرتنا اللغوية ، كما أننا لا نستطيع ان ننطق بمالا نستطيع التفكير فيه .

٤ ـ اللغة والحضارة : (١)

ان النظريات السابقة عن العلاقة بين اللغة والفكر لا تخص الفرد وحده وطريقة تفكيره ونظرته الى العالم ، ولكنها تمتد لتشمل حضارات بأكملها . فقد حاول كثير من المفكرين ان يربطوا بين طبيعة التركيب الصرفي والنحوي للغة ما وبين طريقة تفكير المجتمع الذي يتكلم بتلك اللغة ، فربطوا بين ذلك التركيب او تلك البنية

---

(١) تستعمل هنا كلمة حضارة مرادفة لكلمة (culture) باللغة الانكليزية وبالمعنى الواسع جدا الذي يضفيه عليها علماء الانتروبولوجيا في العصر الحاضر بحيث تشمل « طريقة او اسلوب الحياة بجميع مقوماتها وتفاصيلها » .

وبين الفلسفة ومظاهر التفكير الاخرى التي انتجها وينتجها ذلك المجتمع . مثال ذلك أنهم حاولوا تفسير مميزات الفلسفة الالمانية على أساس الطبيعة الخاصة لبنية اللغة الالمانية كما قالوا ان اللغة التي تتبع فيها الصفة الموصوف كاللغة الفرنسية واللغة العربية مثلا تشير الى مجتمع متعود على طريقة التفكير الاستنتاجي (deductive) بينما تدل اللغة التي تسبق فيها الصفة الاسم الموصوف كاللغة الانكليزية مثلا على أن المجتمع الذي يتكلم تلك اللغة يفكر بطريقة استقرائية (inductive) وقالوا أيضا ان اللغة التي لا يميز التركيب الصرفي والنحوي فيها بين الحدث والفاعل والاشياء كما تفعل اللغة الانكليزية مثلا تشير ، كما هو الحال في بعض لغات الهنود الحمر ، الى أن المجتمع الذي يتكلم تلك اللغة مجتمع يؤمن بالقدرية اي يعزو كل ما يحدث للقدر دون أن يحاول فهم الاسباب والمسببات . بل ذهب بعض هؤلاء الى القول أن المجتمع الذي لا تتوافر في بنية الافعال في اللغة التي يتكلمها ما يدل على الزمن ، مجتمع لا يعير الزمن اي اهتمام ، وان المجتمع الذي لا تتوافر في لغته مصطلحات محددة خاصة بالعمليات المنطقية مجتمع لا يستطيع ان يقوم بالتفكير المنطقي أو بالتفكير العلمي المعقد .

وكما هو الحال بالنسبة لعلاقة اللغة بتفكير الفرد والتي قلنا أنها علاقة متبادلة اي أن اللغة والفكر يؤثر كل منهما في الاخر بشكل من الاشكال ، فان العلاقة بين اللغة وحضارة المجتمع تبدو شبيهة بذلك . فقد دلت التجارب والابحاث التي ما زالت تجرى على هذه العلاقة ، بأن اللغة لا تسيطر سيطرة كلية على أي مظهر من مظاهر الحضارة . كما ثبت بطلان القول أن نوع اللغة اعرابية كانت أم لاصقة أم مفردة أم مركبة (١) هي التي تحدد نوع الحضارة التي يعيشها مجتمع معين ، بل ان من المعروف أن مجتمعات تتكلم

---

(١) انظر انواع اللغات صفحة ٢٧٥ بادناه .

نفس **النوع** من اللغــات ، كالاتــراك وبعض الهنــود الحمر الذين يستعملون لغات لاصقة مثلا ، تنتمي الى حضارات **مختلفــة** تمام الاختلاف ، وهذا ينطبق على الانواع الاخرى كاللغات الاعرابيــة (اللاتينية والعربية مثلا) وغيرهما . كما ان المجتمعات التي تتكلم لغات من انواع مختلفة يمكن ان تشارك في نفس الحضارة ، كما حصل بالنسبة للحضارة العربية الاسلامية مثــلا ، وعكس هذا صحيح أيضا ، فمن الممكن ان تستعمل مجتمعات تنتمــي الــى حضارات مختلفة لغة واحدة ، كما هو حاصل في الوقت الحاضر مثلا بالنسبة للغة الانكليزية . ان هذه الحالات جميعا تبين أن من الخطأ استعمال امثلة فردية تختلف فيها لغة عن اخرى للتعميم على اللغة والحضارة والعلاقة بينهما وللقول بان **لغة مجتمع معين هي التي تحدد الاطار الذي لا يمكن لذلك المجتمع ان يرى العالم الا من خلاله** ، كما قال عدد من كبار المفكرين في العصر الحاضر من امثال الفرد كورزبسكي (١٨٧٩ــ١٩٥٠) (A. Korzybsky) الذي كان يقول ان « الخريطة لا تمثل الرقعة الارضية كلها » أي ان اللغة لا تمثل كل ما يشمله هذا العالم من اشياء وما يحدث فيه من احداث .

وقد كان **سابير** احد رواد علم اللغــة الحديث في القــرن الحالي ، من اكبر انصار هذه النظرية القائلة بأن اللغة هي التي تجعل مجتمعا ما يتصرف ويفكر بالطريقة التي يتصرف ويفكــر فيهــا ، وان ذلــك المجتمــع لا يستطيــع رؤيــة العــالم الا مــن خــلال لغتــه ، وان تلك اللغــة بمفرداتهــا وتراكيب جملهــا محدودة في ذاتهــا ، ومحددة لنظــرة المجتمــع الــذي يتكلمها للعالم وللحياة ، فهو مثلا يقوله بكل وضوح في احدى المناسبات :

« البشر لا يعيشون في العالم المادي وحده ، ولا يعيشون فقط في عالــم النشاط الاجتماعي بالمفهوم العــادي ، ولكنهم في الواقع واقعون تحت رحمة تلك اللغة المعينة التي اتخذوها وسيلة للتفاهم في مجتمعهم . حقيقة الامر ان **العالم الحقيقي** مبني الى حد كبير على العادات اللغوية لمجتمع معين ، كما انه ليس في العالم

لغتان تتشابهان تشابها كبيرا الى درجة اعتبارهما تمثلان نفس الواقع الاجتماعي ، ان **العوالم** التي تعيش فيها المجتمعات المختلفة **عوالم مختلفة** ، لا مجرد عالم واحد نسميه اسماء مختلفة » (١) .

وقد كان بنيامين وورف ، كما راينا ، من نفس راي استاذه سابير ، بل انه كان اوضح منه في ايمانه بنفس النظرية التي تقول بأن الانسان اسير لغته ، فهو يستنتج بعد دراسة مطولة للموضوع :

« ان اللغة ليست مجرد وسيلة للتعبير عن الافكار ، بل انها هي نفسها التي تشكل تلك الافكار .. فنحن نقسم الطبيعة (او العالم) بموجب الخطوط التي ترسمها لنا لغاتنا القومية » (٢) .

لقد اجريت دراسات كثيرة واجريت تجارب عديدة بعضها يثبت وبعضها ينقض سيطرة اللغة على الحضارة وعلى طريقة تفكير المجتمع ، وكلها تجارب ودراسات ممتعة ، الا ان المجال لا يتسع لذكرها هنا ، كما ان ايا منها لم تستطع ان تؤكد النظرية او تدحضها كلية بشكل لا يدع مجالا للشك .

ان الراي السائد الان هو ان النظرية متطرفة جدا عندما تعزو سلوك الفرد وتفكيره وسلوك المجتمع وتفكيره للغة التي يتكلمها سواء من حيث المفردات التي تشتمل عليها او التراكيب اللغوية التي تتميز بها . وان الواقع هو ان لغة مجتمع ما في وضعها الحالي **تساعد** الفرد والمجتمع على التفكير والنظر الى العالم بطريقة ما ، ولا **تساعد** ولكنها **لا تمنع** من التفكير والتصرف بطريقة او طرق اخرى . اي ان اللغة في اية فترة زمنية ما هي الا

---

(١) هذه العبارات وردت في المثال التالي E. Sapir : "The Status of Linguistics as a Science", LANGUAGE, vol. 5 (1929), pp. 207-214.

(٢) انظر آراء بنيامين وورف في مجموعة مقالاته :
B. Lee Whorf : Language, Thought and Reality, (M.I.T. Press), 1956.

انعكاس لاهتمامات المجتمع الذي يتكلمها ، فهي تفي باحتياجات المجتمع واهتماماته بشكل مرض جدا . فاذا انتقل المجتمع من حال الى حال كأن يكون أميا فيتعلم ، او يكون مجتمعا زراعيا فيتحول الى مجتمع صناعي ، او يكون مجتمعا منعزلا فتنفتح امامه آفاق الاتصال بمجتمعات أخرى ، لم تقف اللغة حائلا دون ذلك التحول ، بل ان في كل لغة امكانيات للتطور والتغير بحيث تتمشى مع احتياجات واهتمامات المجتمع الجديدة .

ولذلك فان من المستحسن النظر الى اللغة على انها يمكن ان **توجه** الفرد للنظر الى العالم وللتفكير بطريقة معينة يتشابه فيها افراد المجتمع الواحد الذين يتكلمون نفس اللغة . الا انه لا يمكن التسليم بأن اللغة هي التي **تقرر** او **تحدد** طريقة التفكير او طريقة السلوك للفرد او للمجتمع .

كما ان من الخطأ الفاحش القول بأن هنالك لغة **بدائية متخلفة** ولغة عصرية متقدمة . فاذا نظرنا الى ناحية **المفردات** وجدنا ان حاجات المجتمع المعين هي التي تفرض نوعية المفردات المتوافرة في اللغة وعددها . وربما كانت اعداد المفردات الاجمالية في اللغات التي تتكلمها المجتمعات التي ندعوها متحضرة اكبر منها في اللغات التي تتكلمها مجتمعات بدائية ، الا ان نوعية المفردات لا تتمشى مع هذا الكلام فعدد المفردات التي تدل على انواع الثلج المختلفة في لغة الاسكيمو مثلا اكبر منها في اية لغة حديثة أخرى . وهذا ينطبق على المفردات الدالة على الماشية في لغة **الماساي** في افريقيا او المفردات العشرين التي تدل على الارز في الفليبين او مئات الكلمات الدالة على الجمل حتى في اقدم اللهجات العربية .

اما من حيث **طرق تركيب الكلمات والجمل** في اللغات المختلفة ، فالواقع كما ذكرنا ان بعض هذه الطرق **تساعد** الفرد والمجتمع على التعبير عن الافكار والاحداث المختلفة ، بينما بعضها الاخر لا يعين على ذلك مباشرة ولكن هذا لا يعني ان اية لغة غير

قادرة بطريقة مباشرة او غير مباشرة ان تحمل جميع المعاني التي يريد الفرد والمجتمع أن يعبر عنها . كما أن قانون التغير والتطور الذي نلحظه في اللغات جميعا يفعل فعلـه بشكل مستمر بحيث تصبح اية لغة قادرة على احتواء جميع ما يحتاج مجتمع معين ان يعبر عنه .

٥ ـ اللغــة والفــرد :

لا شك بأن اللغة التي يتكلمها فرد من الافراد تمثل احدى المميزات الهامة بالنسبة له . فطبيعة الصوت نفسها تحدد نوع ذلك الفرد ، فيما اذا كان طفلا أم بالغا ، ذكرا أم انثى ، شابا أم شيخا الخ . ليس ذلك فقط بل ان طبيعة الصوت بالاضافة الى عناصر اخرى تميز انسانا عن آخر ، بل تدل من هو ذلك الانسان على وجه التحديد بالنسبة لمن يعرفونه في الاصل بالطبع . بالاضافة الى ذلك فان طبيعة الصوت يمكن في كثير من الاحيان ان تحدد موقف الاخرين من صاحب ذلك الصوت فمن الاصوات ما هو حلو الجرس محبب الى النفس ، ومنها ما هو بغيض مكروه منفر ، ومنها ما يدعـو الى السخرية كما أن منهـا ما يولـد الاعجـاب والاحترام ويبعث على الطاعة الخ . وكثيرا ما يكون الصوت وحده كافيا أن يدفعنا الى نوع معين من السلوك كسماع صوت الفتاة التي نحبها ، أو الابن الذي ننتظـر وصوله بفارغ الصبـر ، او الرئيس الذي نخافه او الصديق الذي نرغب في رؤيته . فكل من هذه الاصوات يدفعنا الى سلوك يختلف قليلا او كثيرا عن غيره .

هذا من ناحية طبيعة الصوت التـي تخلق معنـا وتتطور بيولوجيا في اثناء نمونا ، ولكن في لغـة كل فرد عناصـر اخرى تميزها عن لغة كل فرد آخر ، حتى لنستطيع القول بأن لكل فرد في المجتمع اللغوي لغته الخاصة به . ففي لغة كل فرد خصائص تشير الى مركزه الاجتماعي او تشير على الاقل الى ذلك القطـاع او تلك الطبقة الاجتماعية التي ينتمي اليها ، وربما كان فيها ايضا

مما يدل على القطاع المهني الذي ينتمي اليه ، بالاضافة الى أن في لغة كل منا عبارات تتكرر بشكل دوري منتظم تقريبا وتدل على هوياتنا كقول واحد ممن اعرفهم : « سامع ، فاهم ، عارف ؟ » كل بضعة جمل . أو ترديد احدنا لعبارات مثل : « واخد بالك ؟ خليك معايا ؟ بتعرف ، مش عارف ايه ، وبعدين » ، أو عبارات اخرى اكثر تحديدا لهوية كل منا من هذه .

كما أن طريقة كلام كل منا تختلف عن الاخر ، فبعضنا يتكلم بسرعة كبيرة ، والبعض الاخر ببطء شديد ، والاخرون بين هـذه وتلك . وبعضنا يسعل سـعلة خفيفة كل جملتـين او ثلاث ، أو يتردد في كلامه كثيرا ، او يلثغ في احد الاصوات أو يفأفيء أو يكثر التمتمة أو لا يتكلم بشكل واضح ، الى غير ذلك من الصفات الفردية التي تجعل احدنا يعرف صوت صديقه او أحد معارفـه حالمـا يسمعه سواء رأيناه أم لم نره .

وعلى الرغم من ذلك كله ، فان هذه الصفات المميزة للغـة الفرد لا تجعل من كلامه لغة خاصة لا يفهمها الغير . بل الواقع ان كلام هذا الفرد ، رغم تميزه عن كلام غيره من الافراد ، يشترك مع غيره في تلك الصفات العامة التي تميز لغة المجتمع الـذي يعيش فيه ، وهي الصفات التي تجعل من اللهجات الفردية مجرد نماذج متشابهة في الاساس ، مختلفة بعض الاختلاف ، من تلك اللغة التي يتفاهم المجتمع بوساطتها ، ولولا ان أوجه الشبه الاساسية أكثر وأهم بكثير من أوجـه الاختلاف لما أمكن التفاهم بـين أفراد اي مجتمع .

وما سبق ذكره لا يعني طبعا ان اللغة او اللهجة الفردية تبقى ثابتة رغم نمو الفرد جسمانيا واجتماعيا وثقافيا ، بل ان العكس هو الصحيح . حتى ان طبيعة الصوت نفسهـا تتغير مـع النمو الجسماني من الطفولة الى الشباب الى الشيخوخة كما ان نمـو الفرد ثقافيا على وجه الخصوص يحدث تغييرات كبـيرة جدا في

مفردات وتراكيب اللغة التي يستعملها بل وحتى في طريقة نطق الحروف وطريقة قول الجمل كما ان تغير المركز الاجتماعي للفرد ينتج عنه ايضا تغير مواز في اللغة التي يستعملها .

٦ ــ اللغــة واللهجــات :

الفرد عضو في عدة مجموعات في مجتمعه الكبير . فهو عضو في اسرته وهو عضو في مجتمع الحي الذي يعيش فيه ، وهو عضو في مجتمع القرية أو البلدة التي يسكنها ثم هو عضو في مجتمع القطر الذي يحمل جنسيته . وهو بالاضافة الى هذا عضو في جماعة دينية ربما كانت تكون اغلبية السكان أو اقلية كبيرة أو صغيرة ، كما هو عضو في طبقة ثقافية معينة سواء كان أميا او نصف مثقف او مثقفا ثقافة عالية . وهو ايضا عضو في فئة مهنية معينة بحكم عمله كأن يكون قاضيا او محاميا او طبيبا او تاجرا او مدرسا أو سمكريا أو ميكانيكيا الخ .. كما انه يمكن ان يكون باختياره عضوا في نقابة مهنية او رابطة ثقافية او سياسية او ناد خاص أو منظمة ثورية أو دينية أو سرية الخ .

والفرد بصفاته هذه يؤثر في اللغة التي يتكلمها افــراد المجتمعات الصغيرة والكبيرة التي ينتمي اليها ، كما تؤثر اللغة السائدة في تلك المجتمعات في لغته أو لهجته الخاصة . صحيح أن لغة كل من تلك المجتمعات انما هي حصيلة للغات الافراد الذين ينتمون اليها ولكن الفرد ليس حرا في استعمال اللغة التي يريدها فهو واحد من عدد صغير أو كبير من الافراد الذين يتكلم كل منهم لغته الخاصة المختلفة عن غيرها ولكنهم جميعا مقيدون الى حد كبير باللغة الوسطى المشتركة بين افراد كل من تلك المجموعات . وينتج عن هذا التفاعل بين الفرد والمجتمعات المختلفة ان يصبح هنالك عدد لا يحصى من اللغات او اللهجات التي تميز كل منها احد تلك المجتمعات الصغيرة والتي تختلف اختلافا طفيفا عن لهجة المجتمع الصغير الاخر المجاور له وعن لهجة المجتمع الاكبر الذي يضمه .

هذه هي الاوضاع الطبيعية التي تنشا في المجتمع الواحد في الاحوال العادية الخالية من الهزات الكبيرة كالحروب والغزو والهجرات الجماعية وما شابهها . وفي مثل هذه الاوضاع الطبيعية تتكون في العادة للوحدة السياسية الواحدة لهجة خاصة تعرف بها وتميزها عن الوحدات السياسية المجاورة اذا كانت تلك الوحدات تستخدم نفس اللغة ، كما هو الحال بالنسبة للبلدان العربية المختلفة .

وقد يصل الامر بهذه اللهجات ان تستقل كل منها بصفات معينة تختلف اختلافا كبيرا عن صفات اللهجات الاخرى بحيث يصبح فهمها عسيرا على غير من يتكلمونها هي بالذات فتتحول تدريجيا الى لغة مستقلة لا تستخدم في الامور الحياتية فحسب ، بل ويكتب بها الادب والعلم والقوانين والمعاهدات والمواثيق الخ الخ . ويزيد بعدها عن لهجة البلد المجاور التي تصبح هي الاخرى لغة مستقلة . وقد حدث هذا كثيرا في جميع انحاء العالم ، وهو الاتجاه السائد في التغير اللغوي خاصة في غياب سياسة واحدة او عوامل اجتماعية أو دينية اخرى تعمل على التوحيد بدلا من التفريع ، وفي غياب وسائل الاتصال الجماهيري التي يمكن أن تستخدم كأهم عنصر من عناصر التوحيد اللغوي . فمن اللغة العربية القديمة تفرعت لهجات عديدة اصبحت كل منها قبل الاسلام لغة منفصلة ، عاش منها حتى الان اللغتان العربية والعبرية . وعن اللغة اللاتينية تفرعت خمس لهجات اصبحت فيما بعد اللغات الايطالية والفرنسية والاسبانية والبرتغالية والرومانية، وعن اللغات الجرمانية الام تفرعت سبع لهجات اصبحت اليوم اللغات الهولندية والانجليزية والالمانية والدانمركية والنرويجية والسويدية والايسلندية . ومن امثلة ذلك ايضا اللهجات العربية الحديثة التي يكاد أن يصبح بعضها غير مفهوم بين افراد الامة العربية والتي لولا وجود لغة القرآن الكريم كمنصر موحد في غاية القوة ، لاصبحت كل منها لغة مستقلة كما حدث في الامثلة السابقة

والتي تحاول في الوقت الحاضر أن تقرب بينها عن طريق نشر الثقافة والتعليم وعن طريق وسائل الاتصال الجماهيري وغيرها .

ولقد اهتم علماء الغرب منذ القرن الماضي بالدراسات اللغوية التاريخية وتوصلوا الى تجميع معظم لغات العالم المعروفة في سلالات لغوية ، كما اهتموا بدراسة اللهجات الحديثة وتحديد مواصفاتها وتوزيعها الجغرافي في البلد الواحد وأعدوا الاطالس اللغوية التي تبين تلك المواصفات وذلك التوزيع وتقاعسنا نحن كثيرا في هذا المضمار سواء فيما يتعلق بدراسات اللهجات العربية القديمة التي كانت سائدة في الجزيرة العربية قبل ظهور الاسلام وبعده والتي حملها العرب معهم في فتوحاتهم الى البلدان التي فتحوها ، أو فيما يتعلق بدراسة اللهجات العربية الحديثة لاعتبارنا هذه اللهجات تشويها للغة العربية الفصحى ، ولذلك فهي لا تستحق الدراسة . (١)

ان هذا النوع من الدراسة عمل شاق للغاية ويحتاج الى مجهود جبار ، خاصة وان مفهوم اللهجة نفسه غير محدد تماما . فالى اي مدى يجب أن يبلغ الاختلاف بين شكلين من اشكال اللغة الواحدة حتى يمكننا أن نعتبر كلا منهما لغة مستقلة ؟ ليس هناك جواب سهل لهذا السؤال . فهل نستعمل الفهم المتبادل مقياسا لاعتبار الشكلين لغة واحدة ؟ اذا فعلنا ذلك واجهتنا بعض الصعوبات . فالدنمركيون يفهمون اللغة النرويجية ويستطيعون الحديث بها مع النرويجيين ومع ذلك فان كلا منهما تعتبر لغة مستقلة . والمتحدثون باللغة الهندية يستطيعون التفاهم بها مع

---

(١) انظر : كتاب الدكتور ابراهيم انيس : **في اللهجات العربية** ، (مكتبة الانجلو المصرية بالقاهرة) عدة طبعات .

وكتاب الدكتور عبد الرحمن ايوب : : **العربية ولهجاتها** ، (جامعة الدول العربية : معهد البحوث والدراسات العربية) ١٩٦٨ .

المتحدثين بالاوردو ومع ذلك فان الهندية تعتبر اللغة الرسمية للهند بينما الاوردو تعتبر اللغة الرسمية لباكستان وكل منهما تعتبر لغة مستقلة وهذا ينطبق الى حد كبير على الاسبانية والبرتغالية وعلى الالمانية والهولندية في مناطق الحدود حيث تصبح كل منهما مفهومة للمتكلمين بالاخرى .

يتجه الباحثون في الوقت الحاضر الى اعتبار اللغة مرتبطة بالكيان السياسي الواحد .وهذا يمكن أن يفسر الوضع بالنسبة للدانمرك والنرويج والسويد مثلا ذات اللغات المتشابهة والمفهومة لدى سكان البلدان الثلاثة . ولكن اللغة الصينية ليست لغة واحدة في الواقع بل هي ست لغات لا يستطيع المتحدث باحداها أن يفهم ما يقوله المتحدث بالاخرى . واللغة الانكليزية يتكلمها الناس في عدد كبير من الوحدات السياسية المستقلة كالمملكة المتحدة والولايات المتحدة الامريكية واستراليا ونيوزيلندا وغيرها . فلا تعتبر كل من هذه الاشكال لغة مستقلة ، بل احدى لهجات اللغة الام .

ومهما يكن من أمر ، فان هذه الصعوبات لم تمنع الباحثين اللغويين من تقديم خدمات كبرى عديدة في أوروبا وامريكا بوجه خاص تبدو واضحة في تلك الاطالس اللغوية التي بذل في اعدادها جهد جبار . وعلى الرغم من ذلك فان اتجاه البحث هذا قد تعرض للنقد ، واصبح الباحثون يعرضون عنه لعدة أسباب ، اهمها : ان هذا النوع من البحث يفترض ثباتا في تلك اللهجات التي حددت اختلافاتها عن اللهجة الوسطى المعترف بها رسميا ، ورسمت لها حدود التوزيع على الخرائط ، مع أن الواقع طبعا غير هذا . فهنالك عوامل كثيرة تساعد على حدوث التغير والتطور في تلك اللهجات والتداخل فيما بينها بحيث يحتاج الامر الى رسم خرائط جديدة كل عدد من السنوات . والسبب الاخر يتعلق بطرق جمع المعلومات وتصنيفها ونوع العينات التي يختارها الباحثون وهل تمثل بالفعل مجموع السكان في منطقة معينة . ولماذا لا تشمل العينة عادة المثقفين من

الناس الخ . اما السبب الثالث فهو ان هذا النوع من البحث يفترض أن الافراد الذين تتكون منهم سكان منطقة معينة يتكلمون بشكل متشابه ، بينما الواقع ان كلا منهم يتكلم بشكل يختلف عن الاخر كما أن هنالك **شرائح اجتماعية** تتشابه لهجاتها ربما في داخل المناطق الجغرافية المختلفة ، بسبب طبيعة عملهـا او انتماءاتها المختلفة . ولذلك فان اللغويين المعاصرين يتساءلون عن مدى فائدة مثل هذه الدراسات من الاساس ، وفيما اذا لم تكن انواع اخرى من الدراسات أكثر جدوى ، كدراسة التوزيع والاختلاف اللغوي **على اساس اجتماعي** ، وهذا ما اتجه اليه الباحثون في السنوات الاخيرة ، وهو ما اشرنا اليه في مطلع هذا الجزء من البحث ، وما سنتطرق له في الاجزاء التالية .

وقبل ان ننهي هذا الحديث الموجز جدا عن اللهجات ، لا بد من الاشارة الى اهمية **اللغة القومية** ومكانها . ان وظيفة اللغـة القومية الواحدة التي تسعى الدولة عادة الى تعليمها لمواطنيها جميعا وظيفة هامة للغاية . فلا شك أن اللغة هي دليل هوية المجتمع وهي من أهم العناصر التي تعمل على توحيد ذلك المجتمع ، ان لم تكن أهمها جميعا . ولذلك فان الدولة تعمل على نشر هذه اللغة الموحدة حتى لو لم يستعملها المواطنون الا في الاحاديث والقراءة والكتابة الرسمية فقط ، كما هو الحال مع اللغة العربية في العصر الحاضر . ولكن دور اللغة العربية اهم من دور اية لغة قومية اخرى ، فهي عنصر يعمل ليس على توحيد أفراد مجتمع في وحدة سياسية واحدة كقطر من الاقطار او دولة من الدول ، ولكنها تستطيع أن توحد بين ابناء الامة العربية جمعاء .

لقد كان احياء اللغة القومية بعد المحافظة عليها جيلا بعد جيل في ظروف قاسية تعمل في بعض الاحيان على طمسها أو القضاء عليها ، لقد كان ذلك امرا مميزا لنشوء القوميات الحديثة . ومن أمثلة ذلك محاولة اتخاذ اللغة الهندية لغة رسمية في جميع ارجاء الهند المستقلة ، وبعث اللغة العبرية لغة رسمية ولغة حديث في

فلسطين المحتلة . ولعل أبلغ مثال على ذلك محافظة شعوب شمال افريقيا على لغتهم العربية رغم السياسات المرسومة للقضاء عليها ، ثم بعثها من جديد لغة قومية للدول المستقلة بعد أن تحررت من نير الاستعمار الاوروبي الطويل .

وكثيرا ما يبلغ الاهتمام والاعتزاز باللغة القومية مبلغ محاولة تنقيتها من الشوائب الاجنبية العالقة بها كما حصل مع اللغة الالمانية وما تحاول الاكاديميات والمجامع اللغوية أن تفعله في أماكن مختلفة من العالم .

٧ ـ اللغة والتباين الاجتماعي :

ان الاختلاف أو التنوع الاجتماعي ظاهرة واضحة تماما لا يخلو منها مجتمع من المجتمعات وتدل على هذا الاختلاف أمور كثيرة بعضها له علاقة بالحسب والنسب وبعضها له علاقة بالثروة أو المظهر الخارجي من الملابس الى الممتلكات الى طريقة التصرف وبعضها مرتبطة بالمهنة أو السن أو الجنس أو الدين الخ . كما أن على أفراد مجتمع معين ان يعرفوا الصفات المميزة لكل شريحة اجتماعية ومدى حرية الانتقال من شريحة الى اخرى ، لان الامر يختلف من حالة الى أخرى فهنالك مجتمعات لا تسمح بالانتقال من شريحة (أو طبقة) الى اخرى الا عن طريق الانتفاضات الكبيرة كالثورات وما شابهها . وهنالك مجتمعات تسمح بمثل هذا الانتقال بشكل فوضوي ، وهنالك مجتمعات تقف بين بين . كما أن بعض الانتقال يمكن أن يتم بشكل رسمي عن طريق منح الالقاب أو التعيين في مناصب حكومية أو قضائية عالية وهكذا .

واللغة عنصر هام جدا لتمييز شريحة عن أخرى ، كما أن **الانتقال** من مظهر من اللغة خاص بشريحة معينة الى مظهر آخر يمكن أن يحدث تدريجيا مع تطور الفرد ويمكن ان يحصل تشبها بشريحة أو طبقة اجتماعية تالية (وكثيرا ما يولد الهزء والسخرية) ولكنه يحدث كثيرا في المناسبات او **المقامات** المختلفة لتصبح اللغة المستعملة مناسبة لذلك المقام .

ما نقصد ان نقوله هنا هو هنالك مظاهر لغوية خاصة بشرائح اجتماعية معينة تدل على تلك الشرائح دلالة واضحة . فمن الممكن تمييز لغة الاطفال عن لغة البالغين ، ولغة المثقفين عن لغة الاميين ولغة طائفة دينية معينة عن لغة طائفة اخرى ، ولغة المدرسين عن لغة النجارين عن لغة القضاة عن لغة الارستقراطيين ، ولغة اهل المدينة عن لغة أهل الريف او أهل البادية . فللاطباء لغتهم التي تميزهم عن غيرهم ، وللمحامين لغتهم وللمهندسين لغتهم ، وكذلك للتجار ، والمدرسين والطلاب ورجال الدين ، والخبازين ، والحدادين ، والنجارين ، والشباب المراهقين لغة تميزهم عن غيرهم . هذا كله صحيح وواقع وقد جرت عليه الدراسات الكثيرة ، ولكنه ليس في الوقت الحاضر موضع الاهتمام الرئيسي للباحثين اللغويين الاجتماعيين . ان اهتمامهم يرتكز حاليا على التغير الذي يطرا على لغة الفرد في المناسبات او المقامات المختلفة . وعلى نوع هذا التغيير او الانتقال من اسلوب الى اخر واسباب ذلك الانتقال .

وكما كان الامر بالنسبة لدراسة اللهجات ، فان الباحثين في هذا الموضوع يقابلون صعوبات جمة منها تحديد الشريحة أو الطبقة الاجتماعية ومنها تحديد المقامات المختلفة ولكن علماء اللغة وعلماء النفس وعلماء الاجتماع يتعاونون في هذا المجال للتوصل الى انواع الاساليب المختلفة التي يستعملها الفرد في المقامات المختلفة ومع افراد من شرائح اجتماعية مختلفة ، وقد اتخذوا وسائل علمية يجرى تطويرها وتحسينها بشكل مستمر وتوصلوا فعلا الى نتائج لها قيمتها .

ان الاساليب اللغوية التي يستخدمها الفرد تتغير بتغير الموضوع من جهة والمشاركين في الحديث او المستمعين له من جهة اخرى . كما تتغير بفعل عوامل اخرى خارجة عن اللغة نفسها ، معظمها اجتماعي او نفسي او كلاهما معا .

لقد قام العالم مارتن جوس Martin Joos (1) بتقسيم الاساليب التي يمكن أن يستعملها الفرد الى خمسة هي :

ا ـ **الاسلوب الجامد** : وهو الذي يستعمل فيه كلام رسمي جدا لدرجة اعتبار المستمع غير موجود لانه لن يستطيع أن يؤثر فيما يقال باي شكل من الاشكال ، كاسلوب الخطب الرسمية والادعية والصلوات والاعلانات وكتلاوة الكتب المقدسة والقاء الشعر وتمثيل المسرحيات ، بالاضافة الى معظم ما ينشر مطبوعا . ان المستمع هنا سلبي لا يشارك في النشاط اللغوي وقلما يحدث ان يقاطع المتكلم .

ب ـ **الاسلوب الرسمي** : وهو اسلوب لا يشارك فيه المستمع ايضا كالخطب التي تلقى أمام جمع غفير وتكون معدة اعدادا جيدا وتقرأ بعناية بالغة ، وكعدد من برامج الاذاعة والتلفاز ، وبعض المحاضرات التي تلقى في الجامعات ـ وان كانت هذه آخذة بالانقراض بسرعة ـ فاذا استعمل هذا الاسلوب بين **الافراد** فانه يدل على المسافة الاجتماعية البعيدة بين المتكلم والمستمع ، كما يحدث عندما يكلم الموظف رئيسه الكبير أو عندما يكلم الفقير الغني أو الخادم سيده أو سيدته أو الابن اباه في الاسر المحافظة ، أو التلميذ استاذه في النظام التربوي التقليدي .

جـ ـ **الاسلوب الاستشاري** : وهو اسلوب فيه كثير من الاسلوب الرسمي ولكنه يتطلب اشتراك واستجابة المستمع ، ولا يخطط له المتكلم بعناية بالغة كما يتجنب استعمال العبارات المقننة أو الكليشهات ، بل بامكانه أن يستعمل في حديثه بعض

---

(1) انظر كتابه :

Martin Joos : The Five Clocks (Bloomington : Publication of the Research Center in Anthropology, Folklore and Linguistics), No. 22, 1962.

التراكيب والاشكال اللغوية المختصرة التـي تستعمل فـي الحديث العادي . وهذا هو الاسلوب الذي يستعمل مثلا بين حاكم ومستشاريه او وزرائه عندما يتناقشون في امور الحكم . وان كان هذا يتوقف على نوع الحكم نفسه والعلاقة بين رئيس الدولة ووزرائه . لقد كانت الملكة فيكتوريا مثلا تفضل هذا الاسلوب وكانت تكره وليم جلادستون رئيـس وزرائها رغم كفاءته واخلاصه لانه كان يستعمل معها أسلوبا رسميا جدا . ولذلك كانت تقول « ان جلادستون يكلمني وكأنه يخطب في اجتماع عام » .

د ـ **الاسلوب العادي** : وهو الاسلوب الذي يستعمله الاصدقاء فيما بينهم أو الذي يتخذه جماعة من الناس تناقش موضوعا مألوفا لديهم جميعا . وهذا الاسلوب يفترض خلفية مـن المفاهيم والمعلومات المشتركة بين المتحادثين وتستعمل فيه كثير من اللغة العامية حتى عندما يكون المتحادثون من المثقفين كما تستعمل فيه اللغة الخاصة بمهنة او فئة معينة مـن الناس اذا كان المشاركون في الحديث ينتمون الى مهنة او رابطة اجتماعية معينة . وهذا الاسلوب تكثر فيه المناقشة ومقاطعة المتكلم والتعليق المتكرر على الحديث الى غير ذلك من الامور التي تجعل اتخاذ القرارات السريعة ممكنا . كما تكثر فيه الجمل الناقصة واشباه الجمل والاجابات بكلمات مفردة أو حتى بالايماء والاشارة .

و ـ **اسلوب الالفة الشديدة** : وهو اقل الاساليب رسمية ويتألف عادة من اشباه جمل ومفردات وايماءات ، وتستعمل فيـه عادة اللغة العامية جدا ، بل كثيرا ما تستخدم فيه عبارات ومفردات خاصة بأسرة معينة ، أو بشريحة اجتماعية صغيرة جدا . ويبدو ان وظيفة هذا الاسلوب تختلف عن وظائف الاساليب الاخرى وكأن المقصود منه التعبير عن الاحاسيس او العواطف اكثر من نقله للافكار او المعلومات . وهو الاسلوب

المستعمل بين الاحباب والازواج وافراد الاسرة الواحدة ـ وان كان الوضع يختلف من اسرة الى اخرى باختلاف الحضارات المختلفة ـ والمجموعات التي تعمل عملا دقيقا هاما كمجموعة الجراحين ـ والمساعدين والمرضين المشتركين في عملية جراحية . او افراد فريق كرة القدم او افراد عصابة وامثالهم .

هذه هي الاساليب الرئيسية الخمسة التي يستخدمها الناس فيما بينهم . ولكن ليس هنالك من الناس من يستعمل احد هذه الاساليب في جميع المناسبات . ان اختيار الاسلوب او الشكل اللغوي محكوم اجتماعيا ويتوقف على نظرة المجتمع ككل الى الاشكال المختلفة من اللغة والى وظيفة كل من تلك الاشكال . ان مدى قرب الشكل اللغوي الذي يستعمله فرد من الافراد او بعده عن الشكل الوسط من اللغة ، اي الشكل المقبول اجتماعيا لدى الاغلبية العظمى من الناس وخاصة المثقفين منهم ، ومدى توفق ذلك الفرد في استعمال ذلك الشكل او عدم توفقه يعتمد على عوامل منها : خلفيته الاسرية ، الاقليم الذي ينتمي اليه ، مستواه الثقافي ومعتقداته السياسية والاجتماعية كما يتوقف على الموضوع الذي يجرى البحث فيه . ويكون ذلك الاستعمال مقبولا اذا كان مناسبا للمقام الذي يقال فيه الكلام فاذا تحدث رجل الدين باللغة العربية الفصحى في مناسبة عقد قران مثلا فان كلامه مقبول جدا ، ولكنه اذا فعل ذلك مع البقال او الجزار ، فان المقام يعتبر غير مناسب لذلك ، ويمكن ان يجد المتكلم نفسه في موضع الهزء والسخرية .

وكثيرا ما يحدث الانتقال من شكل او اسلوب لغوي الى شكل او اسلوب اخر في نفس المناسبة وفي نفس الكلام ، لكي يؤدي الاسلوب الجديد وظيفة اخرى مغايرة للاسلوب المستخدم في الكلام عموما . فالدارس لخطب الرئيس الراحل جمال عبد الناصر مثلا ـ وقد درست خطبة فعلا من هذه الزاوية ـ يلاحظ احيانا

انتقالا مفاجئا من اللغة الرسمية التي تستعمل فيها اللغة الفصحى والمعدة اعدادا جيدا الى اللهجة المصرية التي يتكلمها كل مصري بالسليقة ويفهمها بسهولة ويسر كبيرين . والهدف من ذلك في الغالب هو الاقتراب من الجماهير ، وبخاصة غير المثقفة ، التي تعجب باللغة العربية الفصحى ولكنها لا تتجاوب معها تماما . ومحاولة الوصول الى اعماق شعورها والتأثير فيه ، واشعار المستمعين بأن الحاكم « منهم وفيهم » اي انه واحد منهم يشعر معهم ويشاركهم الاحساس بما ينفعهم وما يضرهم .

وكثيرا ما يقرر المتكلم أن يستعمل أسلوبا معينا **بغض النظر عن المقام** ويكون هذا اما لاثبات هوية المتكلم وانتمائه بالنسبة للمستمعين ، وغالبا ما يكون ذلك بقصد التعالي أو اشعار المستمعين بأهمية المتكلم . أو يقرر أن يستخدم المستوى اللغوي الخاص بأبناء الطبقة أو الشريحة الاجتماعية التي تعلوه مباشرة بقصد التشبه بهم ، كان يستعمل حديث الثراء غير المثقف لغة المثقفين تشبها بهم فيعرض نفسه بهذا العمل للهزء والسخرية .

يقول لابوف (Labov) (١) ، وهو من أكثر الباحثين اهتماما بعلاقة اللغة بالمجتمع ان شعور الناس بالنسبة للانتقال أو التحول الاجتماعي له اثر كبير للغاية على الاشكال اللغوية التي يختارونها . فقد رأينا ان الناس الذين يطمحون للانتقال الى طبقة اجتماعية اعلى من طبقتهم يتخذون لغة تلك الطبقة . اما اذا كان التحول الاجتماعي قليلا جدا في المجتمع ، فان الصفة الغالبة على ذلك المجتمع هي الثبات على المعايير المستعملة بين الاغلبية . بينما يتميز التحول الى اسفل اي الى طبقة ادنى برفض كثير من الاساليب والاستعمالات المتعارف عليها ، بالاضافة طبعا الى رفض اية

---

(١) انظر كتاب :
William Labov : Sociolinguistic Patterns, (University of Philadelphia Press), 1972.

استعمالات لها علاقة بالطبقة الاعلى ، وهذه الظاهرة هي الملاحظة بين المراهقين اجمالا ، والهيبين بوجه خاص في الوقت الحاضر .

ان كل ما قلناه حتى الان عن علاقة اللغة بالتباين الاجتماعي ، لا يعني فردا معينا او افراد معينين بالذات . فان من اشق الامور التنبؤ بالتصرف اللغوي للفرد الواحد . ولكن جل ما نريد قوله ان لدى الافراد في مجتمع معين وعيا لتلك الفروق اللغوية الموجودة بين افراد المجموعات او الشرائح او الطبقات المختلفة في ذلك المجتمع . وان اولئك الافراد ، يستعملون في احاديثهم وكلامهم اساليب تختلف باختلاف المستمعين ، وباختلاف المقام ، وباختلاف موضوع البحث . وان القاعدة هي هذا الانتقال من اسلوب الى اسلوب بينما الثبات على اسلوب واحد يعتبر شذوذا على تلك القاعدة . ولناخذ بضعة امثلة اخرى على ما نقول :

في بلد كبلجيكا مثلا تستعمل لغتان في آن واحد : اللغة الهولندية واللغة الفرنسية ولكن يبدو أن هنالك انماطا منتظمة للمناسبات التي تستعمل فيها كل من اللغتين : فقد لوحظ ان موظفي الحكومة في العاصمة بروكسل الذين من اصل فلمنكي لا يتكلمون الهولندية باستمرار فيما بينهم حتى عندما يكونون جميعا متمكنين من تلك اللغة وقادرين على التحدث بها بنفس الطلاقة . فهنالك مناسبات يتكلمون فيها اللغة الفرنسية فيما بينهم . بل هنالك مناسبات يتحادثون فيها باللغة الهولندية الفصحى ومناسبات اخرى يتحدثون فيها بشكل أو بآخر من اللهجات الهولندية الاقليمية . علاوة على ذلك فان بعضهم يستعملون اشكالا مختلفة من اللغة الفرنسية فيما بينهم ، شكلا منها زاخرا بالمصطلحات الحكومية الرسمية ، وشكلا اخر يشبه الفرنسية المستعملة في

المحادثة بين المثقفين والطبقة الراقية في بلجيكا . وشكلا ثالثا هو اللغة الفرنسية العامية الخاصة بالفلمنكيين من سكان بلجيكا (١) .

وهذا القول لا ينطبق فقط على المجتمعات ثنائية اللغة اي التي تتكلم لغتين في وقت واحد كبلجيكا وكندا أو التي تستعمل ثلاث لغات كسويسرا أو عدة لغات كالهند ، بل ينطبق أيضا على المجتمعات ذات اللغة الواحدة وربما كان أوضح مثال على ما نقول هي اللغة التي ننادي أو نخاطب بها الناس وسنختار الامثلة هنا من اللهجة المصرية بشكل خاص لغزارة المفردات المستعملة فيها لهذا الغرض . فعلى الرغم من الالغاء الرسمي للالقاب في مصر واستعمال كلمة « سيادة » في الكلام الرسمي الموجه حتى لرئيس الجمهورية ، فلا زالت التعابير التالية تستعمل للخطاب والمناداة أو سابقة للاسم أو المنصب الرسمي ، بعضها يستعمل في اللغة الرسمية والبعض الاخر في لغة المثقفين ومعظمها في اللغة الدارجة وبين معظم طبقات الشعب .

فمن التعابير الرسمية التي لا زالت مستعملة التعابير التالية :

جلالة الملك ، صاحب السمو أو سمو الامير / ولي العهد ؛ فضيلة القاضي ، سماحة المفتي ، نيافة المطران ، دولة أو سعادة الوزير ، جناب المدير الخ .

---

(١) هذا الكلام ماخوذ عن جوشوا فيشمان وهو من اكبر علماء النفس الاجتماعي المعاصرين : لمزيد من الدراسة والتفاصيل انظر كتابيه التاليين :

1. Joshua Fishman : The Sociology of Language, (Rowley : Newsbury House), 1971.
2. ———— : (ed.) Advances in the Sociology of Language, (The Hague : Mouton), 1971.

وهذه لا زالت مستعملة في أكثر من بلد عربي مع بعض الاختلافات الجزئية . أما الالفاظ التالية فجميعها تستعمل في اللغة العامية المصرية للمناداة ، ويتوقف اختيار احداها على المنادي او المخاطب ، وعلى العلاقة الاجتماعية بين المتكلم والمخاطب وعلى المقام الذي يجرى فيه الخطاب ، وان من أمتع الامور دراسة تلك الظروف التي تستخدم فيها كل من هذه العبارات :

يا بيه ، يا افندي ، يا سيد ، يا سيدنا ، يا أستاذ ، يا دكتور ، يا باشمهندس ، يا كابتن ، يا حج ، يا عم / يا عمي ، يا خال / يا خالي ، يا أخ ، يا أخي ، يا اسطه ، يا ريس ، يا معلم ، انت ، يا محمد ، يا بو حميد ، يا ولد .....

وهذه جميعها تخص الذكور وهنالك عبارات خاصة بمخاطبة الناس جديا أو ممازحة أو مغازلة أو توبيخا الخ . كما أن هنالك عددا كبيرا اخر من العبارات تستعمل لمخاطبة الذكور عندما تكون الحالة النفسية للمتكلم غير عادية ، كأن يكون غاضبا او سعيدا او متضايقا الخ الخ .

ان اهتمام علم اللغة الاجتماعي بدراسة هذه الظواهر حديث العهد ولا زال في مرحلة الوصف في الوقت الحاضر ، والمأمول أن يتمكن الباحثون من مواصلة جهودهم الرامية الى تقعيد هذه الظواهر ، أي التوصل الى القواعد التفصيلية التي تحكمها .

٨ ـ اللغة والسن :

تتغير لغة الفرد وتتطور في أثناء نموه ، ولا تتوقف عن ذلك أبدا . ولكنها تكون في أوج تطورها في المرحلة الاولى من العمر . وقد رأينا سابقا كيف يبدأ الطفل بفترة المناغاة ثم ينتقل الى تكوين الجمل المؤلفة من كلمة واحدة ثم من كلمتين ثم من عدة كلمات . وفي هذه الفترة يساعد الابوان أطفالهم على التكلم بلغة خاصة هي ما تسمى « لغة الاطفال » (baby talk) كأن تستخدم كلمة « نبو » للدلالة على الماء ، « ومح » للدلالة على اللحم ، « وكخ »

للدلالة على القذارة ، « ودح » للدلالة على الشيء الجديد ، « ودادى » للدلالة على المشي وهكذا ، ومثلها الكلمات bow wow, bye bye, tummy, doggy, wabbit (= rabbit) باللغة الانكليزية . وهذه ظاهرة ملاحظة في معظم بلدان العالم ويقصد الابوان تسهيل الامور على ابنائهم باستعمالهم مثل هذه اللغة وتشجيع اطفالهم على استعمالها ، الا أن لها احيانا بعض الاضرار .

وبعد سن الخامسة او السادسة يكون الطفل قد تمكن من قواعد لغته واكتسب عددا كبيرا من المفردات قبل أن يدخل المدرسة . وهنا يطرأ على لغته تغير كبير ، فهو من ناحية يبدأ بتعلم اللغة الرسمية المقبولة اجتماعيا لدى اغلبية الناس وخاصة المثقفين منهم ، ومن ناحية اخرى يبدأ احتكاكه باقرانه من الاطفال القادمين من مجتمعات مختلفة ، وتتأثر لغته تأثرا كبيرا بما يسمعه منهم . ففي فترة الصبا مثلا نلاحظ في لغة الفتيان والفتيات كثيرا من الالفاظ المغرقة في العامية (slang) التي كثيرا ما تميز افراد مجموعة معينة عن غيرها ، وهذه المجموعات (gangs) يكثر تكوينها في هذه المرحلة وفي مرحلة المراهقة التي تليها . ثم تتطور لغة الفرد في فترة النضوج وتتخذ طابعا فيه شيء من الثبات وبخاصة بعد أن ينهي الفرد تعليمه ويتخذ مكانه في المهنة والمجتمع .

وبما أن اللغة تتطور مع سن الفرد فان لكل من تلك الاعمار صفات لغوية تميزها عن غيرها ، ويمر بها كل فرد في أثناء نموه من الطفولة حتى يصل الى النضوج الكامل . كما أن افراد المجتمع يعرفون القواعد التي تحكم استعمال اللغة في الاعمار المختلفة ، فاذا حدث أن خرق احد الافراد احدى تلك القواعد ، فان ذلك الخرق يكون واضحا للجميع وعرضة للتعليق أو النقد او الاستلطاف أو الاستهجان الخ بحسب الغرض الذي يرمي اليه خرق تلك القاعدة والاستعمال غير العادي ، كأن يتكلم رجل في الاربعين وكأنه شاب مراهق ، أو يتكلم شاب مراهق وكأنه ابن العشرين او يتكلم صبي في السابعة وكأنه طفل رضيع وهكذا .

ان تقيد الفرد باللغة الخاصة بكل سن يعمل به في المجتمعات التقليدية المحافظة اكثر من المجتمعات المفتوحة . ففي مجتمع يشجع الشباب ويحاول ان يبدو شابا باستمرار كالمجتمع الامريكي مثلا ليس من المستهجن أن نسمع ابن الاربعين يتكلم وكانه ابن الاربعة عشر ربيعا ولكن هذا ليس مقبولا في اي مجتمع تقليدي محافظ حتى في القارة الاوروبية .

٩ ـ اللغـة والجنـس :

ونقصد بالجنس هنا أن يكون الفرد ذكرا او انثى . وتختلف اللغة بعض الاختلاف بين الجنسين . فمن الفروق الملحوظة مثلا ان اصوات النساء في العادة اكثر حدة واعلى طبقة من اصوات الرجال وذلك لاسباب بيولوجية معروفة ، كما ان النساء اكثر وضوحا في النطق من الرجال واكثر منهم حرصا على النطق السليم للمفردات والجمل . والنساء ايضا محافظات في استعمال اللغة اكثر من الرجال وهذه صفة عامة تميز النساء عن الرجال ، لذلك فهن لا يتقبلن التجديد في اللغة بسهولة . وهن ايضا يكثرن من استعمال اللوازم مثل « اليس كذلك ؟ » كما يستخدمن انماطا من تنغيم الجملة تزيد في العدد عما يستعمله الرجال .

هذا من ناحية عامة ، اما فيما يتعلق بالمفردات بشكل خاص فان النساء يستعملن بعض المفردات التي لا يستعملها الرجال عادة أو يستعملن بعضا منها استعمالات تختلف عما يفعله الرجال . ومن أوضح الامثلة على ذلك استعمال النساء لعدد اكبر من الالوان مثل : الموف ، والتركواز ، والبيج ، والزهر ، واللبني الخ وهي الكلمات التي نادرا ما يستعملها الرجال . كما أن لغة النساء تزخر بالصفات التي تعبر عن قوة العاطفة سواء كانت حقيقية أم تستعمل من باب المجاملة فقط .

وتزداد هذه الفروق في الاستعمال كلما زاد انعزال المراة عن الرجل وكلما زاد انزواؤها في مجتمعها الخاص بها ؛ بينما تقل تلك الفروق كلما انطلقت المراة الى المجتمع الواسع وشاركت الرجل في حياته وعمله وافراحه واتراحه على قدم المساواة . ان دراسة لغة النساء في مجتمعاتنا العربية يجب ان تقوم على اساس كل مجتمع على حدة ، لان تلك الاستعمالات الخاصة لن تفهم الا في اطار ذلك المجتمع وباللهجة العربية المستعملة فيه ، ولكن من المؤكد انها من امتع الدراسات لانها تلقى ضوءا قويا على مكانة المراة في المجتمع ، وتطور تلك المكانة مع تطور وانفتاح ذلك المجتمع .

كما أن في كثير من اللغات ما يعتقد بانه تحيز للرجل ضد المراة . ويقولون هذا حتى عن اللغة الانكليزية ويستشهدون بقاعدة **التغليب** التي نعرفها في اللغة العربية والتي تقضي باستعمال ضمير المذكر للاشارة الى الاسماء المذكورة سابقا اذا كانت تشمل المذكر والمؤنث معا . ولكن يبدو أن هذه القاعدة موجودة في كثير من اللغات ولا يقصد بها الا تيسير الكلام والاشارة . ولكنهم يوردون من الانكليزية مفردات وعبارات أخرى تشير الى ذلك التحيز ، كقولهم : He is a professional ويقصدون بالعبارة أن الرجل ينتمي الى احدى المهن المحترمة كالطب والمحاماة وامثالها ، بينما قولهم She is a professional يشير الى أن المراة مومس محترفة كما يستشهدون بأن كلمة master مثلا تعني « سيد » بينما مؤنثها mistress تعني « عشيقة » وهكذا ، ويوردون غيرها من الامثلة . فاذا كان الامر كذلك في لغة شعب تحررت المراة فيه تحررا كبيرا كاللغة الانكليزية ـ وأن كان من الممكن تفهم كل ذلك على أسس اخرى ـ فما بالك بلغات الشعوب التي بقيت فيها المراة محرومة حتى من نور الشمس كما حدث للمراة العربية على مدى مئات السنين . لا شك أن دراسة اللغة العربية من هذه الناحية ستعطي بعض الادلة الواضحة جدا على المكانة الحقيقية للمراة في المجتمعات العربية المختلفة في فترات التاريخ المتتابعة . ولا زالت

اللهجات العامية في معظم البلدان العربية تزخر بالامثلة التي تشير الى أن نظرة الرجل الى المراة لا زالت متخلفة جدا . فلا زلنا نسمع اشارات الى الزوجة يستعمل فيها الرجل عبارات : « الجماعة » أو « اهل البيت » أو « العيال » أو حتى « بعيد عنك » ، وان كانت هذه آخذة بالانقراض مع انتشار التعليم وانفتاح المجتمعات لتدخلها المراة من أوسع أبوابها .

١٠ ـ اللغة والعرق او الجنس البشري :

لقد حاول البعض في الماضي ان يربطوا بين اللغة والجنس البشري وان يدعوا بأن لغة الشعوب الآرية مثلا من ذوى الشعور الشقراء والعيون الزرقاء لغة راقية لان من يتكلمها شعب راق متقدم عن غيره . بل اتخذوا من ذلك الادعاء بالسمو ذريعة لاستعمار البلدان الفقيرة واستعباد شعوبها الجاهلة المتخلفة عن ركب الحضارة وقد اخذ بهذه النظرية في عصرنا الحاضر النازيون في المانيا والفاشيون في ايطاليا وصنفوا الشعوب ولغاتها تصنيفهم المعروف فاتى العرب في ذيل القائمة .

لقد ثبت الان بالدليل القاطع أنه ليس هنالك مثل هذه العلاقة وان اي شعب قادر على اكتساب أية لغة من لغات الارض ، كما أنه ليس للغة فضل على لغة اخرى الا بما اكتسبته خلال العصر الحاضر من تفوق في المفردات الدالة على العلوم والتقنيات الحديثة التي تتميز بها الحضارة الغربية ، وهو فضل مؤقت ينمحي في وقت قصير اذا استطاعت اللغات الاخرى اللحاق بركب الحضارة بالسرعة المطلوبة .

ومع ذلك فانا نلاحظ في لغة المتكلمين باللغة العربية مثلا ممن هم من أصل تركي أو شركسي او ايراني او ارمني بعض المواصفات التي تميز أبناء كل من تلك الاجناس عن أبناء الجنس الاخر . وهذه المواصفات تشمل النطق كما تشمل المفردات وأبنية اللغة المختلفة. وهذه الظاهرة ملاحظة بوضوح في الولايات المتحدة الامريكية في

بعض العبارات الخاصة بلغة اليهود والهولنديين وفي لغة الفئات التي من أصل اسباني أو برتغالي ولكنها أوضح ما تكون في لغة السود . فهل هذه الاختلافات التي تميز لغة فئة عن أخرى ناتجة عن انتماء هذه الفئة أو تلك الى جنس بشري معين ؟

يبدو أن البحث العلمي لا يؤيد هذا اطلاقا ، بل يعزو هذه الظاهرة لاسباب كثيرة أهمها الاسباب الاجتماعية . فنحن نلاحظ مثلا أن هذه الظاهرة واضحة بين أبناء الجيل المخضرم من اي من تلك الفئات ، أي بين أبناء ذلك الجيل الذي يهاجر من بلد الى اخر وقد تمكن من لغته الاصلية ، وأصبحت لديه عادات لغوية قوية يصعب التخلص منها في المجتمع الجديد ، ولذلك فان من الطبيعي أن تلون لغته الجديدة المكتسبة في وقت متأخر من العمر بلون لغته الاصلية . فاذا ما نشأ أبناؤه في البيئة الجديدة ودرسوا في مدارسها واختلطوا بأقرانهم ممن يتكلمون اللغة الجديدة ، فانهم يكتسبون تلك اللغة بنفس الشكل الذي يستعمله ابناء المجتمع الجديد ، ولا يستطيع أحدنا التفريق بينهم وبين أبناء البلاد الاصليين .

ولكن هنالك شرطا أساسيا لاندماج أبناء المهاجرين في البيئة الجديدة والمجتمع الجديد ، هو أن تكون الابواب مشرعة أمامهم ، والسبل ميسرة لهم ، والنية منعقدة لديهم على ذلك الاندماج . فاذا وقعت عوائق وعقبات دون ذلك أو كانوا هم غير راغبين في الذوبان في المجتمع الجديد ، فان نوعا خاصا أو لهجة خاصة من اللغة تنمو بينهم متأثرة بحضارتهم ولغاتهم الاولى وتحافظ بل ربما تزيد من أوجه الخلاف بينها وبين لغة ذلك المجتمع المتعارف عليها والمقبولة اجتماعيا ، وما نشوء وتطور ما يسمى بلغة السود (Black English) في الولايات المتحدة الامريكية الا مثلا على ذلك أما لغة أولئك الذين ينحدرون من أصل اسباني أو برتغالي فلاختلافها عن اللغة الانكليزية المتعارف عليها أسباب أخرى منها

قرب هؤلاء واستمرار اتصالهم ببلدان امريكا الوسطى الجنوبية وبجزر البحر الكاريبي التي لا يزال معظم أهلها يتكلمون احدى تينك اللغتين .

١١ ــ الكلام المحظور اجتماعيا :

سنختم كلامنا في هذا الفصل بالحديث عن الاستراتيجية التي يستعملها ابناء مجتمع معين لتجنب استعمال الالفاظ التي لا يقرها ذلك المجتمع . وهذه الظاهرة ، ظاهرة الكلام المحظور اجتماعيا (taboo) شائعة في جميع المجتمعات ولكنها تخف في الحدة في المجتمعات المفتوحة ، وقد شاهدنا في السنوات الاخيرة اتجاها واضحا في الغرب لبعض الادباء من ناحية وللشباب والمراهقين والهيبيين من ناحية أخرى والفتيات عموما على العودة الى استعمال معظم الكلمات المحظورة اجتماعيا بشكلها الاصلي ودون حياء أو خجل . ويعتبر هذا بالنسبة لمعظم المجتمعات تطرفا شديدا يقف على النقيض من التزمت الشديد الذي كان سائدا في انكلترا مثلا في العصر الفيكتوري عندما لم يكن من المقبول ان يقول الفرد ــ وخاصة الفتاة ــ : كسرت **رجل** الطاولة ، لان كلمة **رجل** كانت من الكلمات المحظورة على الاستعمال .

لقد ذكرنا في عدة مناسبات سابقة ان استعمال اللغة محكوم بقواعد وهذه القواعد نوعان ، نوع يتعلق بتركيب اللغة نفسها : أصواتها وقواعدها ، ونوع اخر يتعلق بالاستعمال الفعلي ، وهذه القواعد الاخيرة في معظمها قواعد اجتماعية وضعية تختلف في العادة من مجتمع الى اخر حتى لو كان المجتمعان يستعملان نفس اللغة وعلى الفرد الذي يعيش في مجتمع ما ان يتقيد بهذه القواعد اذا كان راغبا في ان يبقى عضوا مقبولا في ذلك المجتمع . وبعض هذه القواعد ، كما رأينا ، تنظم استخدام الاساليب المختلفة في المقامات المختلفة ، بينما يحظر بعضها الاخر استخدام بعض الكلمات أو العبارات على اعتبار انها كلمات او عبارات غير مهذبة او بذيئة

وهذه القواعد ليست ، كما يتصور البعض ، مقصورة على المجتمعات الراقية ودالة على الرقي والتأدب ورهافة الحس والذوق ، بل هي موجودة حتى في أكثر المجتمعات بدائية . فلدى قبيلة الهنود الحمر المسماة « زوني » قواعدها الخاصة لاستعمال الاساليب اللغوية المختلفة ولحظر استعمال بعض الكلمات . فلديهم ثلاثة أساليب للكلام : اسلوب الحديث العادي ، واسلوب الكلام المقدس ، واسلوب العبث واللهو . ولكل من هذه الاساليب مقاماتها المختلفة التي يجب أن تستعمل فيها ، كما أن لديهم بعض الكلمات المحظور استعمالها مثل كلمة « تكة » التي تعني « ضفادع » والتي يحظر التفوه بها في اثناء القيام ببعض الطقوس الدينية مثلا ، كما يحظر استعمال الكلمة التي تدل على الامريكي الابيض في نفس المناسبات .

أما اسباب الحظر فليس من السهل الاهتداء اليها ، فان اي كلمة ما هي الا مجموعة من الاصوات البريئة التي يضفي عليها المجتمع معنى معينا لحاجته الى ذلك المعنى . اما متى وكيف تصبح تلك الكلمة الضرورية المفيدة كلمة بذيئة في نظر المجتمع ، فامر محير فعلا . لان الامر الغريب ان الكلمة البديلة التي تستعمل كلفظة لطيفة بالنسبة للكلمة المحظورة كثيرا ما تصبح هي الاخرى قبيحة في نظر المجتمع نفسه ، بعد عدد من السنين ، فيحظر استعمالها وتستبدل بغيرها ثانية .

أن بعض العلماء لا يرى في حظر استعمال بعض كلمات اللغة دلالة على الاحساس المرهف والذوق الرفيع ، بل على العكس فهم يعتقدون أن مثل هذا الحظر له مساوئه الكثيرة ، فان المجتمع عندما يعزل عددا من الكلمات التي تتعلق بامور طبيعية جدا كالجماع أو الاعضاء التناسلية أو التبول وما اليها ، يكون قد ساعد على انزال تلك الاعضاء والعمليات الى الحضيض بحيث تصبح حتى الاشارة اليها شيئا معيبا يتجنبه الافراد ، مع أن الوضع الطبيعي

ان ينظر اليها نظرة عادية صحية . كما ان هذا الحظر يفتح المجال لمخالفته واستعمال تلك الكلمات لاغراض خاصة منها النكتة المبتذلة ومنها ما هو أخطر من ذلك .

ان الكلمات المحظورة تقع عادة في واحد من عدد محدود من الموضوعات ، اهمها **الخرافات والاساطير** التي تنمي الخوف من بعض الكلمات او مما تشير اليه تلك الكلمات ، ثم موضوع **الموت** الذى لا يحبه ولا يحب ذكره احد ، ثم موضوع **النسل والتناسل** وما يتصل بهما وكل ما يتصل **بالاعضاء التناسلية** من حيض — وجماع ، ولواط وغيره .

ففي بعض المجتمعات لا يجوز ذكر الشيطان أو العفاريت لانها ربما اتت عند سماع اسمها ، ومثل هذا حاصل في بعض مجتمعاتنا العربية حتى اليوم ، حين يذكر « الاسياد » بدلا من الجن او العفاريت او حين تذكر البسملة بدلا من ذكر هؤلاء كقول بعضهم « شفت بسم الله الرحمن الرحيم » . بل ان هنالك بعض المجتمعات كالمجتمعات المسيحية الاوروبية مثلا التي تحظر استعمال اسم الجلالة في الاحاديث العادية وتقصر ذلك على المناسبات الدينية وقراءة الكتاب المقدس والصلوات وامثالها ، بينما يقف المجتمع الاسلامي على النقيض من ذلك ، ففي ذكر الله في كل مناسبة بركة ورحمة وهو امر يشجع عليه الدين .

اما موضوع الموت فانه مكروه في كل المجتمعات ولذلك فان الناس في البلدان المختلفة يستبدلون كلمة « مات » بكلمات أخرى تبدو الطف على الاذن واخف على النفس ، كما نقول نحن مثلا : انتقل الى جوار ربه او : توفاه الله او : اسلم الروح او : قضى نحبه ، او : رحمه الله ، وامثالها من العبارات . ومثل هذا ايضا عدم الاشارة الى الاسماء الصريحة لبعض الامراض المعدية او القاتلة كالسل والسرطان والجدري والحميات الاخرى في الماضي ، ويحدث هذا بخاصة في المجتمعات التي تربط بين الامراض والجن

مثلا كما كان الحال عندنا حتى عهد قريب ، بل وفي بعض المجتمعات العربية حتى اليوم .

أما تحريم كل ما له علاقة بالاعضاء التناسلية والعملية الجنسية فأمره معروف لدينا وهو شائع في جميع المجتمعات تقريبا وبدلا من استعمال الكلمات الاصلية الدالة عليها ، يستعمل كل مجتمع كلمات بديلة اخرى تكون مقبولة لدى الاغلبية العظمى ، وان كانت هذه الكلمات الجديدة تتبدل من جيل الى جيل . ولا يقتصر الامر على تلك الاعضاء وعلى العملية الجنسية نفسها بل ينسحب الحظر احيانا على كثير من الكلمات التي توحي لفظا او معنى بعضو من الاعضاء التناسلية أو بالعملية الجنسية كأن يتقارب اللفظان أو يتشابهان . فحتى عهد قريب كان الناس في جنوب الولايات المتحدة يتجنبون استعمال كلمة « ثور » في احاديثهم ويستعيضون عنها بعبارات اخرى مثل « ذكر البقر » او « ذكر الحيوان » . وكثيرا ما يستعمل مجتمع ما كلمة اجنبية بدلا من كلمة محظورة ولا يجد غضاضة في ذلك ، كما نفعل نحن عندما نستعمل كلمة « تواليت » اشارة الى المرحاض او عندما تستعمل قبائل النيوب (Nupe) في غرب افريقيا كلمات عربية مثل « جماع » و « قفا » بدلا من الكلمات الدالة على نفس المعاني في لغتهم وبسبب المعاني التي توحي بها كلمات مثل (ass, cock) بالنسبة للامريكيين فقد امتنعوا عن استعمالها واستعاضوا عنها بالكلمات (donkey, rooster) مع ان الكلمتين الاوليين لا تزالان مستعملتين في المجتمع البريطاني ، ويبدو ان اللغة الانكليزية الامريكية من اغنى اللغات بالكلمات البديلة لكلمة « حيض » ، فقد احصى بعضهم اكثر من مائة من تلك الكلمات البديلة .

كما ان هنالك بعض الحيوانات كالكلب والحمار والخنزير مثلا بالنسبة لنا يعتبر استعمالها اهانة كبيرة اذا اشير بأسمائها الى الانسان ، بينما لا ينطبق هذا على حيوانات اخرى ، وهذا الامر يختلف في تفاصيله من مجتمع الى اخر .

ومما يعتبر من السباب ايضـا ويحظـر استعماله ، التعبير بالعيوب الجنمانية كالعرج والعمى والحول وامثالها ، وكذلـك محاولة اللعب بحروف اسم الفرد بحيث يصبح لفظه مشابها للفظة بذيئـة ، والاشارة الى الضعف العقلي كالجنون والغباء والعبط والهبل وغيرها .

وما دامت هنالك قوانين تحظر استعمال بعض العبارات فان من الطبيعي أن يوجد من يخالف او يكسر تلك القوانين ، ويستعمل البذيء من القول . ولسنا هنا في معرض دراسة هذا الموضوع ، ولكنا نشير فقط الى بعض الاغراض التي يقصد اليها من يستعملون البذيء من القول .

ان واحدا من الاغراض الواضحة هي اهانة المخاطب ويحصل هذا كثيرا بين العامة عندما يحصل شجار بينهم ، بينما يحاول المثقفون تجنبه حتى في مثل تلك الظروف . ومن اغراضه احيانا لفت الانتباه الى المتكلم وخاصة عندما يتوافر جمع غفير من الناس يريد المتكلم أن يشدهم اليه ليستمعوا الى ما يقول فهو يحاول هزهم هزة قوية باستعمال بعض الكلام المحظور على شكل نكتـة أو تعليق أو ما شابههما . وكثيرا ما يهدف المتكلم الى تحدى المفاهيم المتعارف عليها في مجتمعه اما بسبب من يأسه من النجاح وشعوره بالاحباط الشديد ونقمته على ذلك المجتمع ، او كما يفعل الشباب المراهق والشباب الثائر على الاوضاع السائدة وعلى بنية المجتمع وبنيـة الحكـم ، والهبيـون افضـل مـثل عـلى ذلك . كما أن من الممكن أن يكون غرض المتكلم هو الهزء من أولئك الذين يمثلون السلطة كالشرطة ورجال الدين والآباء والمدرسين والسياسيين الخ . بالتعرض لهم من الناحية الجنسية والقول أنهم عاجزون عن ممارسة الجنس بالشكل الطبيعي .

وقد نتج عن حظر استعمال بعض العبارات في المجتمعات المختلفة أن ازدهرت تجارة « النكات الحادقة أو القبيحة » ، بل وأصبح لكل شعب أسلوب معين في النكات التي يستمتع بها اكثر

من غيره . فالالمان مثلا يضحكون كثيرا للنكات التي تحكى عن التبول وما اليه ، والفرنسيون يطربون لنكات الجنس والزنا وانتهاك العرض ، والبريطانيون تعجبهم نكات اللواط وسفاح القربى والامريكيون تعجبهم النكات التي تدل على اذلال المراة .

هذه هي أهم الموضوعات التي تتعلق باللغة والمجتمع وهي موضوعات شيقة للغاية ولكن صعوبة الكلام فيها انها تختلف من مجتمع الى آخر ، وان البحث فيها قليل جدا بالنسبة للمجتمعات العربية المختلفة ، ولذلك فان الامثلة التي يمكن ايرادها ليست بالكثيرة .

وهنا يجب أن ننتقل الى الفصل الاخير من هذا الكتاب وهو الفصل الذي سنذكر فيه ببعض التفصيل شيئا عن الاتجاهات الحديثة في دراسة انظمة اللغة المختلفة .



الفصــل الخــامــس

تركيب اللغة وأنظمتها المختلفة

مقدمــة :

لقد حاولنا في جزء من الفصل الثاني من هذا الكتاب ان نشير بايجاز شديد الى مدى تعقيـد اللغة ، فقدمنا صـورة سريعة لما يحصل بالفعل عندما يقول الانسان كلاما ما وذكرنا المراحل المختلفة التي يمر بها الكلام (أو الحدث اللغوي ، كمـا يحب اللغويون ان يسموه) من المؤثر الخارجي ـ ان وجد ـ ، الى تكوين الفكرة في الذهن ، الى اصدار الامر الى اعضاء النطق لتتحرك بطريقة معينة ، الى الكلام الفعلي الذي ينطلق من تلك الاعضاء ، ثم تابعنا سيره على شكل موجات تسبح في الهواء الى ان يصل الى اذن السامع فيطرق طبلتها ويهزها فتحمله الاعصاب الى دماغ السامع الذي يقـوم بتحليل تلك الاهتزازات واعادة تركيبها الى اصوات متشابهة لتلك التي اطلقها المتكلم ، ومن ثم يتمكن من فهم مضمونها .

وقد حاولنا في الفصل الثالث ان نعطي فكرة عما توصل اليه الباحثون بالنسبة لطبيعة اللغة والطريقة العقلية التـي يمكن أن يستخدمها كل من المتكلـم والسامع في تكـوين الرسالة او فـك رموزها . وعلى الرغم من ان النتائج التي تم الوصول اليها حتى الان لا ترقى الى منزلة العلـم الاكيد ، نظرا الـى أن جميع هذه الدراسات حديثة العهد جدا الا ان جل همنا كان منصبا على اعطاء صورة عن المنهج العلمي الذي يتخذه علماء اللغة والنفس في ايامنا هذه ، في دراسة هاتين الظاهرتين والظواهر الاخرى التي تتصل بالجوانب العقلية او النفسية من مظاهر اللغة المتعددة المتشعبة .

وسنحاول في هذا الفصل ان ندرس الرسالة اللغوية نفسها من جوانبها المتعددة ، من اللحظة التي تبدأ أجهزة النطق باطلاق

الرسالة اصواتا الى ان تصل الى اذن السامع فيفهم معناها . وربما كان هذا هو المجال الاصلي لعالم اللغة ، ولكننا سنرى في الحال كيف ان هذا المجال نفسه ليس مقصورا عليه ، بل يشاركه فيه علماء اخرون ذوو اختصاصات اخرى .

فلنبدأ اولا بتحديد ما نريد بحثه . نحن بصدد دراسه كلام البشر بشكل عام . ولكن اي شكل من الكلام ينبغي تسليط الضوء عليه بالدرجة الاولى . أهو الكلام المنطوق أم الكلام المكتوب ؟

لقد درجت الدراسات اللغوية في معظمها وحتى عهد قريب على الاهتمام باللغة المكتوبة وبالتراث الادبي على وجه الخصوص وتحليلها وبناء قواعد اللغة على اساسها ، ولذلك اسباب كثيرة ، احدها انه لم يكن بالامكان حتى سنوات قليلة مضت تسجيل الكلام المنطوق لاخضاعه لانواع الدراسات اللغوية المتنوعة . كما لم تكن الاجهزة الالكترونية المختلفة التي يمكن استخدامها في تلك الدراسات متوفرة . ولكن لم يكن توفر تلك الاجهزة هو السبب الرئيسي في التحول الحديث عن الاهتمام باللغة المكتوبة الى لغة الحديث او « الكلام » (كما سنطلق عليه من الان فصاعدا) . بل كانت هنالك أسباب أخرى أهم ، وما كانت تلك الاجهزة الا وسيلة لتحقيق حلم قديم كان دائما يراود علماء اللغة ولا يستطيعون تحقيقه لقصر ذات اليد . فقد لاحظ هؤلاء منذ مدة طويلة اختلافا واضحا بين الكلام وبين اللغة المكتوبة من حيث أن ما يستطيع الكلام ان يعبر عنه لا من المعاني العامة فحسب بل ومن الاحاسيس والمشاعر الشخصية بصفة خاصة ، تعجز عنه اللغة المكتوبة عجزا جزئيا أو عجزا كليا . وقد حاولوا أن يعوضوا ذلك النقص باستحداث علامات الترقيم أو الوقف كعلامة الاستفهام ، والنقطة، والشولة وخلافها . كما قاموا في وقت متأخر باستحداث ابجدية صوتية خاصة لتسجيل الكلام بالطريقة التي ينطق بها فعلا .

وربما كان اهم من ذلك كله ان اللغة اساسا كلام لا كتابة فليس في العالم كله انسان عادي (اي غير مصاب بعاهة تمنعه من

النطق) لا يتكلم لغة قومه على الاقل بيسر وسهولة . ولكن ملايين البشر في عالمنا هذا لا يقراون ولا يكتبون ، كما ان الكلام يستغرق من وقت الانسان الامي والمتعلم على السواء ، اضعاف ما تستغرقه القراءة او الكتابة . ثم ان الكلام مهارة يتعلمها الطفل اولا ، ثم يذهب الى المدرسة ، ان ذهب ، لكي يتعلم القراءة والكتابة ، وهل هنالك ادنى شك في ان الكلام سابق للغة المكتوبة بآلاف بل ربما بملايين السنين ؟ او في ان ظروف الكلام والسماع هي التي هيأت التطور اللغوي بوجه عام وتطور لغة بعينها على مدى العصور ؟ علاوة على ذلك كله فقد دلت الدراسات التي اجريت على لغات المجتمعات الامية التي ندعوها بالمجتمعات البدائية ، على ان تلك اللغاتالتي لم تكتب قط ، لا تختلف في ثرائها وتعقيدها وامكانياتها على التعبير عن حاجات تلك المجتمعات ، من اية لغة تتكلمها المجتمعات التي نسميها متحضرة او راقية .

وما دام الامر كذلك فينبغي ان يعطى الكلام الافضلية من حيث الدراسات اللغوية على اللغة المكتوبة ، بدون ادنى تردد . وهذا هو بالضبط ما يفعله علماء اللغة المحدثون . ولكن هذا لا يعني مطلقا الا تكون هناك ابحاث خاصة باللغة المكتوبة وابحاث خاصة بالمقارنة بين مظهري اللغة الواحدة .

وعلى هذا الاساس يمكننا البدء بدراسة الكلام بقولنا انه عبارة عن اصوات نستطيع عن طريقها ان ننظم علاقاتنا ، نحن بني الانسان وان نتعاون على فهم هذا العالم وعلى العيش فيه ، كما نستطيع بواسطتها ان نعبر عن خلجات نفوسنا وبنات افكارنا ، بطريقة وعلى مستوى لم يصل اليه اي كائن حي آخر يدب على ظهر الارض ، ولن يصل اليه حي لو شاء ، الا ان يشاء الله .

نعم هي مجرد اصوات ميز الله بها خلقه من بني البشر ، ولكن هنالك امورا مذهلة حقا تتعلق بهذه الاصوات البشرية ..

يقول احد علماء اللغة المحدثين : « هل تستطيع ان تدلني على احد يستطيع أن يستغل النفايات بطريقة اجزى وأكثر كفاءة وأهمية من استعمال الانسان لنفايات عملية التنفس ؟ » (١) والجواب « لا » طبعا . فليس الكلام في واقع الامر الا اعتراضا لسبيل الهواء الفاسد المطرود من الرئتين والمشبع بثاني اكسيد الكربون في اثناء صعوده في المجاري الهوائية ، واستغلال هذا الهواء الفاسد افضل استغلال . وهذا لا يكلفنا الكثير من العناء ، فالهواء الفاسد هذا لم يعد ينفع الجسم ، وهو خارج منه شئنا ذلك أم ابينا ، وكل ما نفعله هو ان نعترض سبيله اما عند الحنجرة او ما فوقها حتى الاسنان والشفتين ونصنع منه معجزة الكلام التي وهبها لنا الله .

وفوق ذلك فتلك الاعضاء التي ندعوها اعضاء النطق : هل هي اعضاء للنطق فعلا ام ان لكل منها في الاصل وظيفة عضوية اخرى تتعلق ببقاء الانسان على قيد الحياة ؟ اذا نظرنا في هذا الامر مليا ، وجدنا انه ليس لاي من تلك الاعضاء وظيفة كلامية اساسية على الاطلاق بل جميعها ضرورية اما لعملية الاكل او لعملية التنفس او لكليهما وهما عمليتان لا يستطيع الانسان العيش بدونهما .

والاكثر اعجازا من ذلك كله . اننا نجد عند تحليل الكلام (كما سيأتي تفصيله بعد قليل) اننا نستخدم عددا محدودا جدا من الاصوات التي لا معنى لاي منها على انفراد لتركيب عدد لا يحصى من الوحدات الصوتية ذات المعنى .

وما دمنا قد ذكرنا كلمة « المعنى » فلنكمل الحديث عن الكلام . لقد ذكرنا قبل قليل ان الكلام عبارة عن اصوات ، وهنا نضيف قائلين انها اصوات تؤدي معاني . فنحن اذا نستعمل الاصوات

---

(1) R.H. Robins, "The Structure of Language", in Minnis, op. cit. p. 18.

وسيلة للوصول الى نتيجة هي المعاني التي نريد التعبير عنهـا . فهذان ، اذا ، همـا القطبـان او المظهـران الرئيسيان للكلام : الاصوات التي يمكن سماعها ، كما يمكن دراستها دراسة فيزيائية لانها شيء محسوس ، والمعاني التي هي امور مجردة لا نفهمها الا بالعقل . فالاصوات هي الشكل او الصورة التي تعبر عن المعاني وعلى هذا فان علينـا ان ندرس المظهرين ، لكي نستطيع ان نفهـم الطريقة التي يعبر بها المظهر عن المخبر ، او الشكل عن المعنى .

ولكن هل تكفي دراسة هذين المظهرين لنصل الى غرضنا ؟ ام ان هنالك وسيطا اخر يساعد الشكل على التعبير عن المعنى ؟

نحن نعلم جميعا ان الاصوات المنفردة ينتظم كل عدد منهـا بطرق معينة ، بحيث تصبح كل منها مجموعة نسميها **كلمة** ، وان كلا من هذه الكلمات تدل على معنى معين بالذات نعرف الكثير منـه ونستدل على غيره من المعاجم المختلفة . ولكنا نعلم ايضا ان هـذه الكلمات بحد ذاتها لا تكون كلاما له معنى ، بل يجب ان تنتظم هذه الكلمات في حلقات متصلة وفي نماذج معينة ، هي ما نسميها **جملا** ، لكي تؤدي الوظيفة المطلوبة منها في التعبير عن المعاني . ولكن كيف تنتظم ؟ وكيف نعرف العلاقات بين تلك الكلمات في الجمل المختلفة ؟ بل كيف نفرق بين جملة واخرى ؟ لا بد ان هنالك قوانين او قواعد تحكم ترتيب تلك الكلمات وعلاقاتها بعضهـا ببعض . ومـا هـذه القوانين الا ما نسميها بالعربية **قواعد اللغة** (من نحو وصرف) وهي التي تكون صلة الوصل او الوسيط بين اللفظ والمعنى . وهي ، اذا ركن ثالث وهام من اركان الكلام . يجب ان يتطرق اليها البحث لتكتمل الصورة بالنسبة لنا ، وهذا هو ما سنقوم بتفصيل بعضه او اهمه في الصفحات التالية .

٢ ـ النظام الصوتي للغـة :

ان الاهتمام بدراسة الاصوات اللغوية اهتمام قديم ، وقـد خطت تلك الدراسات خطوات واسعة في الاتجاه العلمي الحديث نظرا الى ان الاصوات شيء محسوس ، بينما الجوانب الاخرى من اللغة معظمها جوانب تجريدية . ونظرا الى ان تلك الاصوات هـي المادة التي تتألف منها اللغة ، فهي أول ما يقدم العلماء على تناولها بالفحص والتحليل .

وللاصوات اللغوية جوانب ثلاثة على الاقل تستحق النظـر فيهـا :

اولهـا : جانب النطق بتلك الاصوات ، ويشمل هـذا الجـانب الناحية الفسيولوجية ووظائف اعضاء النطق المختلفة ، وطريقة تحركهـا بحيث تصـدر الاصـوات المختلفة ، والصفات الخاصة بكل من تلك الاصوات والتي تميز صوتا عن اخر رغم ما يكون من تشابه كبير فيما بينهما ، الى غير ذلك من الامور .

ثانيـا : جانب انتقال تلك الاصوات في الهـواء ، ويشمل هـذا الطبيعة الفيزيائية للامواج الصوتية والصفات المميزة لكل نوع من تلك الامواج وقياسها والافادة منها .

وثالثها : الجانب المتعلق باستقبال الصـوت او الجانب السمعي ويمتد هذا الجانب من اللحظة التي تستقبل فيها طبلة الاذن تلك الاصوات والذبذبات التي تحدثها في اجـزاء الاذن المختلفة الى ان تنتقل عن طريق الاعصاب الى الدماغ . ويشمل هذا الجانب ناحيتين : الناحيـة العضوية او الفسيولوجية والناحية النفسية . امـا الاولى فتتعلق بدراسة طبيعة الجهاز السمعي ووظائف كل جزء منه والطريقة التي يجري فيها انتقال الصوت من الاذن الخارجية الى الدماغ ، وهذا مجاله علـم

وظائف الاعضاء بشكل رئيسي . واما الناحية النفسية فقد أشرنا اليها سابقا وهي ما يتعلق بطريقة فك الدماغ لرموز الرسالة التي تحملها الاعصاب اليه ، وقد رأينا أن علماء اللغة وعلماء النفس يتعاونون فيما بينهم في محاولة للتوصل الى تحليل كنه تلك العملية العقلية البالغة التعقيد .

ان الجانب الثاني المتعلق بالامواج الصوتية أصبح الآن اساس علم كامل يتفرغ لدراسته كل من له علاقة بوسائل الاتصال بين البشر من فيزيائيين ومهندسين للاتصالات السلكية واللاسلكية ولفيف كبير من العلماء الاخرين . وقد أفادوا من دراسة هذا الجانب فائدة هائلة في عصر تلعب فيه الاتصالات دورا كبيرا للغاية وفي زمن يحاول الانسان فيه استكشاف معالم الفضاء الخارجي .

وعلى الرغم من اهتمام علماء اللغة بهذه الجوانب الثلاثة على حد سواء فقد تركوا امر دراسة الجانبين الاخيرين لمن هم اكثر اهتماما منهم بهما ولمن تتوافر لديهم الخلفية العلمية الخاصة والاجهزة العلمية اللازمة لهذا النوع من البحث وركزوا اهتمامهم على الجانب الاول الذي لا يستعصي على الملاحظة والوصف ، وان كان التقدم العلمي الحديث قد أسهم كثيرا في الكشف عن بعض غوامضه . ولذلك فقد كان هذا الجانب أقدم جوانب الدراسات الصوتية (أو ما يسمى **بعلم الاصوات**) لدى اللغويين واكثرها تقدما .

وعلى الرغم من ان اللغويين قد حصروا بحوثهم تقريبا في جانب واحد من الدراسات الصوتية هو الجانب النطقي الا ان عملهم لم ينحصر فيما ذكرناه من وصف وتحليل وتصنيف لتلك الاصوات ، بل تعداها الى دراسة الامر الاساسي الاخر الذي يهمهم ما دام تركيزهم منصبا على دراسة الكلام الانساني ألا وهو علاقة هذه الاصوات بالكلام البشري او الوظيفة التي تؤديها في حمل المعاني المختلفة الى السامع وكيف يتم ذلك . ولهذا فقد

اصبح لهذا العلم فرعان رئيسيان يتصل احدهما بالاخر اتصالا وثيقا وهما :

أولا : ما اصطلحوا على تسميته بعلم الفوناتيكا (Phonetics) ويتعلق بدراسة الاصوات من وجوهها المختلفة على اعتبار انها مادة الكلام .

ثانيا : ما اصطلحوا على تسميته بعلم الفونولوجيا (Phonology) وهو الذي ينحو الى التجريد ، فسيتخلص من الدراسات المادية تلك **القواعد** التي بموجبها تنتظم تلك الاصوات في سلاسل ذات معنى وبذلك تؤدي وظيفتها الاساسية في الكلام بالنسبة للغة معينة بالذات . كما يتطرق الى امور اخرى .

وسنبدأ أولا بالفرع الاول الذي اهتم به الدارسون منذ آلاف السنين وهو المتعلق بالاصوات الفعلية التي يصدرها الانسان عندما يتكلم .

الشق الاول :

يتعلق بأعضاء النطق : وصفها وبيان وظيفة كل منها والطريقة التي يعمل بها .

اما الشق الثاني :

فيتعلق بالاصوات التي يمكن ان تصدرها تلك الاعضاء ، وكيفية صدورها وبيان الصفات الخاصة بكل منها .

وبما ان معظم هذا البحث ليس جديدا ، وبما ان المؤلفات فيه التي يمكن ان يطلع عليها القاريء المهتم متوافرة بكثرة ، لذلك فسنعرض لاهم عناصر هذا البحث عرضا سريعا جدا ربما عن طريق اعطاء امثلة فردية بدلا من ان نحاول ، دون طائل تغطية الموضوع المتشعب من جميع جوانبه . (١)

(١) من الكتب الحديثة باللغة العربية كتاب : كمال بشر : **علم اللغة العام ، الاصوات** (دار المعارف) ١٩٧٣ والكتب الاجنبية كثيرة سنذكر بعضها في اخر الكتاب .

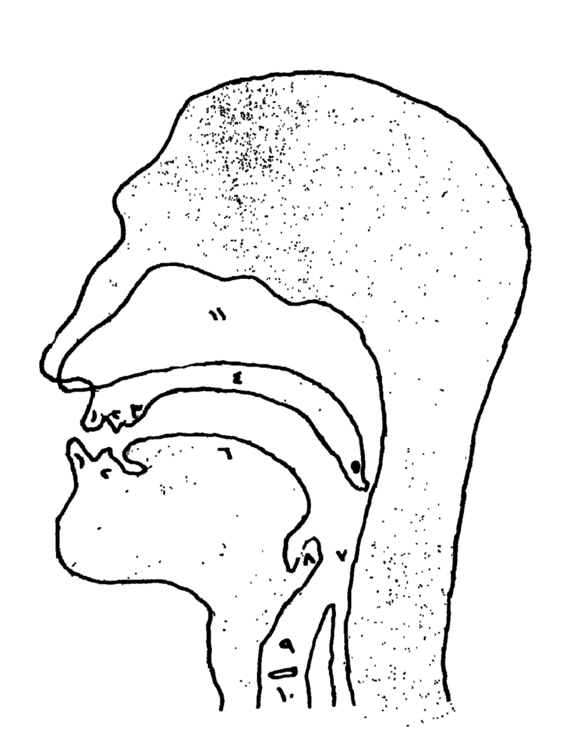
يبين الشكل التالي الاجهزة المختلفة (عدا الرئتين) التي تستخدم في عملية النطق ، ويظهر فيه أن تلك الاجهزة تتألف بشكل رئيسي من الحنجرة ووتريها الصوتيين والحلق وتجويف الفم (بما يحويه من لسان وحنك واسنان وشفتين) بالاضافة الى التجويف الانفي . اما التقسيمات التي ترى في الشكل للسان والحنك فانها تعود الى الوظيفة التي يؤديها كل قسم منها في نطق الاصوات المختلفة .

١ ـ الشفتان	1. Lips
٢ ـ الاسنان	2 Teeth
٣ ـ أصول الثنايا (أو مقدم الحنك)	3. Alveolar Ridge
٤ ـ الحنك	4. Palate
٥ ـ اللهاة	5. Uvula (Velum)
٦ ـ اللسان	6. Tongue
٧ ـ الحلق	7. Pharynx
٨ ـ لسان المزمار	8. Epiglottis
٩ ـ الحنجرة وفيها الوتران الصوتيان	9. Larynx
١٠ ـ القصبة الهوائية	10. Windpipe
١١ ـ التجويف الانفي .	11. Nasal Cavity

وفيما يلي بعض الملاحظات السريعة على هذه الاجهزة :

اولا : من الملاحظ ان معظم هذه الاجهزة ثابت لا يتحرك ، ولعل أهم الاجزاء المتحركة هي الوتران الصوتيان واللهاة والشفتان واللسان ويلعب الاخير اهم دور على الاطلاق ، مما جعل كثيرا من اللغات تطلق اسمه على اللغة نفسها .

ثانيا : معظم الاصوات تخرج من تجويف الفم فيما عدا ثلاثة أو أربعة يستعمل التجويف الانفي في نطقها بشكل رئيسي .



١١
٤
١ ٢ ٣
٦
٥
١ ٢
٨
٧
٩
١٠

ثالثا : اذا طرأ خلل على أحد هذه الاجهزة تأثر اصدار الاصوات قليلا الى ان يتعطل كلية في حالة تعطل الوترين الصوتيين مثلا .

اما دراسة الاصوات من حيث طريقة نطقها والاجهزة المستخدمة في ذلك فان التصنيف الاول لها يقسمها الى قسمين رئيسيين :

القسم الاول :

ويشمل تلك الاصوات التي تصدر عن الانسان عندما يمر الهواء الخارج من الرئتين في القصبة الهوائية والوترين الصوتيين فيحدث فيهما ذبذبة ثم يتابع سيره **دون أن يعترض سبيله أي عائق** ، الى ان يخرج الى الهواء الخارجي . اما الذبذبة فهي التي تعطى الهواء صفة الصوت وهو ما نسميه **بالجهر** . واما اختلاف احد هذه الاصوات عن الاخر فالمسؤول عنه هو حركة اللسان في الفم بالاضافة الى شكل الشفتين .

هذه الاصوات يطلق عليها **الاصوات الصائتة** (vowels) وهي تشمل ما نشير اليها باللغة العربية بحروف المد او اللين أي **الالف والواو والياء** ، كما في الكلمات التالية :

الالف في وسط الكلمة	:	راح
الالف في اخر الكلمة	:	سرى
الواو في وسط الكلمة	:	نور ، سرور
الواو في اخر الكلمة	:	قالوا
الياء في وسط الكلمة	:	نير ، سرير
الياء في اخر الكلمة	:	قاضي

وجميعها أصوات طويلة ، يقابل كلا منها صوت قصير نشير اليه باللغة العربية بالحركة اي **الفتحة والضمة والكسرة** والامثلة على ذلك كثيرة ومعروفة .

اما القسم الثاني : بموجب هذا التصنيف فيشمل جميع الاصوات الاخرى ، كأصوات الباء والسين والقاف الخ التي تسمى بالاصوات الصامتة (consonants) وهذه منها المجهور (voiced) (الذي تصاحبه ذبذبة في الاوتار الصوتية) ومنها المهموس (voiceless) (الذي لا تصاحبه مثل تلك الذبذبة) وهذه الاصوات **تحدث عندما يعترض سبيل الهواء الخارج من الحنجرة عائق فيسد عليه طريق** الخروج سدا كاملا ثم يسمح له بالخروج خروجا قوى الاندفاع فيصحبه ما يشبه **الانفجار** كما يحدث عندما ننطق صوتي **الدال او الكاف** مثلا . او يسد ذلك العائق طريق الخروج سدا جزئيا يسمح بمرور الهواء الذي يخرج عندئذ محدثا **احتكاكا** كما يحصل عندما ننطق اصوات **السين والشين والفاء والذال** الخ . وربما سدت منافذ الفم جميعا على الهواء الخارج بحيث لا تترك له سبيلا للخروج سوى التجويف الانفي كما يحصل عندما ننطق صوتي **الميم والنون** مثلا .

وهكذا فاننا نستطيع ان نصف الاصوات الصامتة مثلا بذكر الاعضاء أو اجزاء الاعضاء التي تشترك في نطقه والطريقة التي ينطق بها ، وفيما اذا كان الصوت مجهورا او مهموسا . ونكتفي هنا باعطاء مثل واحد على ذلك . فاذا اردنا أن نصف صوت **الدال** مثلا نقول : انه **صوت انفجاري** (plosive) (بالمعنى المذكور سابقا عن طريقة نطقه) ، وهو في اللغة الانكليزية **لثوي** (alveolar) بينما في العربية **لثوي اسناني** (alveo-dental) بمعنى انه ينطق في اللغة الانكليزية بأن يرتفع طرف اللسان ليلتصق باللثة (وفي العربية ليلتصق باللثة وخلف الاسنان) ليسد مجرى الهواء قبل السماح له بالخروج على شكل انفجار . وهو بالاضافة الى ذلك **صوت مجهور** بمعنى ان الاوتار الصوتية تهتز عند النطق به . وهكذا نكون قد ذكرنا اهم مميزات هذا الصوت .

ولكن هذا لا يعني أن هذه الصفات هي التي تميزه عن جميع الاصوات الاخرى فنحن نحتاج اليها جميعا لنميزه عن **صوت الفاء** مثلا الذي ليس صوتا انفجاريا ، **بل احتكاكيا** (fricative) كما أن طريقة نطقه مختلفة بأن تشترك فيها الاسنان العليا مع الشفة السفلى ، وهو صوت مهموس أي غير مجهور . ولكننا نحتاج الى واحدة فقط من تلك الصفات لكي نميز صوت الدال عن صوت التاء مثلا فهذان الصوتان يشتركان في نقاط النطق ، كما يشتركان في طريقة النطق والفارق الوحيد بينهما هو أن الدال صوت مجهور بينما التاء صوت مهموس .

وهذا الفرع من علم الاصوات اي علم الفوناتيكا لا يكتفي بهذا القسط من دراسة الاصوات التي لم نذكر منها الا النزر اليسير اليسير ، ولكنه يتعدى ذلك الى تعداد الصفات الاخرى جميعها التي يمكن أن يتصف بها كل صوت في السياقات المختلفة او حسبما تنطقه مجموعات معينة داخل مجتمع لغوي كبير . اي ان هذا الفرع يعمل على الاحاطة بكل ما يتعلق بالاصوات (اما في لغة معينة أو في لغات الارض جميعا) سواء كان لذلك أهمية من حيث معاني الكلمات أم لم يكن . ولذلك فسنقف هنا لنحجم عن الخوض في هذه التفصيلات التي لا تهم القارىء غير المختص ، ونكتفي بذكر بعض الملاحظات التي تهم القارىء العربي بوجه خاص .

اما الملاحظة الاولى فهي ان في كل لغة من لغات الارض عددا محدودا من الاصوات مختارة من بين عدد يكاد يكون غير محدود مما يمكن لاجهزة النطق عند الانسان أن تصدره . الا أن الصفات التي ذكرنا بعضا منها سابقا والتي تتصف بها الاصوات المختلفة متشابهة في تلك اللغات الى حد كبير . كما ان باستطاعة المجتمع الذي يتكلم لغة معينة ان يركب من ذلك العدد المحدود من الاصوات المميزة اعدادا ضخمة للغاية من المفردات او الكلمات وصلت في اللغة الانكليزية الان الى نصف مليون مثلا . ولنعطى مثلا بسيطا . لو فرضنا أن عندنا (٢٠) صوتا صامتا في لغة ما و (١٠) أصوات

صامتة ونريد أن نركب من هذه الاصوات كلمات ثلاثية اي ذات ثلاثة أصوات فقط اثنان منها صوتان صامتان والثالث صوت صائت على أن يكون ترتيب تلك الاصوات الثلاثة في الكلمات على اي نظام فان عدد الكلمات الثلاثية التي يمكن أن نركبها من ذلك العدد المحدود من الاصوات يبلغ ١١٫٠٤٠ كلمة . ويمكننا بعد ذلك ان نتصور تلك الاعداد من الكلمات الرباعية او الخماسية أو السداسية التي يمكن تركيبها من ذلك العدد المحدود جدا من الاصوات . وخاصية **الابتكار** اللغوي هذه هي التي سنراها أيضا عندما نأتي الى بحث قواعد اللغة اي اساليب تركيب الجمل فيها ، وهي خاصية تتميز بها لغة الانسان فقط وتجعل من تلك اللغة عالما رحبا لا حدود له .

اما الملاحظة الثانية التي تستحق الذكر فهي أن في بعض اللغات المكتوبة **ابجديات** اخترعت وطورت للدلالة على تلك الاصوات التي تتألف منها الكلمات ، ولكن جميع هذه الابجديات ناقصة من حيث تأدية هذه الوظيفة ، ففي بعض اللغات حروف من الابجدية تنطق بأكثر من طريقة واحدة كما هو الحال في حروف (c) و (g) و (f) ومعظم الحروف الصائتة مثل (a) و (e) و (i) الخ . باللغة الانكليزية بحيث تصبح هنالك هوة واسعة بين نطق الكلمة وتهجئتها . وفي اللغة العربية مثلا لا توجد حروف تدل على بعض الاصوات كصوت الفتحة او صوت الضمة او صوت الكسرة ، بل ان استعمال الحركات نفسها في اللغة حديث العهد نسبيا . بالاضافة الى أن بعض الخصائص الصوتية الهامة بالنسبة لمعاني الجمل وفي بعض الاحيان لمعاني المفردات **كالنبر** (stress) **والتنغيم** (intonation) ليست في الابجديات اية رموز تدل عليها . هذه وامور اخرى كثيرة جعلت الدارسين في العصر الحاضر يولون **الكلام** عناية تفوق بمراحل عنايتهم باللغة المكتوبة .

وما دمنا قد أتينا على ذكر الحركات باللغة العربية ، يجدر بنا أن نشير هنا الى انها لم تلق من اللغويين العرب الاهتمام الجدير بها ، وربما ، كما قلنا ، لانها لم تكن موجودة في الكتابة بل أضيفت فيما بعد على يد ابي الاسود الدؤلي ثم الخليل بن احمد في شكلها الحالي . وهذا الامر جعل أولئك اللغويين يركزون اهتمامهم على الحروف الصامتة بوجه خاص .

بالاضافة الى هذا فقد خلط بعض اللغويين العرب بين حروف المد واعتبروها نوعا واحدا بينما هي في الواقع نوعان مختلفان . فلقد اتينا عند بحثنا للاصوات الصامتة بأمثلة على اصوات المد في اواسط الكلمات العربية واواخرها ، ولم نأت بأمثلة عليها في أوائل الكلمات ، وكان ذلك عن عمد . لانا اذا نظرنا الى الامثلة التالية ونطقناها :

ولد ، يلعب ، احمد

نجد اختلافا بينا بين صوت الواو في **ولد** وذلك الصوت الموجود في كلمة **حوت** أو كلمة **يقول** مثلا ، وكذلك بين صوت الياء الموجود في **يلعب** وذلك الصوت الموجود في كلمة **فيل** مثلا ، وبين صوت الهمزة الموجود في كلمة **احمد** وذلك الصوت الموجود في وسط كلمة **قال** . وقد صنفها علماء اللغة الغربيون تصنيفا مختلفا بينما لم يفعل ذلك سوى بعض مشاهير اللغويين العرب من أمثال الخليل وابن جني . وقد أساء معظمهم فهم **صوت الهمزة** بالذات الذي صنفوه مع حروف المد مع انه في الواقع صوت صامت وذلك لاعتمادهم على الكلام المكتوب لا المنطوق في دراساتهم .

وهذا لا يعني ابدا ان العرب لم يسهموا بقسط وافر في الدراسات الصوتية ، بل ان العكس هو الصحيح . ومن يطلع على تلك الابحاث التي قدمها سيبويه والخليل بن احمد وابن جني وغيرهم يجد فيها لا مادة وعلما غزيرين فحسب بل يجد ايضا نظرا ثاقبا ونتائج رائعة بعضها لا يختلف كثيرا عما توصل اليه علماء الغرب بمناهجهم ومعداتهم الحديثة بعد تلك العصور بقرون . بل انه

يبدو من الثابت أن الدراسات اللغوية العربية الخاصة بعلم الاصوات التي وصلت الى أوروبا وترجمت الى اللغات المختلفة كانت من العوامل المساعدة على ما توصل اليه الغرب من النتائج في العصر الحاضر .

لقد كان كلامنا حتى الان متركزا على بعض مناهج البحث ونتيجة الدراسات في فرع واحد من فروع علم الاصوات هو ما يطلق عليه اسم **الفوناتيكا** وقد حان الوقت لكي ننتقل الى الفرع الاخر الذي دعوناه **الفونولوجيا** .

لقد ذكرنا فيما سبق من الكلام وعلى سبيل التبسيط أن علم الفوناتيكا يقسم الاصوات البشرية بموجب معايير ثلاثة هي : **مواضع النطق وطريقة النطق واهتزاز الاوتار الصوتية ، او عدم اهتزازها** . ولكننا اشرنا في موضع اخر ، لتوخي الدقة ، الى أن هذا الفرع من علم الاصوات لا يقتصر على ذلك بل انه يحاول الا يترك شاردة أو واردة تتعلق بوصف الاصوات الا تناولها بالبحث والدراسة . ولتوضيح الامر ، وما دمنا في صدد البحث في الفرع الاخر من علم الاصوات هو الفونولوجيا ، فلا بد لنا أن نفرق بين المجالات التي يتطرق اليها كل منهما ، لتتضح الصورة وضوحا كاملا .

من المعروف لدينا جميعا ان كلا منا يتكلم بطريقة مختلفة مميزة عن غيره ، وذلك راجع للتكوين الفسيولوجي لكل منا وللعادات اللغوية المتعلقة بالنطق والتي نشأ عليها كل انسان فتاصلت فيه وأصبحت جزءا من كيانه . ولو لم يكن ذلك صحيحا لما امكننا تمييز أصوات الاخرين عندما يتكلمون في الهاتف من مسافات بعيدة أو عندما يتحدثون في المذياع أو من خلف ابواب مغلقة . وعلى هذا يمكننا القول بأن لكل منا لغته الخاصة به (idiolect) . وهذا يعني أن الاصوات المحدودة العدد التي نقول بوجودها في لغة معينة لا تنطق بشكل واحد بل ينطقها افراد المجتمع الذين يتكلمون

تلك اللغة بطرق واساليب مختلفة . ومع ذلك فاننا نستطيع تمييز الاصوات بعضها عن بعض رغم كل تلك الاختلافات وهذا يعني أن تلك الاختلافات ليست أساسية . ويحدث مثل هذا عندما نسمع كلام أحدنا عندما يكون مبهور الانفاس ، أو مخمورا أو مريضا أو غاضبا أو سعيدا أو كئيبا أو غير ذلك فان نطقه للاصوات التي ذكرناها لا شك سيختلف عنه عندما يكون في حالته العادية . ومع ذلك فانا نفهم كلامه ونميز فيما بين الاصوات التي ينطقها رغم اختلافها عن الوضع الطبيعي . اذا هذه الاختلافات غير أساسية ايضا .

ثم اننا حتى في أحوالنا العادية لا ننطق الصوت الواحد بنفس الشكل في السياقات اللغوية المختلفة ، فمواضع نطق حرف النون مثلا تختلف اختلافا بينا عندما نقول الكلمات التالية :

انقلب ، انضبط ، انطلق ، انتشر ، انسل

وذلك بتأثير الاصوات التالية لذلك الصوت . كما يختلف نطق الباء مثلا في كل كلمة من الكلمات التالية :

سبت ، دبت ، صبت

وذلك بتأثير الاصوات السابقة أو اللاحقة لذلك الصوت ، ونفس الشيء نلاحظه في نطق حرف الالف عندما ننطق الكلمات التالية :

سار ، فار ، دار ، طار

ومع ذلك كله فانا نعرف ان الصوت في كل من هذه الحالات التي ذكرت **واحد** رغم الاختلاف في نطقه . اذن هذه الاختلافات ليست اساسية ايضا .

ان رفع الصوت أو خفضه عندما ننطق كلمة أو جملة باللغة العربية مثلا ربما يدل على حالة نفسية معينة ولكنه لا يغير شيئا من المعنى الاساسي لتلك الكلمة أو الجملة . الا ان هذه الخاصية

أساسية جدا في بعض اللغات **كاللغة** الصينية مثلا واللغات الاخرى التي تسمى باللغات التنغمية (tone languages) لان رفع الصوت أو خفضه أو رفعه ثم خفضه ثم رفعه على نفس الكلمة يعطي الكلمة **معاني اربعة مختلفة** تمام الاختلاف .

نخلص من هذا كله الى القول بأن في كل لغة صفات أساسية مشتركة بين عدد من الاصوات تجعل من كل منها صوتا مستقلا يعرفه ابناء تلك اللغة رغم الاختلافات الكبيرة في الطريقة التي ينطق بها ، ويميزونه عن غيره من الاصوات رغم وقوعه في السياقات المختلفة . ومن هنا نشأت نظرية **الفونيم** في الدراسات اللغوية ونشأ عنها فرع الفونولوجيا الذي نحن بصدده . وما دام اهم ما يعنينا في هذه الدراسات هي الوسائل التي تعبر بها الاصوات عن المعاني ، فليكن همنا اذا ان ندرس تلك الاصوات المتميزة التي تستطيع أن تغير المعنى .

ولا نريد هنا ان نتطرق الى النظريات المختلفة المتعلقة بطبيعة **الفونيم** ولكننا نستطيع أن نشرحه على الوجه التالي : اذا اخذنا زوجا من الكلمات المتشابهة في جميع الاصوات التي تتكون منهما فيما عدا صوتا واحدا يختلف في واحدة عنه في الاخر ووجدنا أن **المعنى** قد اختلف، فان هذا يعني أن كلامن الصوتين المختلفين صوت متميز أو **فونيم** . مثال ذلك الكلمتان : **طال وقال** ، فهما تظهران لنا أن كلا من صوت **الطاء** وصوت **القاف** ، صوت مستقل متميز ، اي أن كلا منهما فونيم مستقل . ومثال اخر الكلمات : **من** (بفتح الميم) **ومن** (بكسر الميم) وهما كلمتان تحمل كل منهما معنى مستقلا عن الاخر تماما . والفارق بينهما هو الفتحة في الاولى والكسرة في الثانية . فكل من الفتحة والكسرة اذا صوت مميز مستقل أو فونيم ، مثله في ذلك مثل اي صوت اخر لاي من حروف الابجدية الاخرى والامثلة كثيرة نحو :

تين / طين / قال / كال / ، سار / صار الخ

ولا شك ان أسلوب **المقابلة** هذا (contrast) هو نفسه الذي استعمله معظم علماء اللغة على مر الاجيال لاكتشاف وتثبيت ما دعوه بالحروف الابجدية بالنسبة للغات التي تعتمد على هذا النظام . (رغم ما قصر عنه العرب عندما تجاهلوا اعتبار الفتحة والضمة والكسرة من حروف الابجدية الرئيسية) .

وقد ذكرنا قبل قليل ان هذه الفونيمات تختلف من لغة الى اخرى وتعتمد على الصفات المختلفة التي اشرنا الى بعضها . فما يمكن ان يكون صفة مميزة لصوت من الاصوات في احدى اللغات لا يجب بالضرورة أن يكون صفة مميزة لنفس الصوت في لغة أخرى . لقد أعطينا مثلا على ذلك من اللغة الصينية التي يجب أن نعتبر **النغمات** الاربع التي تغير معاني الكلمات فيها **فونيمات** أو اصواتا مستقلة . ونعطى هنا مثلا اخر من اللغتين العربية والانكليزية . ففي الانكليزية يختلف الصوتان (p) و (b) عن بعضهما بصفة **الهمس** او **الجهر** فحسب الا ان هذه الصفة او الخاصية ، رغم انها صفة مميزة تفرق صوت التاء عن صوت الدال مثلا الا انها لا تميز حرف الباء المجهور عن حرف الباء المهموس الذي نسمعه عندما ننطق كلمة **سبت** في اللغة العربية مثلا . فهذه الصفة اذن ليست صفة مميزة في هذه الحالة وعلى هذا فليس لدينا في اللغة العربية الا صوت واحد مستقل او **فونيم** واحد هو الباء فقط . (وهنا يجب الا نخلط بين ما نتحدث عنه وما نلحظه من اختلاف في نطق بعض الاصوات العربية كالقاف والكاف مثلا بين لهجة عربية وأخرى ، لان هذا يحتاج الى نوع اخر من الدراسة يدخل ضمن علم دراسة **اللهجات** (dialectology) .

اذن فالفونيم هو ذلك الصوت الام ـ اذا صح هذا التعبير ـ الذي يندرج تحته عدد اخر من الاصوات التي تختلف عنه من الناحية الصوتية في بعض الصفات ولكنها مع ذلك تظل تعتبر أحد فروعه .

ولعل اهم الظروف التي تجعلنا ننطق نفس الصوت المميز او **الفونيم** بأشكال مختلفة هي **السياقات اللغوية** التي يقع فيها والتي اعطينا بعض الامثلة عليها . وفرع الفونولوجيا يدرس تلك الظروف ويحاول ايجاد القواعد الثابتة لها . ومن أمثلة ذلك ما نعرفه عن قواعد **التفخيم** باللغة العربية التي تجعلنا نفخم صوتا عندما يسبقه احد الاصوات المفخمة في الاصل كالضاد والطاء والصاد والظاء وما يحصل لبعض الاصوات من **الادغام** عندما يتلوها صوت يصدر عن موضع من الاجهزة الصوتية قريب من موضع النطق بها ، فنقارب فيما بين موضعي النطق بين الصوتين كما في الامثلة التالية :

من م ——— مم

أن لا ——— الا

وشبيه به ما يحصل عندما نضيف الى الاسم ما نسميها ب (ال الشمسية) كما في الامثلة التالية :

ال + طبــل الطبل (ولفظها اطبل)

ال + شمس الشمس (ولفظها اشمس)

ثم ان الفونولوجيا تبحث أيضا في القواعد التي بموجبها تنتظم الاصوات المختلفة بعضها مع بعض في كلمات ، وتدرس ما يمكن ان يلتصق من الاصوات وما لا يمكن . وما يمكن بدء كلمة به وما لا يمكن الخ .

فمن المعروف مثلا اننا لا نبدأ الكلمة بصوت صامت في اللغة العربية دون أن تتلوه حركة (اي صوت صائت) ، فاذا اضطررنا الى ذلك كما في فعل الامر مثلا نلجأ الى الهمزة (التي يعتبرها اللغويون المحدثون صوتا صامتا) ونتبعها بحركة **الكسرة** مثلا ، نحو :

العب / اسبح ، اذهب

كما أننا لا نكون في اللغة العربية سلسلة من الحروف الصامتة (consonant cluster) دون أن يكون بعد كل واحد أو اثنين منها حرف صائت (يمكن أن يكون حركة طبعا) كما يحدث في اللغة الانكليزية مثلا في مثل هذه الكلمات :

spring وفيها ثلاثة أصوات صامتة في اولها

strengths وفيها ثلاثة أصوات صامتة في اخرها

next spring وهنا نجد ستة أصوات متتابعة ، ثلاثة منها في اخر الكلمة الاولى ومثلها في أول الكلمة الثانية .

ولذلك يجد العربي الذي يدرس اللغة الانكليزية صعوبة كبيرة في نطق أمثال هذه الكلمات أو العبارات .

ولكننا نجد قيودا أخرى في اللغة الانكليزية على تنظيم الاصوات بعضها مع بعض : فلا نجد في هذه اللغة ان صوت الهاء

(h) يقع في اواخر الكلمات ، واذا وجد في لغة الكتابة فهو لا ينطق ، بل يستعاض عنه بمد الحرف الصامت الذي يسبقه كما في كلمة (hurrah) كما لا يمكن بدء الكلمات بالصوت المركب من الحرفين (n + g) او (n + k) ولذلك يجد الانجليز كما نجد نحن — ولكن لسبب اخر — صعوبة في لفظ اسم (Nkrumah) الزعيم الافريقي وبالشكل السليم . كما لا يقع الحرفان (p + s) أو الحرفان (g + n) في أول الكلمات الانكليزية فاذا وقعا في اللغة المكتوبة ، يكون اولهما غير ملفوظ كما في الكلمات :

psalms psychology gnat gnaw

ويمكن الاتيان بأمثلة كثيرة من لغات متعددة جميعها تدل على أن تنظيم الاصوات في اللغات ليس عشوائيا بل يتبع نظاما وقواعد معينة خاصة بتلك اللغة .

نخلص من عرضنا السريع هذا للدراسات الصوتية بانها قد اصبحت علما قائما بذاته ، بعضه تجريبي يجرى في المختبرات الخاصة لمعرفة المزيد عن طبيعة الصوت البشري من جميع

جوانبه ، والبعض الاخر نظري وتطبيقي وجميعها تدل على أن لاصوات كل لغة نظامها الخاص الذي يعمل العلماء المختصون على استكشافه وتقعيده بشكل علمي دقيق .

٣ ـ النظامان الصرفي والنحوي :

(أ) النظام الصرفي (١)

النظام اللغوي كله وحدة مترابطة متصلة ، وعلى الرغم من حديثنا السابق عن **النظام الصرفي** ، فانا لا نقصد مطلقا الى القول بانه نظام منفصل مستقل ، بل لقد رأينا فعلا كيف أن بعض القواعد التي عمل علماء الاصوات على اكتشافها تصل ما بين أصوات اللغة ومفرداتها اي بين النظام الصوتي والنظام الصرفي للغة . وهذا الكلام ينطبق على **النظامين الصرفي والنحوي** . فبينما يمكننا القول أن **علم الصرف** يبحث في الهيكل او البناء الداخلي للمفردات بينما يبحث **علم النحو** في علاقات المفردات بعضها ببعض في الجمل المختلفة ، لا بد من التنبيه بأن كلا من العلمين يرفد الاخر ويتصل به اتصالا وثيقا لان البنية الداخلية للكلمة تؤثر على علاقاتها مع الكلمات الاخرى في الجملة . فاذا استعملنا فعلا مثل **قاتل** في بداية احدى الجمل فان المستمع يتوقع في الحال أن نتبع ذلك الفعل بفاعل يشير الى من قام بالمقاتلة وبمفعول به يشير الى من حصلت المقاتلة معه . أي اننا نتوقع جملة كهذه .

قاتل الرجل عدوه

---

(١) دراسة هذا النظام متوفرة في معظم المراجع في علم اللغة العامة . انظر مثلا الكتب التالية :

1. C. Dodge, "Morphology and Syntax", in A. Hill, Linguistics (V.O.A.), 1968, pp. 33 ff.
2. J. Falk, Linguistics & Language (Xeros), 1973, pp. 21-40.
3. P.H. Mathews, "Recent Developments in Morphology", in J. Lyons (ed.) New Horizons in Linguistics. (Penguin), 1970, pp. 96-114.

فاذا ما طرأ على الفعل **قاتـل** تغير داخلي (صرفي) بأن زدنا التاء المفتوحة في اوله ، فأصبح **تقاتل** واستعملنا هذا الفعل في بداية احدى الجمل فان تركيب الجملة (وهي ظاهرة نحوية) يتغير تبعا لذلك . فلا نعود نتوقع مفعولا به مثلا بل نتوقع فاعلا فقط كما نتوقع أن يكون الفاعل يشير الى المثنى او الجمع ، اي ان الجملة الناتجة تكون شبيهة بهذه **تقاتل الرجـلان** ، **او تقاتل الرجـال** او أن يكون الفاعل مفردا على ان تكمل الجملة بما يدل على اشتراك اخرين في العمل نحو :

تقاتل الرجل مع رفـاقه

كما أن الصلة بين **علمي النحو والمعاني** واضحة تماما فالفرق في المعنى بين الجملتين التاليـتين مثلا : أخذت الكتاب منه واخـذت الكتاب اليــه .

واضح تماما رغم أن كل ما فعلناه ، هو اننا استبدلنا حرف الجر **من** في الجملة الاولى بحرف جر اخر وهو **الى** في الجمـلة الثانيــة .

ولكن على الرغم من هذا الترابط الواضح بين انظمة اللغة المختلفة ، فان على الدارس ان يعالج كلا منها على انفراد في احيان كثيرة تفاديا للتشابك الكبـير القائم بينهـما وتسهيلا للدراسـة نفسها . وهذا ينطبق بوجه عام على معظم الدراسات اللغوية ، ولا نستثني من ذلك هذه الدراسة التي بين ايدينا الآن .

لقد تطرقنا في الصفحات السابقة الى المظهر الصوتي للغة ، وهو اخر مظاهرها ، بل هو مظهرها المحسوس الوحيد . وعلى الرغم من ان هذا المظهر ياتي في نهاية الخطوات الكثيرة التي تسبق الكلام الفعـلي ، فقد بدأنا بدراسته أولا لسبب واضح هو انه المظهر الحسي الوحيد الذي يدل على المعنى ، كما يشير الى القواعد اللغوية الاخرى ، التي استخدمت في اخراجه .

ولكن هذا واحد فقط من مناهج الدراسة التي يمكن أن يتخذها الباحث في ظاهرة اللغة . فقد يبدأ منهج اخر من الطرف الاخر ، وهو **المعنى** ، ثم يتدرج في البحث الى ان يصل الى المظهر **الحسي** الاخير وهو الصوت . ومهما يكن من أمر ، فان الحلقة الاخرى الملاصقة للصوت هي الكلمة ، وهي المادة التي يبحثها علم الصرف .

لقد تأثر علماء اللغة في الغرب في النصف الاول من القرن الحالي بثلاثة عوامل هامة لا بد من الاشارة اليها لكي نلقى بعض الضوء على الاتجاهات والمناهج المختلفة التي ظهرت تباعا خلال القرن الحالي . وهذه العوامل هي :

اولا : اكتشافهم وقناعتهم بأن القواعد التقليدية للغات الاوروبية الحديثة التي كانت سائدة لقرون عديدة ، ليست بالقواعد الصالحة لهذه اللغات لانها مبنية في الاساس على قواعد اللغتين اليونانية واللاتينية وكلاهما لغتان معربتان تختلفان اختلافا واضحا عن اللغات الحديثة التي تخلصت من معظم مظاهر الاعراب واصبحت تعتمد على وسائل أخرى للتعبير عن التغيرات الصرفية في الكلمة أو العلاقات النحوية بين الكلمات في داخل الجمل . ولذلك كان على هؤلاء أن **يكتشفوا** قواعد لغاتهم من جديد غير متأثرين بالقواعد السابقة .

ثانيا : **تأثرهم بالمدرسة السلوكية** في علم النفس وهي المدرسة التي كانت نظرياتها سائدة في ذلك الوقت والتي كانت تقصر دراساتها على المظاهر الخارجية الحسية للسلوك البشري . ولذلك فقد جاءت دراسات اللغويين للغاتهم الحديثة **وصفية** مبنية على الكلام الذي يستعمله الناس فعلا ، لا **معيارية** تضع القواعد لما يجب أن تكون عليه اللغة بناء على نصوص مكتوبة منذ مئات السنين .

ونظرا لاستبعاد الدراسات العقلية من نطاق دراستهم ، فقد اضطروا **لاستبعاد المعاني** من الدراسات اللغوية وحاولوا ان يدرسوا اللغات الحديثة من الناحية الشكلية الظاهرة فقط .

ثالثا : في الولايات المتحدة بالذات كان عمل بعض علماء الاجناس في دراسة لغات الهنود الحمر التي لم تكتب قط ولم تكن قواعدها معروفة ، حافزا لهم على استنباط منهج علمي لوصف تلك اللغات وتقعيد قوانينها . وقد وجدوا في ذلك المنهج اداة صالحة لدراسة لغتهم الانكليزية الحديثة لاستنباط القواعد التي تقوم عليها فعلا .

لهذا كله فقد انطلق العلماء المحدثون في ابحاثهم الصرفية من نقطة الصفر ولم يأخذوا اية مقولة سابقة كأمر مسلم به . فبدأوا مثلا في محاولة تحديد مفهوم **الكلمة** (وهي الوحدة التي كانت منذ ايام الاغريق القدامى تعتبر اصغر وحدة لغوية) وايجاد تعريف علمي دقيق لها ، ولكنهم لم يوفقوا الى ذلك رغم الجهود التي بذلت في هذا الموضوع حتى اليوم .

والعجيب في الامر ان مفهوم **الكلمة** واضح وضوحا تاما بين الناس جميعا ، عامتهم وخاصتهم ، الاميين منهم والمثقفين . فاذا طلبت من احد الناس أن يذكر مائة كلمة من كلمات اللغة العربية مثلا ثم عرضتها على انسان اخر فانك تجد اتفاقا كبيرا جدا بينهما . ومع ذلك فلم يستطع حتى اليوم لا اصحاب المعاجم ولا علماء اللغة أن يجدوا تعريفا دقيقا لهذا التعبير . فقد نظروا في الكلمات التالية مثلا :

رجل : رجال

علي : معدي كرب : سر من راى

ضرب : ضارب : تضارب

يعلموني : سيعلموني : اسيعلموني : اسيعلمونيها ؟

وتساءلوا هل هذه جميعا كلمات من نفس النوع والمستوى ؟ وقد كانوا في تساؤلهم هذا يبحثون عن أصغر وحدة لغويـة ذات معنى ، ولم يكن مفهوم الكلمة كما هو معروف لدى عامة الناس ، أو كما انحدر اليهم من القواعد التقليدية ، ليوصلهم الى بغيتهم . فكلمة **رجال** مثلا تفيد معنيين على الاقل (وذلك دون استعمالها في سياق لغوي) هما : معنى **رجل** بالاضافة الى معنى **الجمع** الذي دل عليه اضافة صوت الالف مع تبديل في حركة الراء في أول الكلمة . اما كلمة **يدرسون** ففيها بالاضافة الى معنى **الدرس** الاصلي عدة معان أخرى دلت عليها اضافات وتغييرات في بنية الكلمة الاصلية . ففيها ما يشير الى الزمن الحاضر أو المستقبل وفيها ما يدل على أن الفاعل هو الغائب وفيها ما يدل على الجمع الخ . أما الكلما تالاخيرة في القائمة المذكورة أعلاه فكل منها **جملة تامة** في اللغة العربية .

ان امورا كهذه ، وان اختلف التعبير عنها من حيث الصوت والطريقة في اللغات المختلفة ، قد حفزت العلماء الى البحث عن مفهوم اخر للتعبير عن أصغر وحدة لغوية ذات معنى يمكن أن تصلح اساسا لتحليل جميع اللغات ، وقد اطلقوا على هذه الوحدة اسم **المورفيم** الذي أشرنا اليه اشارة عابرة فيما سبق ، وقسموا هذه الوحدة الى نوعين : سموا النوع الاول « **المورفيم الحر** » (free morpheme) أي الذي لا يمكن استعماله بحرية كوحدة مستقلة في اللغة مثل : رجل ، نام ، كبير ، الى ، حضارة الخ ، ودعوا النوع الاخر : « **المورفيم المقيد** » (bound morpheme) وهو الذي لا يمكن استخدامه منفردا بل يجب اتصاله بمورفيم حر أو مقيد اخر ، وامثلة هذا :

الالف والنون : للدلالة على معنـى المثنـى ، كما في كلمة « ولدان » .

الواو والنون : للدلالة على معنيي الجمع والتذكير كما في كلمة « معلمون » .

التاء المربوطة : للدلالة على معنى التأنيث كما في كلمة « صغيرة » .

الالف والتاء : للدلالة على معنيي التأنيث والجمع ، كما في كلمة « بنايات » .

وغيرها كثير مما يعرفه تماما كل متكلم بهذه اللغة . كما قسموا هذه المورفيمات المقيدة الى نوعين رئيسيين : منها ما يدخل في علم **الاشتقاق** (derivational morphemes) ومثله ما يطرا على الفعل المجرد في اللغة العربية من اضافات وتغييرات لينتج عنها ما نسميها بالافعال المزيدة مثل : كسر (من كسر) وانفجر (من فجر) وقاتل (من قتل) . ومثله كذلك ما يطرا على الفعل من تغييرات وزيادات لكي تكون منه عددا من الاسماء المشتقة **كالمصدر واسم المرة واسم الهيئة واسمي الزمان والمكان** وغير ذلك كثير مما لا يخفى على القارىء . اما النوع الثاني فيشمل ما يطرا على الافعال والاسماء والصفات الخ . بحسب موقعها في الجملة كالالف والنون والواو والنون والتاء المربوطة والالف والتاء التي اشرنا اليها اعلاه ، وهذه كلها تدخل في باب **التصريف** وتسمى (inflecting morphemes) اي انها متصلة اتصالا وثيقا بعلمي الصرف والنحو .

ثم اخذوا يستنبطون القواعد التي تحكم طوق اتصال هذه المورفيمات المختلفة بعضها ببعض ومعنى كل منها وخاصة تلك التي لا يمكن استخراجها من المعجم ، وهي تلك التي ذكرناها في اخر الفقرة السابقة والتي تؤثر تاثيرا مباشرا في تركيب الجملة اي انها تتصل اتصالا وثيقا بعلم النحو .

وعلى الرغم من تعرض المورفيم للنقد الشديد في الاونة الاخيرة ، وعلى الرغم من بروز بعض الصعوبات في تطبيقه على الانواع المختلفة من اللغات وحتى على اللغة الانكليزية نفسها التي اخترع هذا المفهوم لخدمتها فلا زال اداة صالحة يمكن الاستفادة منها في التحليل الصرفي لبعض اللغات .

فالمعروف أن اللغات ليست كلها من نوع واحد من حيث التركيب الداخلي للكلمات ومن حيث الطرق المختلفة التي تستخدم فيها للدلالة على مواقع الكلمات المختلفة من الاعراب في الجملة .

فهنالك مثلا اللغات التي تستخدم المورفيمات الحرة فقط بينما يدل نظام الكلمات في الجملة على العلاقات النحوية ، كاللغة الصينية . وهنالك اللغات التي تستخدم فيها مقاطع منفصلة تلحق اواخر المورفيمات الحرة وتختلف عن اللواحق الصرفية في انها يمكن أن تستعمل في بعض السياقات كمورفيمات حرة كاللغات التركية والهندية والهنغارية ، ففي اللغة الاخيرة تعني عبارة **(هزاكبان)** : (١) (**في المنزل**) وهي مؤلفة من « هاز » ومعناها « منزل » « وآك » ومعناها « الجمع » و « بان » ومعناها « في » . وهناك اللغات التي تستخدم عددا من المورفيمات المقيدة يتصل بعضهـا ببعض لتكون عبارة أو جملة كاملة ، ففي احدى لغات الهنود الحمر تعني العبارة التالية :

جنا جلاسليزاكس (٢) : انا ابحث عن قرية

والعبارة تتألف من صوت الحرف « ج » ومعناه « أنا » و « ناجلا » وتفيد معنى « مقيم » و « سل » وهي تضفي على اللفظة السابقة معنى الاسمية ليصبح معناها معها « قرية » ، وصوت الحرف « ي » وهو صوت يسبق الكلمة التالية ليجعل منها فعلا ، و « زاك » ومعناها « ابحث عن » واخيرا صوت « س » ويدل على الاستمرار . وليس لاي من هذه المورفيمات معنى محدد اذا استعمل منفردا . واخيرا هنالك اللغات التي نسميها **اللغات المعربة** وهي التي تعبر عن العلاقات النحوية اما عن طريق الاصوات المنفردة او المقاطع في أول المورفيم الحر او في اخره أو عن طريق

---

(١) haz — ak — ban

(٢) g — naglan -sl -i -zak -s

التغييرات الداخلية في هيكل الكلمة او عن طريق اثنتين منها او كلها معا . وهذا الكلام ينطبق على اللغة العربية مثلا . (١)

كما أن من المعروف ايضا أنه لا توجد لغة معينة تتبع كليا احد الانواع الاربعة المذكورة سابقا . لهذا كله واجه مفهوم « المورفيم » بعض الصعوبات عند تطبيقه حتى على لغة واحدة بعينها ، ولنأخذ على ذلك امثلة من اللغتين الانكليزية والعربية فقط لتوضيح الامر .

فمن السهل مثلا تطبيق هذا المفهوم على الطريقة التي يصاغ فيها الجمع القياسي باللغة الانكليزية وذلك باضافة "s" أو "es" بثلاثة أصوات مختلفة وهي (س) و (ز) و (از) للمورفيم الحر أو أصل الاسم المفرد . كما يمكن تفسير حتى بعض الشواذ مثل ox وجمعها oxen و child وجمعها children اما عندما نصطدم بجمع مثل sheep للمفرد sheep بدون حصول اي زيادة أو تغيير فان الانسان يبدو سخيفا عندما يقول بأن المورفيم في هذه الحالة = صفر . وكذلك عندما نصطدم بتغيير في صوت العلة الداخلي للكلمة عند تحويلها من الافراد الى الجمع مثل tooth وجمعها teeth أو foot وجمعها feet فان من الصعب جدا تفسير هذه الظاهرة عن طريق مفهوم « المورفيم » ، كأن نقول بأن المورفيم الحر أي جذر الكلمة مؤلف من الصوتين (ت) و (ث) في الحالة الاولى ومن (ف) و (ت) في الحالة الثانية ــ وليس اي منهما مورفيما حرا بالطبع واننا نضيف صوت (أو) للمفرد و (اي) للجمع ونعتبر كلا منهما مورفيما مقيدا . فهذا التفسير غير مقبول لدى البعض في نطاق نظرية المورفيم .

وفي اللغة العربية ايضا يمكننا تطبيق مفهوم المورفيم على جملة كاملة تستخدمه استخداما كليا كالجملة التالية التي تبدو وكأنها كلمة واحدة فقط :

---

(١) انظر الباب العاشر ص ٢١ وما بعدها من الكتاب التالي
Mario Pei : Invitation to Linguistics (Doubleday), 1965.

استعلمونيها ؟

فهذه يمكن تقطيعها الى المورفيمات التالية :

ا : ومعناها الاستفهام

س : ومعناها الاستقبال

ت : ومعناها المخاطب (المفرد او المثنى او الجمع)

علم : وهي المورفيم الحر ، أصل الفعل (١)

ن : وتعني الجمع (وهي تشير ايضا الى نوع الفاعل)

ي : وتعني المتكلم في حالة المفعول به

ها : وتعني الغائب المؤنث في حالة المفعول به ايضا

اما اذا اخذنا مثلا فعلا مبنيا للمعلوم وحولناه الى صيغة المجهول مثل :

ضرب و ضرب

فان من الصعب جدا تفسير هذا التغيير عن طريق مفهوم « المورفيم » لان ما حصل هو تغيير في الاصوات الداخلية للكلمة ، وهي نفس المشكلة التي واجهناها في بعض أمثلة اللغة الانكليزية المذكورة سابقا .

ولهذا السبب فان الباحثين في اللغات المختلفة اليوم يستفيدون من هذا المفهوم ولكنهم لا يعتمدون عليه اعتمادا كليا ، بل يضيفون اليه مفاهيم اخرى تناسب التركيب الصرفي الخاص بتلك اللغة المعينة التي يحاولون ايجاد وتقعيد النظام الصرفي لها .

اما الامر الصرفي الاخر الذي عالجه اللغويون المحدثون بطريقة تختلف عن الطريقة التقليدية فهو ما يتعلق **باجزاء الكلام** (parts of speech) . فالنحويون العرب يقسمون الكلام الى ثلاثة اجزاء فقط هي **الاسم والفعل والحرف** ، ويحاولون تصنيف

---

(١) الواقع اننا يجب ان نأخذ في الاعتبار هنا اللام الزائدة والحركات ايضا ولكننا سنتغاضى عن ذلك هنا رغبة في التبسيط .

جميع مفردات اللغة العربية بموجب هذا التقسيم . وقد كان هذا هو نفس التقسيم الذي اعتمده قدماء اليونان . ولكن الرومان فيما بعد ثم لغويي القرون الوسطى في اوروبا توسعوا في هذا التقسيم الى ان وصل الينا بشكله الحاضر . وقد قسم هذا النظام كلمات اللغات الى ثمانية اجزاء هي : **الاسم والفعل والضمير والصفة والظرف وحرف الجر وحروف العطف** بالاضافة الى مجموعة محدودة العدد من الكلمات التي تعبر عن العواطف المختلفة . وقد اعتمد هذا التقسيم على معايير معينة الا انها لم تستخدم جميعها عند تعريف كل جزء من تلك الاجزاء ، بل استعمل بعضها في تعريف بعض الاجزاء بينما استعمل غيرها في تعريف اجزاء اخرى فقد عرف الاسم مثلا بأنه :

« تلك الكلمة التي تدل على انسان او حيوان أو جماد ، وتقبل العلامات الدالة على الحالات الاعرابية ـ اي حالة الفاعلية او المفعولية الخ . »

اما الفعل فقد عرف بأنه « الكلمة الدالة على حدث أو على حالة والتي تقبل تلك العلامات التي تشير الى الزمن او المتكلم / المخاطب / الغائب / والعدد ـ اي الافراد والتثنية والجمع ـ ». وفي كلا التعريفين نلاحظ استعمال معيارين معينين .

اما حرف الجر فقد عرف بأنه : « كلمة توضع قبل اي جزء اخر من اجزاء الكلام سواء كان مفردا ام متصلا بغيره اتصالا نحويا » وهنا نلاحظ استعمال معيار ثالث مختلف عن المعيارين السابقين .

لقد استعمل علماء اللغة القدامى من العرب والغربيين ثلاثة انواع من المعايير اساسا لتقسيم الكلام الى اجزائه ، وهذه الانواع هي :

المعيار الاول : وهو المعنى ، اي علاقة الكلمة بالعالم الخارجي ، كما ورد في تعريف الاسم والفعل بأعلاه .

المعيار الثاني : هو الشكل او المبني من حيث قبوله لحركات او زوائد تدل على حالات اعرابية او معان صرفية او نحوية مختلفة ، كما ورد ايضا بالتعريفين السابقين للاسم والفعل .

اما المعيار الثالث : فهو موضع الكلمة بالنسبة للكلمات الاخرى في التركيب اللغوي او الجملة التامة .

لقد اخذ بعض علماء اللغة المحدثين على اللغويين التقليديين استخدامهم المعنى كأحد المعايير لتحديد ذلك الجزء من أجزاء الكلام الذي تنتمي كلمة ما اليه .

وكان هؤلاء هم انصار **المدرسة الوصفية التشكيلية** (التي اشرنا اليها سابقا) الذين اصروا على ابعاد المعنى من اي تحليل لغوي ، ولذلك فقد اعتمدوا في تعريف وتحديد اجزاء الكلام على المعيارين الثاني والثالث المذكورين اعلاه . وقد تجنبوا حتى استعمال التعابير ـ **اسم** ، **فعل** ، **صفة** ، الخ ـ لكي لا يقود ذلك الى اللبس واستبدلوها بالارقام فسموها الجزء الاول (او المجموعة الاولى) والجزء الثاني (او المجموعة الثانية) وهلم جرا . وقد كان الاستاذ **فريز من جامعة ميشجان** اشهر من قام بهذا العمل . وقد كانت نتيجة دراسته انه احتفظ بأجزاء الكلام الرئيسية التي نعرفها وهي : **الاسم والفعل والصفة والظرف** ، الا ان بقية الاجزاء التقليدية انقسمت الى خمس عشرة مجموعة اخرى بموجب المعيارين المستخدمين (١) .

ومع ان مدارس لغوية حديثة اخرى عالجت هذا الموضوع بطرق مختلفة ، الا ان الاتجاه الحديث متفق على ما يلي : ـ

---

(١) انظر كتاب :
Charles Fries, The Structure of English (Longman), 1969.

اولا : لا يجوز ان يقسم كلام لغـة معينة الى اجـزاء بناء علـى تقسيم لغة اخرى . فقد كان لطريقة تقسيم الكلام عند اليونان والرومان القدماء اثرها العميق على الطريقة التي استعملها الاوروبيون منذ العصور الوسطى حتى عهد قريب بناء على الاعتقاد الذي ساد تلك العهود بان قواعد اللغات جميعا واحدة ولذلك فان ما يصلح للغة اليونان مثلا يجب ان يصلح لايـة لغة اخـرى . وقد كان لهذا الاعتقاد اثره على اللغويين العرب ايضا الذين قسمـوا الكلام بحسب التقسيـم الذي اقامـه علمـاء مدرسة الاسكندرية من قدماء اليونان (اي : اسم وفعل وحرف) ولا زال كذلك حتى وقتنا هذا ، وان كان بعض اللغويين العرب المعاصرين قد قاموا بمحاولات جادة للانعتاق من سيطرة التقسيم التقليدي ، ومحاولـة دراسة اجـزاء الكلام العربي على اساس اللغة العربية نفسها وبالاستناد الى المعايير المستعملة في عصرنا الحاضر . ولعل مـن افضل المحاولات في هذا المجال ما قام به الدكتور / تمام حسان في كتابه « اللغة العربية ـ معناها ومبناها » الذي توصل الى سبعة اجـزاء للكلام العربي وهي : الاسـم والصفة والفعل والضمير والخالفة ، والظرف والاداة . ويستطيع من شاء الاطلاع على تفاصيل هذه الدراسة الجادة الرجوع الى ذلك الكتاب .

ثانيـا : (وهذه ملاحظة تعتمد على ما سبقها) ليس من الضروري ان تتشابه اجزاء الكلام في لغة ما مع لغة اخرى ، سواء من حيث عددها أو من حيث الكلمات التي تندرج تحتها . فكلمتا / **قبل وبعد** في اللغة العربية مثلا تعتبران **ظروفا** بينما مثيلاتها تعتبر **حروف جر** في اللغة الانكليزية . كما انه ليس في اللغة الصينية مثلا جزء من الكلام يشمل ما نسميها بحروف الجر وان اقرب ترجمة لهذه الكلمات

الى اللغة العربية مثلا تستخدم الافعال لا حروف الجر .
كما ان كثيرا من الصفات باللغة الانكليزية مثلا عندما
تترجم الى اللغة اليابانية تبدو تابعة لما نسميه بالفعل .
وربما **كانت الظاهرة الوحيدة الموجودة في جميع لغات**
العالم هي المقابلة بين الاسمية والفعلية ، اي ان هذا
التقسيم بين الكلمات الدالة على الاسمية وتلك الدالة
على الفعلية يمكن ملاحظتها في جميع لغات الارض .

ثالثا : ان المصطلحات الفنية « **اسم / فعل / صفة / ضمير**
الخ » التي تسمى بها اجزاء الكلام المختلفة ، ليست كلها
كلمات مستعملة استعمالا — عاديا بين اصحاب اللغة
وهذا ينطبق انطباقا تاما على اللغة الانكليزية مثلا
فالكلمات (adverb, adjective, verb, noun الخ)
الخ) ليست من مفردات اللغة العادية ، بل هي مصطلحات
خاصة مستعملة في التحليل اللغوي (ويشبه هذا في
اللغة العربية المصطلحات التالية الى حد ما : **مفعول**
لاجله ، **تمييز** ، **حال** ، **نعت** الخ) .
ولذلك فاننا يجب الا نستعمل هذه التعابير للدلالة على
ذلك الجزء او تلك المجموعة من الكلام التي تم تصنيفها
سابقا في لغة معينة بالذات . بل يجب اولا ان نقوم
بالتصنيف بطريقة علمية ونحدد المعايير التي نستند اليها
في تصنيفنا ، ولا يهم بعد ذلك ان نستعمل التعبير القديم
للدلالة على تلك المجموعة التي تم تصنيفها .

رابعا : وهنا نكرر ما ذكرناه سابقا من ان الفصل بين انظمة
اللغة المختلفة غير طبيعي وهو يتم بقصد تسهيل عمليات
التحليل والدراسة فقط . فكما وجدنا ان النظام الصوتي
اساس للنظام الصرفي فان النظام الصرفي اساس للنظام
النحوي ، بل ان ارتباطهما شديد للغاية حتى ان احد
المعايير المستعملة في تعريف اجزاء الكلام ، وهو موضع

الكلمة في الجملة ، معيار نحوي لان هذا الموضوع يؤثر تاثيرا كبيرا او قليلا ـ حسب نوع اللغة التي تحت الدراسة ـ في وظيفة تلك الكلمة في الجملة سواء كانت عاملا او مفعولا به او نعتا او منادى الخ .

ولذلك نجد من الضروري ان ننتقل الان الى بحث النظام النحوي في اللغة .

ب ـ النظام النحوي

لقد كان النظام النحوي لب الدراسات اللغوية في هذا القرن على اعتبار انه قلب الانظمة اللغوية جميعها وواسطة العقد بينها ، فهو الذي يصل بين الاصوات والمعاني . وما النظام الصرفي الذي يبحث بين امور اخرى كيف تنتظم الاصوات المفردة للتعبير عن المعاني المفردة ، الا احدى الوسائل التي يستعملها النظام النحوي للتعبير عن المعاني الكلية .

وربما كان استعمالنا لعبارة **المعاني الكلية** غير دقيق تماما هنا ، فان المعنى الكلي للكلام لا يحكمه النظام النحوي وحده . لاننا اذا اعتبرنا الكلام المتصل (discourse) او حتى ما يسمى بالقول (utterance) ـ الذي يمكن ان يشمل اجزاء من جمل ، او عدة جمل معا ـ مادة بحثنا اللغوي ، علينا ان نأخذ بعين الاعتبار امورا اخرى كثيرة ، بعضها لغوي صرف ، ولكن للبعض الاخر علاقة بالاساليب المختلفة في الخطاب ، وله علاقة بوظائف اللغة المتعددة ، كما ان له علاقة بالمقام الذي يقال فيه الكلام . اي ان علينا ان نوسع البحث اللغوي بحيث يشمل نواحي اجتماعية ونفسية وحسية كثيرة .

وعلى الرغم من ان هذا هو بالضبط ما تحاول احدث مدرسة لغوية ان تفعله ، الا ان هذا الاتجاه لا يزال في بداية عهده ، وهو اتجاه متشابك مع علمي النفس والاجتماع تشابكا كبيرا وسيتطلب

وقتا طويلا قبل ان ترسى قواعده على اسس علمية صلبة ـ ان كان ذلك ممكنا ـ وقبل ان يتبلور وضعه بالنسبة للمناهج الاخرى التي سادت القسم الاكبر من القرن الحالي .

ونظرا لصعوبة البحث اللغوي العلمي في الكلام المتصل فقد اتخذت غالبية المدارس اللغوية التي ظهرت منذ الربع الثاني من القرن الحالي ، **الجملة** وحدة لغوية مناسبة للدراسة ولم تتعداها .

الا ان مفهوم الجملة ليس مفهوما واضحا كما قد يتبادر الى الذهن ، ولذلك فان تعريفها من أشق الامور . دعونا ننظر الى الحوار التالي :

ـ هل تذكر قريبي الذي حدثتك عنه أمس ؟
ـ ماذا حدث له ؟
ـ تزوج
ـ ممن ؟
ـ من صديقة قديمة
ـ اليس هو الرجل نفسه الذي كان قد فسخ خطوبته قبل مدة ؟
ـ بلى

ولنسأل انفسنا الان : هل نعتبر كلا من هذه الاقوال جملة ام نفرق بينها ؟ وما هي المعايير التي سنستخدمها لتبرير اجابتنا مهما كانت هذه الاجابة ؟ ان ظاهر القول يعطينا صورا مختلفة جدا عن طريقة تركيب كل قول منها ، ومع ذلك فقد أدت كل منها معنى فهمه المخاطب ورد عليه بطريقة فهمها المتكلم الاصلي وهكذا ، والنتيجة نموذج من الحوار المفهوم .

اما الصور المختلفة فهي :

ـ العبارة الاولى مؤلفة من شقين يبدو كل منهما شبيها بالاخر من حيث التركيب : في كل منهما فعل وفاعل ومفعول به . ولكن يبدو أن الشق الثاني : « الذي حدثتك عنه امس » لا يستطيع

الوقوف على قدميه منفردا بينما يستطيع ذلك النسق الاول « هل تذكر قريبي ؟ » .

ـ العبارة الاخرى هي : « تزوج » وتتألف من فعل مفرد .

ـ العبارة الثالثة هي : « ممن ؟ » وتتألف من حرف جر واسم استفهام .

ـ العبارة الرابعة هي : « من صديقة قديمة » وتتألف من حرف جر واسم مجرور وكلمة تصف هذا الاسم هي كلمة : « قديمة » (أي شبه جملة) .

ـ العبارة الاخيرة هي : « بلى » وهي كلمة تفيد الموافقة على كلام سابق ، وتظهر كشكل ثابت في كل سياق تقع فيه .

اما اذا اعتبرنا كلا من هذه التعابير « جملة » بناء على معيار معين ، ولنفرض انه « المعنى » فان علينا عندئذ الا نعتمد على الشكل الخارجي الظاهر لهذه العباراة فحسب ؛ بل نلجأ الى طرق اخرى لتبرير قرارنا الذي اتخذناه .

هذه احدى الطرق التي يمكن استخدامها في الوصف والتحليل اللغويين ، وهي تتلخص في أن نبدأ البحث بتعريف للجملة ثم نحاول أن نخضع دراستنا لهذا التعريف ونقيدها به . ولكن هذه ليست بالطريقة السليمة ، لان للجملة عددا هائلا من التعاريف المختلفة التي طلع بها علماء اللغة من أيام أفلاطون حتى يومنا هذا ، ومع ذلك فقد كانت تلك التعريفات قيودا على البحث لا عوامل مساعدة له .

من الناحية الاخرى فقد شغل علماء اللغة الغربيون أنفسهم لسنوات طويلة في النصف الاول من القرن الحالي بمحاولة ايجاد وسائل ومناهج للكشف عن عناصر الجملة المختلفة وطريقة ترابطها وللكشف عن أنواع الجمل المختلفة ، (وهو ما سنبحثه بشيء من

التفصيل بعد قليل) فتاهوا عن الهدف الاساسي للبحث في خضم الامور الاجرائية الشكلية التي وجدوا انفسهم منغمسين فيها . (١)

ولذلك فقد اقتنع علماء اللغة المعاصرون بأن أفضل طريقة للبحث اللغوي العميق هو الاخذ **بالمفهوم العام للجملة** كأساس للدراسة واعطاء هذا المفهوم تعريفا مبدئيا كأن نقول أن الجملة هي « **شكل لغوى مستقل** » أو انها « تتألف من مسند ومسند اليه » مثلا نقوم بتعديل هذا المفهوم بناء على نتائج البحث والدراسة . أي أن يكون التعريف الفعلي للجملة هو **نتيجة** البحث كله ، لا مقدمة له .

هذا هو منهج البحث المعاصر ، ولكن سبقته ــ كما ذكرنا مناهج اخرى ، مهدت له ، وزودته بخبرة جيدة من النواحي الاجرائية لا زال أثرها واضحا حتى اليوم .

لقد اشرنا في الفصل الثاني من هذا الكتاب الى **المدرسة الوصفية التشكيلية** التي كان **بلومفيلد** رائدها الاول في أمريكا ، والتي سيطرت دراساتها ونتائج ابحاثها على الجو العام في أوروبا وكثير من انحاء العالم الاخرى لسنوات طويلة بلغت ذروتها في الخمسينات من هذا القرن ولكنها لا زالت ذات اثر حتى وقتنا الحاضر . ولكي نستطيع أن نفهم ردة الفعل العنيفة ضد هذه المدرسة التي ظهرت في ربع القرن الماضي ، لا بد ان نطلع على ما قدمته للدراسات اللغوية ، مما كان يعد ثورة حقيقية في ذلك الوقت .

---

(١) ربما كان افضل مثال على ذلك ما فعله Zelling Harris في كتابه :

Methods in Structural Linguistics, (Univ. of Chicago Press), 1951.

لقد ذكرنا في الفصل الثاني ، وفي الجزء الرابع من ذلك الفصل على وجه التحديد ، أمرين هامين يتعلقان بهذه المدرسة : (١) .

أولهما : انها كانت ردة فعل لجميع الدراسات السابقة التي تسمى **بالدراسات التقليدية** والتي ذكرنا اهم خصائصها في الفصل المذكور .

وثانيهما : أن انصار هذه المدرسة كانوا متأثرين بنظريات **علم النفس السلوكي** التي كانت سائدة في ذلك الوقت . والتي كانت تقتصر دراساتها على ظاهر الاشياء فقط .

ولذلك فقد اصطبغت اعمال هذه المدرسة بأثر هذين العاملين .

فما هو المنهج الذي اتخذته سبيلا لها ، واين وصل بها ذلك المنهج ؟

لقد تميزت هذه المدرسة وخاصة في أول عهدها بخصائص ثلاث :

اولاها : الاصرار على تحليل كل من الانظمة الثلاثة الظاهرة للغة : النظام الصوتي والنظام الصرفي والنظام النحوي ، على حدة بمعزل عن النظام الاخر .

والخاصية الثانية : الاصرار على استبعاد المعنى استبعادا كليا من التحليل اللغوي ، ليس لانه لا اهمية له . بل لايمان اصحاب هذه المدرسة بأن المعنى لا يمكن اخضاعه لنوع الدراسة الوصفية العلمية الدقيقة التي يمكن أن تخضع لها الانظمة الظاهرة الاخرى ــ وسنعود لهذه النقطة قريبا .

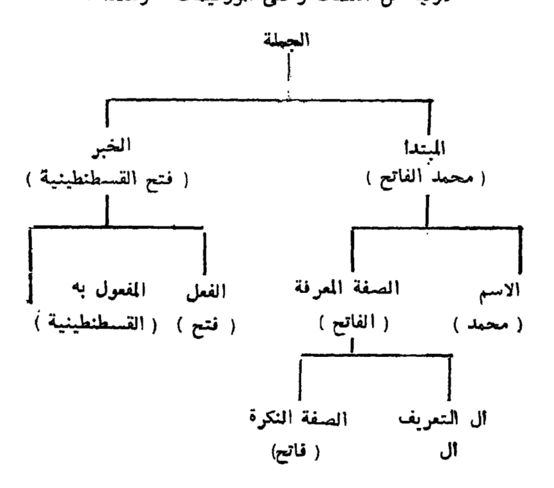
---

(١) انظر أيضا مبحث النظام الصرفي ص ٢٧٢ وما بعدها .

اما الخاصية الثالثة : التي سنبحثها بشيء من التفصيل الان فهي اتخاذ هذه المدرسة منهجا واساليب محددة أكثر وضوحا ودقة مما كان معروفا حتى ذلك الوقت في الدراسات اللغوية التقليدية . اما المنهج الرئيسي الذي اتبعوه لتحليل الجمل فهو ما يدعى « **بالتحليل الى المكونات المباشرة** » (Immediate Constituent Analysis) الذي يمكن بموجبه تحليل الجملة ليس على اساس انها مؤلفة من كلمات مرصوفة بعضها بجانب بعض افقيا ، هكذا :

محمد / الفاتح / فتح / القسطنطينية

بل على اساس أنها مؤلفة من طبقات من مكونات الجملة بعضها اكبر من بعض الى أن يتم تحليلها الى عناصرها الاولية من الكلمات وحتى المورفيمات ، وهكذا :



وقد كان هذا المنهج في تقطيع الجمل وسيلة لتحليلها الى العناصر التي تتألف منها ومعرفة اي جزء من اجزاء الكلام يتبع كل عنصر ، وذلك بموجب سلوكه اللغوي في الجملة ، والاهتداء الى علاقات الكلمات بعضها ببعض . فنحن عندما نقوم بالتقطيع الاول لهذه الجملة الى الجزئين الكبيرين المباشرين (محمد الفاتح) و (فتح القسطنطينية) ، ونجرى نفس العملية على جمل كثيرة اخرى ، نستنتج أن نموذجا واحدا على الاقل من نماذج الجملة العربية يتألف من هذين الجزئين اللذين يمكن أن نسميهما ما شئنا : « **مبتدا وخبرا** » او « **مسندا ومسندا اليه** » او خلافهما . فاذا اردنا معرفة العناصر التي يمكن ان يتألف منها المبتدأ استعملنا نفس الاسلوب في تقطيعه في عدد من التراكيب المشابهة في عدد اخر من الجمل ، وصلنا الى النتيجة بأنه يتألف بشكل رئيسي من كلمة مثل « محمد » في جملتنا الحالية ، يمكن ان نسميها « **اسما** » وبأن هذا الاسم يمكن ان يوصف بعناصر أو تراكيب مختلفة يمكن الاهتداء اليها وتصنيفها ، وهي في جملتنا الحالية كلمة « الفاتح » التي يمكن أن ندعوها **صفة** او **نعتا** او ما شئنا من الاسماء المناسبة. وباستعمال نفس الطريقة يمكننا ان نعرف أن الخبر يتألف (في احدى نماذج الجملة باللغة العربية وفي جميع نماذج الجملة باللغة الانكليزية) من **فعل** هو « فتح » في الجملة الحالية ، وربما عنصر اخر شبيه بالعنصر الاساسي في المبتدأ هو « القسطنطينية » في هذه الجملة ، وهو ما اطلقنا عليه تعبير **الاسم** . كما أن هذا التحليل يبين لنا العلاقات التي تقوم بين كل من الاجزاء الكبيرة ثم الاصغر منها ثم الصغرى بعضها ببعض ـ وان لم يهتم انصار هذه المدرسة بتسمية او تحديد طبيعة تلك العلاقات ، كما سنذكر بعد قليل .

لقد استخدم هذا المنهج ليس لتحديد وتصنيف اجزاء الكلام فحسب ، بل ولتصنيف انواع النماذج الجملية الاساسية الموجودة في اللغة الانكليزية واذا طبقنا اسلوبهم في التحليل اللغوي على اللغة العربية مثلا : خرجنا ، على طريقتهم ، ببعض نماذج الجملة المتوفرة في اللغة العربية والمذكورة فيما يلي :

النموذج الاول : اسم معرفة + اسم نكرة
علي طبيب

النموذج الثاني : اسم معرفة + صفة نكرة
زيد مريض

النموذج الثالث : اسم معرفة + ظرف (أو شبه جملة بمعنى الظرف)
محمد هناك
او سمير تحت الشجرة
او سمير في البيت

النموذج الرابع : اسم معرفة + فعل لازم
علي سافر

النموذج الخامس : ظرف (أو شبه جملة بمعناه) + اسم نكرة
في البيت رجل

النموذج السادس : اسم معرفة + فعل متعدي لمفعول
أحمد غادر البلدة

النموذج السابع : اسم معرفة + فعل متعدي لمفعولين
محمد أعطاني كتابا

وهذه جميعا نماذج لما نسميها **بالجملة الاسمية** ، ويمكننا أن نفعل الشيء نفسه بالنسبة **للجملة الفعلية مثل :**

النموذج الثامن : فعل + اسم (معرفة أو نكرة)
سافر علي (رجل)

وهلم جرا ، الى ان نتوصل الى جميع النماذج الاساسية للجملة في اللغة العربية . والمقصود بالجملة الاساسية الجملة المجردة من الزوائد كالصفات وما في حكمها والظروف التي تتبع

الفعل وما في حكمها . لان باستطاعتنا ان نطيل كل نموذج من تلك النماذج من طرفيه : طرف المبتدأ وطرف الخبر ، اطالة كبيرة ، بل ونظريا الى ما لا نهاية كأن نقول :

المبتدأ : الرجل الذي يقف على ناصية الشارع رافعا يده " متى طالبا من السيارة التي تسير على يسار الشارع ان تقف لتوصله الى مكان عمله الخ الخ .

الخبر : يفعل ذلك كل صباح منذ أن تعرفت به في بيتكم الجديد الواقع في الضاحية الشرقية من المدينة منذ عامين . الخ الخ .

وقد توصلوا بمنهجهم هذا الى حصر جميع الجمل في اللغة الانكليزية مثلا تحت نماذج تسعة أو عشرة اساسية تنبثق عنها اضافات وتعديلات كثيرة تصل بها الى مئات الاشكال . وعهدنا ليس ببعيد بسلاسل لتعليم اللغة الانكليزية يطلق عليها عنوان "English 900" أو "English 901" اشارة الى النماذج التسعة الاساسية واشكالها المختلفة التي تصل الى تسعمائة أو تزيد قليلا .

لقد اشرنا قبل قليل اشارة عابرة الى أن انصار هذه المدرسة اللغوية لم يهتموا كثيرا بتحديد العلاقات بين عناصر الجملة وتراكيبها الفرعية . واحقاقا للحق نقول بأن المتأخرين منهم من امثال **بايك** (١) فطنوا الى هذه النقطة وادخلوا عنصر **الوظيفة اللغوية** في منهجهم التحليلي وجمعوا ما بين جزء الكلام ووظيفته في الجملة ، بأن اخذوا يقسمون الجملة الى اطارات كاطار المبتدأ الذي يمكن ان يملأ اما بأحد اجزاء الكلام كالاسم أو الضمير أو الفعل (ومثالهم على الفعل جملة شبيهة بهذه الجملة العربية : ان **تصوموا**

---

(١) K. Pike, Language in Relation to a Unified Theory of Human Behavior (The Hague : Mouton), 2nd rev. ed., 1967.

خيرا لكم) : أو بجملة فرعية (clause) مثل جملة : أن محمـداً رجل أمين أمر معروف للجميع » . وفعلوا الشيء نفسه بالنسبة لاطار الخبر وهكذا .

وعلى الرغم من جميع التعديلات التي ادخلت على منهج هذه المدرسة اللغوية فيما بعد ، فان علماء اللغة المعاصرين مقتنعون بعدم جدوى هذا المنهج في التحليل اللغوي لاسباب كثيرة يمكن اجمالها فيما يلي :

أولا : انه لم يكن بالامكان تطبيق هذا المنهج في التحليل على جميع انواع الجمل أو الاجزاء الرئيسية من تلك الجمل . فليس من الممكن مثلا على المكان الذي نقطع فيه مبتدأ مثل :
الغلام النشيط المجد اللطيف هذا .....

فاذا أجرينا القطع الاول ما بين كلمتي **الغلام** وما بعدها ، وهو مكان معقول للقطع فأين يجرى القطع التالي والتالي الخ ؟
لقد دفعت هذه المشكلة العلماء المعاصرين الى القول بأن هذا الاسلوب لا يبدو أسلوبا صحيحا لفهم التركيب النحوي للجملة ، وانه لا يعدو أن يكون منهجا لا غير ، منهجا بدائيا للتصنيف ليس الا ، وهذا يقودنا للسبب الثاني .

اما السبب الثاني فهو أن هذا المنهج غير ملائم وغير كاف لفهم التراكيب اللغوية فماذا نعني بهذا ؟ المقصود أن هذا المنهج غير قادر على ابراز وتفسير عدد كبير من العلاقات اللغوية ومثال ذلك : العلاقات بين الجمل . فاذا أخذنا جملتين مثلا الفعل في احداهما مبني للمعلوم بينما في الجملة الاخرى الفعل مبني للمجهول ، مثل :
قتلت الحرب الاف البشر

و : قتل الاف البشر في الحرب
او اخذنا جملة خبرية واخرى استفهامية مثل :
ذهب الرجل الى السوق
و : الى اين ذهب الرجل ؟

فان اقصى ما يستطيع هذا المنهج فعله ان يحلل كلا من الجملتين الاوليين أو اللاحقتين على حده وبنفس الطريقة السابقة دون أن يشير ولو اشارة عابرة الى اية علاقة تربط كلا من الزوجين. ومن الواضح ان منهجا من هذا النوع لا يستطيع ان يزودنا بالقواعد اللازمة لتحويل جملتين مترابطتين واحدة الى الاخرى ليس بالمنهج المفيد او المقنع . ان اللغة بأسرها علاقات وترابطات مختلفة ، ومنهج من هذا النوع يبدو ساذجا اذا طمع أصحابه في أن يكون بمقدوره أن يعطي التفسيرات المناسبة لكل من تلك العلاقات .

لقد ذكرنا في بداية هذا البحث في المدرسة الوصفية التشكيلية أن احدى خصائصها أنها استبعدت المعاني استبعادا كليا من مجال دراستها ، وركزت اهتمامها كله على الشكل الخارجي للغة . ولم يكن سبب هذا فقط ما اشرنا اليه من صعوبة اخضاع المعاني للتحليل العلمي الصارم على اعتبار أن الفكر في راي علماء النفس السلوكيين ليس الا كلاما غير مسموع ، اي أنه من حيث المبدأ احد اشكال السلوك الظاهري . وعلى هذا فلم يكن المعنى الذي يعبر عنه تركيب لغوي ، في راي اتباع هذه المدرسة السيكولوجية ، الا « **المقام** الذي يقال فيه الكلام **والاستجابة** التي يستدعيها من المستمع » مما يجعل تحليله تحليلا علميا أمرا بالغ الصعوبة . (١) ولكن بالاضافة الى ذلك ، فقد كان استبعاد المعنى أيضا ردة فعل للقواعد التقليدية التي استخدمته استخداما سيئا في التحليل اللغوي .

ان الكلام عن التحليل اللغوي من غير اشارة الى المعنى هو كمن يصف طريقة صنع السفن من غير اشارة الى البحر ــ بحسب تعبير أحد اللغويين المعاصرين ــ (٢) . لقد أشرنا سابقا الى ضرورة ادخال المعاني ضمن الدراسات اللغوية بل كجزء أساسي منها

---

(١) See J. Lyons : Chomsky (Fontana/Collins), 1970, p. 31.

(٢) Crystal : op. cit., p. 211.

(بشرط اخضاعها للمنهج العلمي الصارم) وذلك لشرح العلاقة بين الجمل التي تحمل نفس المعنى بينما تكون تراكيبها الخارجية مختلفة : كالمعلوم والمجهول والجمل الخبرية والاستفهامية والمنفية الخ . وهنا نضيف أن ادخال دراسة المعاني ضرورية أيضا عند محاولة تحليل بعض الجمل الغامضة نحو :

النساء والرجال المسنون غير قادرين على الاعمال الشاقة .

فنحن لا نستطيع عند محاولة فهم هذه الجملة ان نحكم فيما اذا كانت صفة **المسنون** تصف الرجال والنساء معا ، أم أنها مقصورة على الرجال فقط . وبهذا يكون للجملة معنيان مختلفان .

أو كالجملة التالية :

هذه احدى نكات مطاعم لندن القديمة

فيمكن أن تكون كلمة **القديمة** صفة لاحدى **النكات** او **للمطاعم**، وهذا أيضا يعطينا معنيين مختلفين لنفس الجملة . أو كالجملة التالية :

شهادة الزور أضرت بك .

فليس من الواضح من تركيب هذه الجملة فيما اذا كان المخاطب هو الذي ادلى بشهادة الزور أو أن شخصا اخر هو الذي فعل ذلك . وأمثال هذه الجملة في اللغات كثيرة ولا بد لاية نظرية لغوية جيدة أن تعالج امورا من هذا النوع والنوع الذي سبقه ، ولكن منهج المدرسة الوصفية التشكيلية لم يكن قادرا على ذلك ، كما أنه في اخر الامر ، لم يبد أكثر من مجرد منهج .

انه منهج اثبت جدارته وفائدته في الكشف عن قواعد بعض اللغات التي لم تكن مكتوبة وليس لها قواعد معروفة كلغات الهنود الحمر في أمريكا ولكنه ليس منهجا قادرا على الكشف عن قواعد لغات معروفة ومكتوبة جرت عليها كثير من الدراسات السابقة كاللغات الحديثة مثلا ، كما أنه بالتأكيد ليس نظرية لغوية متكاملة .

لقد دعا هذا الامر علماء اللغة الى التخلي تدريجيا ثم نهائيا عن هذا المنهج واستبداله بنظرية أكثر عمقا وشمولا . ولم يكن من قام بأعمـال هذه المدرسـة اللغوية الا واحـدا من ابنائها هـو تشومسكي (Chomsky) الذي ذكرناه على استعجال في الفصل الثاني من هذا الكتاب والذي سنتعرض لنظريته هو وانصاره بشيء من التفصيل الان .

• • •

لقد كان تشومسكي أحد تلامذة هاريس (Harris) الذي كان قطبا من أقطاب المدرسة الوصفية التشكيلية ومؤلف أفضل كتاب يعرض لمنهج تلك المدرسة في تحليل اللغات . (١) ولذلك فقد كان التلميذ في أول حياته أحد اتباع تلك المدرسة تمرس في منهجها حتى أتقنه اتقانا تاما وكانت أول كتاباته لا تخرج عن الخط الذي اتبعه انصارها . ولكن ما أن اتى عام ١٩٥٧ الذي طلع على العالم فيه بكتابه المسمى **التراكيب النحوية** (Syntactic Structures) حتى كان قد بدأ يبتعد ابتعادا واضحا عن ذلك الخط ، وانفصمت عرى العلاقة بينه وبين تلك المدرسة عندما خرج عام ١٩٦٥ بكتابه التاريخي الاخر **اوجه النظرية النحوية** (Aspects of the Theory of Syntax) ولكن قبل أن نعرض لهذه النظرية التي شغلت اللغويين منذ بروزها حتى الان لا بد من الاشارة الى أن من المحتمل أن تشومسكي ما كان ليتوصل الى تلك النظرية لو لم يتتلمذ على يد هاريس ولو لم يتمرس تمرسا كاملا بالمنهج العلمي الذي اتخذه أعضاء تلك المدرسة اللغوية وسيلة لعملها .

كما أن من المهم أن نذكر ايضا أن نظرية تشومسكي قد تطورت تطورا كبيرا ليس على يديه فحسب بل وعلى أيدي عدد آخر من تلاميذه ومساعديه ، فانبثقت عنها فروع متعددة شغلت معظم علماء اللغة في العالم كله حتى اليوم وأصبح من العسير جدا حتى على اللغوي المتخصص متابعة اخر التطورات التي تطرأ على الفروع المتعددة . ولذلك فلن نستطيع هنا ـ حتى لو اردنا ـ أن نأتي على تفاصيل نظرية واحدة ناهيك عن الفروع المتعددة . وجل ما يمكننا تقديمه هو فكرة عامة عن الاسس التي تقوم عليها النظرية الاساسية وأوجه الاختلاف الرئيسية بينها وبين النظريات السابقة وبخاصة أعمال المدرسة الوصفية التشكيلية التي اتينا على ذكرها بايجاز في الصفحات القليلة السابقة ، ثم التطورات الهامة التي طرأت على النظرية في السنوات الاخيرة .

---

(١) انظر الحاشية صفحة ٢٨٨ بأعلاه .

لقد تعرضنا في الفصل الاول بشيء من التفصيل الى النقد الذي وجهه تشومسكي الى انجازات المدرسة اللغوية الوصفية التشكيلية والى الاسس السيكولوجية التي بني عليها منهج تلك المدرسة والذي بين فيه عدم كفاية ذلك المنهج لتفسير السلوك اللغوي وان انصار تلك المدرسة لم يقدموا بالفعل نظرية لغوية بالمعنى الصحيح كما بينا ايضا في عدة مناسبات سابقة وجهة نظر تشومسكي القائلة بأن اية نظرية متكاملة للغة لا يمكن أن تبنى على الكلام الفعلي مهما بلغ حجم العينة من ذلك الكلام التي تجرى عليه الدراسة وان هدف اية نظرية لغوية يجب أن يكون التوصل الى القواعد التي تمكن أصحاب لغة معينة من توليد أو خلق جميع الجمل الصحيحة في تلك اللغة وعلى عدم خلق اية جمل غير صحيحة (الا اذا حصل خطأ في تطبيق تلك القواعد) .

كما تطرقنا بكثير من التفصيل في الفصل الثاني الى نظرية تشومسكي بالنسبة للقدرة الفطرية الكامنة (innate competence) التي تخلق مع الطفل عند ولادته وذكرنا التجارب العديدة التي أجريت ولا زالت تجرى لاثبات أو دحض ما أتت به تلك النظرية .

وسنحاول هنا أن نعطي فكرة سريعة ، لا بد أن تكون سطحية بعض الشيء ، عن نظريته اللغوية التي بدأ بها منذ عام ١٩٥٧ والتي تأثر بها جميع العلماء والدارسين حتى وقتنا هذا! وهنا لا بد من توضيح بعض المصطلحات الفنية التي استعملها تشومسكي بمعان مختلفة عما هو معهود عنها .

فهو يعتبر أن موقع **النحو** (Syntax) من اللغة هو بمثابة القلب من جسم الانسان أما كلمة ((**القواعد**)) (grammar) فهي عنده **تشمل النحو بالاضافة الى الصرف كما تشمل النظام الصوتي ونظام المعاني ايضا . فهي بهذا اصطلاح شامل جدا لجميع القواعد التي لها علاقة بجميع وجوه اللغة المختلفة .**

وربما كان أهم ما قدمه تشومسكي في نظريته اللغوية هــو **الدقة والوضوح** المتناهيان اللذان استعملهما في القواعــد التــي وضعها ، فقد حاول أن يجعل تلك القواعد مماثلة من حيث الدقة والوضوح للقوانين الرياضية التي كان متأثرا بها الى حد كبير .

وربما كان أفضل ما يبدأ به البحث في نظرية تشومسكي اللغوية (التي أصبحت تدعى بالقواعد التحويليــة التوليديــة . (Generative Transformational Grammar) هو أن نبحث عن الهدف الذي وضعه هو لعلم قواعد اللغة . فقد عرف هو نفسه في وقت مبكر « قواعد اللغة » بأنها **جهاز او وسيلة لتوليد جميع الجمل الصحيحة في لغة معينة ولا جمل غير تلك الجمل الصحيحة** ـ اي المتمشية مع القواعد (١) ومما يلفت النظــر في هذا التعريف امور ثلاثة :

الامر الاول : أن هذا الاتجاه في البحث موجه بشكل رئيسي **للجملة** على اعتبار انها الوحدة اللغوية الاساسية ، أما اشبــاه الجمل الفرعية الاخرى، (Phrases and clauses) فهي تبحث ضمن نطاق مفهوم الجملة .

والامر الثاني : هو الاصرار على أن القواعد يجب أن تكون قادرة على **توليد أو خلق الجمل الصحيحة فقط** . وهنا لا بد أن نميز بين هذا النوع من القواعد والقواعد التقليدية لان الشبه بين الاثنين يبدو كبيرا اذا نظرنا اليهما نظرة سطحية ولكن الواقع ان الفرق شاسع . فالقواعد التقليدية كانت **معيارية** بمعنى انها تفرض الصواب والخطأ بالنسبة للكلام الفعلي الذي يستعمله الناس ولكن قواعد النظرية الجديدة لا هي بالمعيارية بهذا المفهوم ولا هي وصفا للكلام الفعلي ، بل هي قواعد للجملة على اساس انها شكل تجريدي

---

(١) Chomsky : Syntactic Structures, reproduced in Crystal op. cit., p.' 121.

نظري ، ولذلك فلا علاقة لها بالصواب والخطأ بالنسبة للاستعمال الفعلي للغة .

كما أن علينا أن نفهم المعنى الاخر الذي يقصده تشومسكي من كلمة (Generate) أي **يولد او يخلق** ، ومن الصفة (generative) التي توصف بها نظريته اللغوية بالاضافة الى المعنى المفهوم منها حتى الان مما سبق من الكلام عنها .

فهو يقصد من هذه العبارة معنى **الدقة والوضوح التامين** اللتين تعبر عنهما الكلمة في العلوم الرياضية التي تأثر بها تشومسكي تأثرا كبيرا . ولكي يتضح هذا المعنى ، نأخذ مثلا من العلوم الرياضية . فلو نظرنا الى هذه المعادلة الجبرية البسيطة :

٣ س + ٤ ص – ع = ؟

وأردنا ان نستبدل الرموز بأعداد صحيحة لايجاد قيمتها ، لوجدنا ان باستطاعتنا **توليد** عدد من القيم لا نهاية لها . فاذا كانت قيمة س = ١ ، ص = ٢ ، ع = ٣ مثلا كانت القيمة الناتجة = + ٨ . فاذا أصبحت س = ٢ ، ص = ٣ ، ع = ٤ مثلا كانت القيمة الناتجة = + ١٤ ، أما اذا كانت قيمة س = ٣ ، ص = ٤ ، ع = ٣٠ مثلا كان الحاصل = – ٥ وهكذا . وبهذا يمكننا القول أن + ٨ ، + ١٤ ، – ٥ ، هي بعض من القيم التي يمكن أن تولدها هذه المعادلة ، تلك القيم التي يمكن أن تمتد الى ما لا نهاية . وهذه القدرة على توليد القيم هي التي كانت في ذهن تشومسكي عند تفكيره بنظريته اللغوية التي تحاول أن تفسر **القدرة اللغوية** على التوليد والخلق ، أي أنها تفسر ما دعاه (competence) . اما اذا قام انسان بحل المعادلة الجبرية المذكورة آنفا ، وحصل على الجواب الخاطىء فذلك مثل من أمثلة التصرف الفردي ، وهو ما يمكن ان يحصل بالنسبة **للكلام** الفعلي . (performance) (١)

---

(١) Lyons : Chomsky, pp. 43-44.

اما **الامر الثالث** : فيتعلق بالتعبير **جميع الجمل الصحيحة** الذي ذكر في التعريف السابق . وهذا يعني أن القواعد يجب أن تكون قادرة على توليد جميع الجمل الممكنة في تلك اللغة . وبما أن من المفروض أن عدد الجمل التي يمكن توليدها عدد غير محدود أي لا حصر له نظريا ، ولكن عدد القواعد في اية لغة محدود جدا ، فلا بد اذن من وجود نوع من **القواعد المتكررة** (Recursive Rules) أي التي يمكن تطبيقها مرة بعد اخرى بحيث يمكن اطالة الجملة نظريا الى ما لا نهاية ولهذا السبب يمكن تكوين جمل جديدة في كل مرة ، بحيث يصبح عدد الجمل التي يمكن توليدها في كل لغة غير محدود من الناحية النظرية . ومن تلك القواعد مثلا **القاعدة المتعلقة بالصفات** التي يمكن أن تتبع الاسم . فان عدد هذه الصفات لا نهاية له ، ولا يقف عند حد الا بسبب من ظروف واقعية تمنع ذلك عمليا عند القيام بعملية الكلام . ومثال ذلك قولنا : **قل هو الله الواحد الاحد الفرد الصمد الحي القيوم الرحمن الرحيم الجبار المتكبر المهيمن السلام الخ الخ** ـ الى أن ننتهي من ذكر جميع الصفات التي يمكن أن يتصف بها المولى عز وجل . (١)

ومن أمثلة هذه القواعد ايضا : **القاعدة التي تسمح بتكوين الجمل الفرعية داخل الجملة الرئيسية** كالجمل التي يطلق عليها اسم « الجمل الموصولة » التي تظهر في المثال التالي :

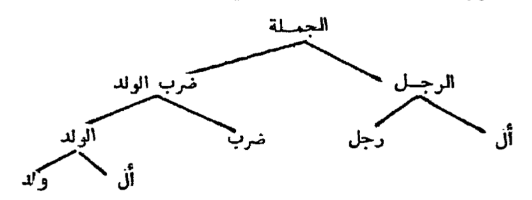
هذا هو الرجل الذي يسكن البيت الذي اشتراه من جاره الذي تركه الى البيت الاخر الذي يقوم على قمة التلة التي تقوم على الطرف الشرقي من المدينة التي تقع شمالي القمر الكبير الذي يسكنه بعض افراد الاسرة المالكة الذين يقضون فيه فصل الصيف ـ الخ الخ .

---

(١) بعض اللغويين المعاصرين لا يعتبر هذه القاعدة قاعدة متكررة .

لقد اشرنا سابقا أيضا الى أن منهج المدرسة اللغوية الوصفية التشكيلية قد استبعد **المعاني** من التحليل اللغوي وان هذا كان احد العيوب الرئيسية التي اخذت على ذلك المنهج . وعلى الرغم من ان نظرية تشومسكي في اوائل عهده اعطت دراسة المعنى مكـانا ثانويا ، الا انها تطورت على يديه وعلى يدي زملائه وتلامذته بحيث اصبح المعنى جزءا رئيسيا من تلك النظرية ، بل ان بعض تلامذته حاولوا فعلا التقدم بنظرية كاملة عن نظام المعاني في اللغة وربطوه بالنظرية الاساسية للقواعد التحويلية التي بداها هو . (١)

وقد وردت اول اشارة الى حتمية استعمال المعاني في التحليل اللغوي في اول مجموعة من القواعد التي اقترحتها هذه النظرية وهي ما سميت **بقواعد التحليل النحوي الاولى**(Phrase Structure Rules) وهذه اولى الخطوات او الطبقات للقواعد الكاملة للغة وهذه القواعد لا تختلف كثيرا عن طريقة تحليل المدرسة السابقة للجملة الا من حيث انها تقعد بشكل دقيق طريقة التحليل . فبدلا من أن نحلل « الرجل ضرب الولد » بالشكل التالي فقط :



كما راينا سابقا ، فان النظرية الجديدة تنظم هذا التحليل على شكل القواعد التاليـة :

---

(١) انظر الجزء القادم من هذا الفصل الذي يبحث فيه نظام المعاني .

القاعدة رقم ١ : الجملة مبتدأ + خبر
القاعدة رقم ٢ : المبتدأ ال + اسم
القاعدة رقم ٣ : الخبر فعل + اسم
القاعدة رقم ٤ : ال ال التعريف
المفردات :

الاســـم رجل ، ولد

الفعـــل ضرب

وميزة الطريقة الجديدة هي انها ترتب او تنظم الخطوات التحليلية وتربطها معا باعتماد كل خطوة منها على خطوة سابقة لها ، كما انها تعطينا صورة واضحة عن التركيب الهرمي « الافقي للجملة بالاضافة الى هذا فان باستطاعتنا بواسطة هذه المجموعة من القواعـد البسيطة وبواسطة عدد من الكلمات لا يزيد عن الخمس ان نركب لا جملة واحدة فقط بل جملتين اثنتين هما :

١ ــ الولد ضرب الرجل ٢ ــ الرجل ضرب الولد

وبهذا نطلع على صفة هامة من صفات القواعد اللغوية وهي القدرة على الخلق او **التوليد** . فانا اذا اضفنا فعلا اخر او فعلين واسما اخر أو اسمين نضاعف أعداد الجمل التي يمكن ان نركبها أو نولدها باستعمال هذه القاعدة . فاذا وصل عدد الاسماء الى الف وعدد الافعال الى الف امكننا ان نولد بليونا من الجمل باستعمال هذه القاعدة البسيطة للغاية .

كما أننا عن طريق هذه القاعدة نتوصل الى البنية الداخلية أو العميقة للجملة التي تتالف من العناصر التالية :

أل + اسم + فعل + ال + اسم

كما أن القاعدة تفسر معرفتنا كأصحاب اللغة بأن الاسم الذي نبدأ به الكلام هو الفاعل (الحقيقي) في هذه الجملة والثاني هو الذي يقع عليه الفعل اي المفعول به) ـ وهذه العناصر بحسب هذه النظرية هي التي تؤلف البنية الداخلية او العميقة للجملة (وهي التي تحمل معاني المفردات والعلاقات بين المفردات ايضا) . وهذا ما يسمى (deep structure) اي **البنية العميقة** وهي فكرة وان لم تكن جديدة تماما ، الا انه لم يسبق أن قام أحد قبل تشومسكي بتوضيحها ووضع القواعد الكاملة لها .

اذا قواعد من هذا النوع تحلل اية جملة الى عواملها الرئيسية في البنية الداخلية او العميقة . فهل هنالك قواعد تساعدنا على تشكيل جمل على السطح اي جمل فعلية ظاهرية تحمل نفس المعنى ولكنها تختلف من حيث التركيب الخارجي ؟ مثلا لو اردنا أن نطلق الجملة السابقة في صيغة المجهول بدلا من صيغة المعلوم أو في صيغة الاستفهام بدلا من الاخبار ماذا نفعل ؟ نضع لها قواعد اضافية من نفس نوع القواعد السابقة ؟

جواب هذه المدرسة اللغوية أننا يجب أن نفترض ونجد مجموعة اخرى من القواعد نستطيع بواسطتها تحويل المعلوم للمجهول او الاخبار للاستفهام او النفي مستخدمين نفس العناصر الاولية المتوفرة لدينا في البنية الداخلية ، ما دام المعنى الاساسي واحدا . وقد توصلوا فعلا الى مجموعة من القواعد التي تؤدي هذه المهمة وسموها **بالقواعد التحويلية** . (Transformational Rules) واعتبروا هذه المجموعة من القواعد هي المجموعة الثانية والتالية من حيث ترتيب التطبيق للقواعد السابقة .

ان ما سميناها حتى الان بالبنية الداخلية صورناها على شكل غير دقيق ، لان العناصر التي تتكون منها هذه البنية ، في الواقع تبدو بشكل اكثر تفصيلا وتجريدا ولذلك فسنعطى مثلا اخر على ذلك . فجملة مثل :

الاولاد يلعبون الكرة

اذا طبقت عليها المجموعة الاولى من القواعد نخرج بالعناصر التالية في البنية الداخلية :

(ال + ولد + مذكر + جمع +) + (لعب + مضارع + مذكر + جمع + غائب) + ال + كرة + مفرد) .

ولكي تتحول هذه العناصر الى جملة فعلية تحمل الاصوات والاشكال الصرفية المعروفة في اللغة ، لا بد اذا من مجموعة ثالثة من القواعد الصوتية التي تحولها بالشكل التالي :

ال + ولد + مذكر + جمع الاولاد

لعب + مضارع + مذكر + جمع + غائب يلعبون

ال + كرة + مفرد الكرة

فتصبح الجملة النهائية (بعد تطبيق قواعد نحوية معينة)

الاولاد يلعبون الكرة .

ولايجاز ما سبق الكلام فيه ، نورد فيما يلي شكلا يبين المنهج والمجاميع الثلاثة من القواعد التي اقترحت بشكل أولي لتفسير الظواهر اللغوية .

العناصر الاولى للجملة

القواعد النحوية الاولية
القواعد التحويلية
القواعد الصرفية الصوتية
الشكل الصوتي النهائي للجملة

ولكن هذه النظرية سرعان ما عدلت بحيث ادخل عنصر المعنى بشكل أعمق في قواعد اللغة فأصبحت طريقة التحليل حسبما هو مبين في الشكل التالي :

النحـو

القواعد التحويلية	التركيب الاساسي
↓	↓
القواعد الصوتية	البنية الداخلية أو العميقة
↓	↓
الاصوات	قواعد المعاني
	↓
	المعاني
(أي الشكل الصوتي للجملة)	(أي معنى الجملة) (١)

وهكذا فان **العلاقة** بين البنية الداخلية للجملة والمعنى من جهة والشكل الصوتي من جهة اخرى أصبحت أكثر وضوحا ، وان كان علماء اللغة قد لاقوا مشقة كبيرة في ربط المعاني بشكل علمي واضح بالتحليل النحوي والصوتي للغة ؛ الا أن الصورة أصبحت واضحة من حيث وظيفة كل نظام من الانظمة اللغوية المختلفة :

فالنظام النحوي يزودنا بالمعلومات عن تركيب الجملة الاساسي والعميق **والقواعد التحويلية** تزودنا بالمعلومات عن الشكل الخارجي أو البنية الخارجية للجملة ، **أما النظام الصوتي** فانه يزودنا بالمعلومات عن الطريقة التي تنطق بها الجملة بينما **يدلنا نظام المعاني** على معنى تلك الجملة . وهكذا أصبحت « **قواعد اللغة** » تعني : **العلاقة بين الاصوات والمعاني** . وقد كان اهم ما قدمته تلك المدرسة اللغوية هو محاولة وضع هذا المفهوم القديم في صورة علمية دقيقة تكاد تبلغ مبلغ الرياضيات من حيث الدقة والوضوح .

وحالما شعر علماء اللغة المختلفو المشارب والاتجاهات بأهمية المعنى في اية نظرية لغوية بداوا يوجهون اهتمامهم اليه وحاولوا الخوض فيه بشكل علمي متحررين من الانطباعات السابقة التي كانت سائدة عن هذا النوع من الدراسة حتى ذلك الوقت ،

---

(١) Crystal : op. cit., p. 229.

ومتأثرين تأثرا كبيرا بالمنهج العلمي الرياضي الدقيق الذي بداه تشومسكي . فقام بعض زملائه مثل كاتس وفودر (Katz and Fodor) باكمال هذا الجانب من النظرية وربطه بالنظرية الاساسية (١) ، ولكن عملهم لم يكن مقنعا للكثيرين مما حدا بغيرهم لتقديم نظريات جديدة نذكر واحدة أو اثنتين منها باقتضاب شديد . فقد قال مكولي (McCawley) مثلا (٢) بامكانية ربط المعنى مباشرة بالبنية النحوية الاساسية للجملة دون حاجة الى افتراض **البنية الداخلية او العميقة** التي جعلها تشومسكي وتلاميذه خطوة متوسطة بين التركيب والمعنى ، وبامكانية بحث المشاكل المتعلقة بالمعنى (كغموض بعض الجمل ، والمعاني المختلفة لجملتين تركيبهما الخارجي واحد ـ كما أشرنا الى ذلك في حينه) التي افترض وجود بنية عميقة لتفسيرها ، داخل ذلك الجزء من الجملة الذي يتعلق بالمعنى ودراساته مباشرة دون وسيط . وقد امتدت نظرية مكولي فشملت الوسيط الاخر الذي اقترحته مدارس سابقة وهو **الفونيم** (الذي بحثناه بشيء من التفصيل في بداية هذا الفصل) وبوساطة القواعد الخاصة لهذا النظام الصوتي . اي أن مكولي قام باختصار خطوات التحليل اللغوي وبربط التركيب النحوي للجملة مباشرة بالمعنى من جهة وبأصوات اللغة من جهة اخرى .

وقد كان للمقالتين الاثنتين اللتين شرح فيهما مكولي أفكاره ، والمشار اليهما من قبل ، تأثير كبير على الدراسات اللغوية حتى يومنا هذا ، فقد بدأ العلماء يعيدون النظر بنظرية تشومسكي من

---

(١) Katz and Fodor (eds) : The structure of Language (Prentice-Hall), 1964, pp. 479-518.

(٢) J.D. McCawley : "Concerning the Base Component of a Transformational Grammar", Foundations of Language, vol. 4 (1968), pp. 243-269.

———— : The Role of Semantics in a Grammar, in Bach and Harms (eds). Universals in Linguistic Theory, (N.Y. Holt, Rinehart and Winston), 1968 pp. 124-169.

اساسها ويحاولون استبدالها بنظريات جديدة اقل تعقيدا واقرب الى الحس اللغوي البديهي . ولعل أهم هذه النظريات الجديدة هي تلك التي اتى بها العالم **فلمور** (Charles Fillmore) كتعديل جذري لنظرية تشومسكي والتي تستحق أكثر من اشارة عابرة ، لما كان لها من الاثر على التفكير اللغوي المعاصر . (١)

لقد دعا فلمور نظريته « **قواعد الحالة (الاعرابية)** » (Case Grammar) وهو لا يعني بالحالة (الاعرابية) المفهوم القديم للتعبير الذي يشير الى ما يطرأ على الاسم من التغيرات الصرفية عند وقوعه فاعلا أو مفعولا به ، بل هو يقصد مجموعة المفاهيم التي تمكن الانسان من اصدار بعض الاحكام المختلفة عما يدور حوله من **احداث كمعرفة من يقوم بعمل ما ، ومن يقع عليه حدث ما ، وما الذي حدث ومتى وقع ذلك الحدث واين الخ** . ويعطي فلمور الامثلة التالية على جمل يشعر الانسان انها متشابهة في المعنى رغم اختلاف تركيبها الخارجي : ــ

١ ــ فتح **علي** الباب .
٢ ــ فتح **المفتاح** الباب .
٣ ــ انفتح الباب على يدي علي .
٤ ــ فتح علي الباب بالمفتاح .
٥ ــ استخدم علي المفتاح لفتح الباب .

أما في الجملة الاولى فان **الفاعل الظاهري هو علي** ولكنه **المفتاح** في الجملة الثانية **والباب** في الجملة الثالثة ، الا أن العلاقة الحقيقية لكل من هذه الاسماء الثلاثة بالفعل تختلف من كل جملة الى الاخرى ففي الجملة الاولى نرى ان عليا هو **الفاعل الحقيقي** ، وفي الجملة الثانية « المفتاح » هو **الاداة** التي فتح بها الباب أما في

---

(١) انظر الصفحات ١ ــ ٩٠ من كتاب : Bach and Harms
المذكور في الحاشية السابقة تجد فيه عرضا كاملا لنظرية فلمور الاصلية .

الجملة الثالثة فان الباب **هو الذي وقع عليه الحدث بالفعل** . والسؤال الذي يطرح نفسه هو : هل اثرت الاشكال الخارجية المختلفة للجمل الثلاثة على العلاقات المعنوية بين الاسماء الثلاثة المختلفة وبين الفعل المستعمل في كل منها ؟ ما دام ذلك لم يحصل ، فان الامر الذي يبدو مهما وجديرا بالدراسة هو هذه **العلاقات المعنوية الاساسية** في الجمل ، ولذلك يجب أن تصبح هذه العلاقات هي النقطة المركزية التي يجب أن يعالجها التحليل اللغوي ويعمل على تفسيرها . ويعتقد فيلمور بأن هذه العلاقات العميقة تكون نظاما عاما ينطبق على جميع اللغات بغض النظر اذا كان الفاعل الشكلي في احدى اللغات كالانكليزية مثلا يسبق الفعل ، بينما هو يتبع الفعل كما في اللغة العربية وغيرها من اللغات . وهذه النقطة نقطة خلاف رئيسية بين ما جاء به فلمور وبين النظريات الاخرى التي تفترض بنية عميقة لكل جملة كنظرية تشومسكي . ولكن نقطة الخلاف الاخرى هي ان هذه المفاهيم او العلاقات التي يفترضها فلمور أعمق من تلك العلاقات التي أبرزها تشومسكي وتلاميذه فيما دعوه بالبنية العميقة للجملة بمعنى انها علاقات **معنوية لا نحوية** . ولذلك فان الشكل العام لنظرية فلمور يضع المعاني (اي العلاقات المعنوية المشار اليها بأعلاه) في الدرجة الاولى من الافضلية، اي انها تأتي **اولا** في التحليل اللغوي ، ثم تتحول بوساطة قواعد نحوية وصرفية وتحويلية وصوتية الى الشكل الخارجي الظاهر للجمل . وهكذا ترى انه لم يمض قرن على الدراسات اللغوية الحديثة حتى اكمل الرقاص حركة كاملة من الطرف الواحد الى الطرف الاخر تماما ، فبينما كان انصار المدرسة الوصفية التشكيلية يبدأون تحليلهم من الصوت مرورا بالنظام الصرفي فالنحوي وصولا الى المعاني ، انقلبت الآية تماما واصبح هذا التحليل يبدأ من المعنى مرورا بتلك الانظمة الى ان يصل الى الاصوات الفعلية للجمل . واصبحنا نرى كتبا لقواعد اللغة الانكليزية مثلا مصنفة حسب المفاهيم او المقولات المشتركة التي بامكان البشر ، جميع البشر على سطح الارض ، التعبير عنها عن طريق اللغة ثم حسب الوظائف

المختلفة التي يمكن للاشكال اللغوية المختلفة التعبير عنها ، ثم تأتي الاشكال اللغوية المختلفة التي يمكن ان تعبر عن تلك المفاهيم وتقوم بتلك الوظائف واخيرا تأتي المظاهر الصوتية المتعلقة بطريقة نطق تلك الاشكال اللغوية . (١)

فمن أمثلة المفاهيم العامة :

١ ــ **الزمان** : النقطة الزمنية ، المدة الزمنية ، العلاقات الزمنية ، التكرار ، التتابع ، الخ .

٢ ــ **العدد والكمية** : العدد المحدود وغير المحدود ، الاعداد ، العمليات العددية الخ .

٣ ــ **المكان** : الابعاد ، المكان الثابت ، الحركة الخ .

٤ ــ **العلاقات المعنوية** : العلاقات المنطقية ، الفاعل ، المفعول، الباعث على العمل ، المستفيد من العمل ، الاداة ، الاسناد الخ .

٥ ــ **السياق والمقام** : السياق الكلامي ، المقام وعناصره المختلفة الشخصية والزمانية والمكانية الخ .

ومن امثلة المفاهيم التي لها علاقة بالعواطف والمواقف الانسانية :

١ ــ **مدى التأكد** : كالتأكد ، والاحتمال ، والامكانية ، والشك ، والنفي ، والتكذيب الخ .

٢ ــ **النيــة** : كالعزم ، والميل والقصد والرغبة ، والتفكير في عمل شيء أو التخطيط للقيام به والمسؤولية والولاء الخ .

ومن امثلة الوظائف اللغوية :

---

(١) انظر مثلا الكتابين التاليين :

A — Leech and Svartvik : A Communicative grammar of English (Longman), 1975.

B — D. A. Wilkins, National Syllabuses, (O.U.P.), 1976.

١ ـ **التقويم والحكم** : كالتقويم والتقدير والحكم على الشيء صوابا أو خطأ ، والاكتشاف ، واصدار الحكم ، كالحكم بالبراءة او الذنب ، والاعفاء والموافقة وعدم الموافقة والرفض الخ .

٢ ـ **التأثير على سلوك الاخرين** : كالاقناع ، والاقتراح ، وتقديم النصح والتوصية والاثارة ، والتشجيع والاجبار والتسامح الخ .

٣ ـ **الجدل** : كتأكيد الخبر ، والاعلان والنشر ، والسؤال ، والنفي والافحام والوصف والموافقة أو المخالفة الخ .

٤ ـ **العلاقات العاطفية** : كالتحية بأنواعها ، والتعارف وعرفان الجميل والمدح والتزلف والخصام الخ .

وجميع هذه أمثلة معدودات على هذه المفاهيم فمجال الفكر والعواطف والمواقف الانسانية مجال رحب للغاية .

ولكن مما يجدر ذكره هنا اننا بهذه الطريقة نبدأ بالمعنى والوظيفة المحددة ثم نحاول ايجاد الطرق اللغوية المختلفة للتعبير عنها ، بدلا من أن نسلك الطريق المعاكس الذي لا زال متبعا في معظم قواعد اللغة التي وضعت حتى الان . كما أننا اذا استعملنا هذه الطرق فاننا نلاحظ أن هنالك اشكالا لغوية متعددة يختلف بعضها عن بعض اختلافا قليلا أو كثيرا يمكنها أن تعطي نفس المعنى أو تؤدي نفس الوظيفة وسأعطي مثلا واحدا على ما أقوله :
فاذا أردنا ان نطلب من شخص ما بطريقة لطيفة ان يفتح النافذة مثلا ، بامكاننا ان نعبر عن ذلك بالطرق التالية (التي يمكن أن يضيف اليها القارىء عبارات أخرى من عنده) .

ـ هل تسمح بفتح النافذة ؟
ـ هل يضايقك أن تفتح النافذة ؟
ـ أتحب أن تفتح النافذة ؟
ـ هلا تكرمت (أو تلطفت) بفتح النافذة ؟

- أيضرك أن تفتح النافذة ؟
- هل تستطيع أن تفتح النافذة ، من فضلك ؟
- افتح النافذة من فضلك
- هل تمانع أن تفتح النافذة ؟
- هل لك أن تفتح النافذة ؟
- الجو خانق داخل الغرفة . والنافذة مغلقة
- الجو جميل في الخارج . والنافذة مغلقة
- ان فتحت النافذة تجدد الهواء في الغرفة
- أتمنى أن تفتح النافذة
- ربما كان بامكانك أن تفتح النافذة
- هل لي أن أزعجك بطلب فتح النافذة
- ليتك تفتح النافذة
- أكون شاكرا (أو ممتنا) لو فتحت النافذة

كما أن مما تجدر الاشارة اليه هنا ان **الطلب** يدخل عادة في القواعد التقليدية تحت باب **الامر** . بينما لم نستعمل في الجمل السابقة الا جملة واحدة فعلها في صيغة الامر اما باقي الجمل فبعضها استفهامي وبعضها الاخر خبري من حيث التركيب الخارجي . الا يحفزنا هذا الى التفكير بأن المعاني هي في الواقع أساس ما يجب دراسته في اللغات اما الاشكال الخارجية فما هي الا اللباس الذي ترتديه تلك المعاني او المفاهيم ؟

ربما كان الامر كذلك وعلى كل حال فان هذا الاتجاه يلقى رواجا كبيرا في أوروبا على وجه الخصوص حيث تألفت منذ عدة سنوات هيئة رسمية تسمى **مجلس أوروبا** (Council of Europe) مركزها في ستراسبورغ بفرنسا تهتم بهذه الدراسات ويشارك فيها أقطاب العلوم اللغوية من جميع جامعات أوروبا . وهذا لا يعني ان امريكا الشمالية بالذات بعيدة عن هذا الاتجاه ، بل إن الواقع انه بدا هناك بالفعل حيث تنصب الدراسات في السنوات الاخيرة على ما تسمى **العموميات اللغوية** (Linguistic Universals)

التي أشارت اليها النظرية التحويلية في اللغة للمرة الاولى بشكل واضح صريح . وهي تلك العناصر والقواعد التي يعتقد بأنها موجودة في جميع لغات العالم ، والتي يحاول العلماء المعاصرون معرفة طبيعتها على وجه التحديد . فهم يتساءلون ويبحثون عما اذا كان في جميع اللغات مثلا تلك العناصر التي نسميها **أسماء** او **افعال** او **حروف جر** وما الى ذلك ، وعما اذا **كانت البنيـات** الاساسية للجمل واحدة في جميع اللغات وغير ذلك من الاسئلة التي يؤمل أن تلقى المزيد من الضوء على الدراسات المتعلقة بأية لغة من اللغات التي يتكلمها البشر ، ومن السابق لاوانه ان تقويم مدى فائدة مثل هذه الدراسات أو النتائج التي ستنبثق عنها .

اما وقد وصلنا الى هذه المرحلة من البحث في النظام النحوي للغات وتبين لنا أن دراسة المعنى عنصر اساس لا غنى عنه ، ان كان لهذه الابحاث أن تؤتى بعض ثمارها ، فلا بد لنا من الانتقال الى البحث في نظام المعاني لنلقى نظرة على تطور الدراسات فيه وخاصة في القرن الحالي والصعوبات التي يعانيها الباحثون في هذا النظام .

٤ ـ نظام المعـاني :

ان دراسة المفردات ومعاني الجمل دراسة معقدة للغاية وعلى الرغم من وفرة الدراسات القديمة فان أيا منها لم تحاول ان تخرج بنظرية متكاملة عن العلاقات الكثيرة جدا التي تربط بين مفردات اللغة وتفسر نظام المعاني فيها بل كانت معظم الدراسات القديمة **اما تاريخية** تهتم بدراسة تطور معاني المفردات (etymology) أو تبحث في علاقة المفردات بالعالم الخارجي مما ينتج عنه الجدل القديم الجديد بين أصحاب النظريتين **التوقيفية والاصطلاحية** مما اشرنا اليه في اكثر من موضع في السابق ـ او انها كانت تتناول جوانب محدودة من المعاني كالترادف والتضاد وبعض النـواحي **البلاغية** الخ دون أن تربط بينها جميعا برباط متصل وبسبب بعض هذه الدراسات فقد انحدر الينا عدد من المفاهيم الخاطئة التي نجد صعوبة في التخلص منها اذا أردنا ان ندرس المعاني

ونستنبط من هذه الدراسة نظرية متكاملة لها وذلك بالتجرد العلمي اللازم . وهذه هي احدى الصعوبات التي واجهها علماء اللغة في العصر الحاضر .

اما الصعوبة الاخرى فهي متصلة بالاولى ، وتكمن في أن دراسة المعاني لم تكن في يوم من الايام مقصورة على عالم اللغة وحده بل هي باتساعها وتشعبها وتعدد أوجهها تكون نقطة التقاطع لعدد كبير من العلوم الانسانية كعلم اللغة والفلسفة والمنطق وعلم النفس وعلم الاجناس وعلم الاجتماع وعلم الحيوان والتربية والآداب والنقد الادبي والبلاغة وغيرها . وكل من هذه العلوم يتناول المعاني من زاوية معينة . كما أن الناحية التطبيقية من دراسة المعاني تهم رجل الاعمال وهو يصمم اعلانا للدعاية ، ورجل السياسة وهو يعد خطبته السياسية ومدرس اللغات ، والجغرافي ، كما تهم المؤرخ والرياضي والطبيب النفساني والانسان العادي ولنأخذ بعض الامثلة على ذلك .

فقد كان الفلاسفة ولا زالوا مهتمين باحدى النقاط الرئيسية المتعلقة بالمعاني وهي العلاقة بين المفردات والعالم الخارجي وهي ما يسمونها بالدلالة (reference) فهم يختلفون في النظر الى تلك الجمل التي تشير فيها الاسماء مثلا الى أشياء غير موجودة ، كأن تقول مثلا :

ـ ملك الولايات المتحدة رجل وسيم
أو طرزان صديق للحيوانات
أو الغول مخلوق مخيف

فكل فئة من الفلاسفة تنظر الى هذه الجمل وامثالها نظرة مختلفة، ووجه الخلاف هنا أن هذه الجمل سليمة من حيث التركيب وتقال بالفعل ، ولكن الاسم في كل منها لا يشير الى شيء موجود فعلا في العالم الخارجي . فهل نقول ان هذه الجملة **صادقة** (true) أم انها **غير مناسبة** (inappropriate) أم **غير حقيقية** (false) ؟

وسبب الخلاف كما ذكرنا أن الفلاسفة معنيون بشكل رئيسي بالدلالة على انها رابطة مباشرة بين مفردات اللغة والعالم الحقيقي خارج اللغة . هذا مثل سريع جدا من الفلسفة .

اما في **الادب** فان القوة بين مفردات اللغة والعالم الخارجي **تتسع** ، على اساس ان معظم الادب من نسج الخيال ، وان كان بعضه ممكن الحدوث في عالم الواقع ، ولذلك يستعمل الادباء على انواعهم وسائل واساليب مجازية مختلفة لبلوغ هدفهم وكلما كانت العبارة المجازية جديدة زاد ابتعادها عن عالم الواقع . كما يستخدم الاديب في بعض الاحيان لغة شخصية خاصة به(Subjective) ويترك للقارىء أن يفسرها على هواه ، كما فعل جيمس جويس وغيره في رواياتهم ــ وهذا شبيه بما حدث في الرسوم السريالية المعروفة ــ .

ولنأخذ مثالا اخيرا من علم النفس فهذا العلم كالادب يعني بالناحية الشخصية من المعاني ، لان علماء النفس مهتمون بدراسة **الادراك** (Perception) مثلا ، والادراك مسألة شخصية تختلف من انسان الى اخر . وقد توصل هؤلاء العلماء الى بعض الاساليب الخاصة بالكشف عن كيفية ادراك الفرد لمعاني المفردات . كما أن علماء النفس يعنون ايضا بوجه عام بتحديد **الصفات المعنوية للكلمات** (Semantic Features) التي سنذكرها بشيء من التفصيل بعد قليل ــ وقد توصلوا أيضا الى تعارف أفضل لبعض المفاهيم في علم المعاني **كالترادف والتضاد والتشابه الصوتي** وغيرها ، وذلك لاستخدامها في الدراسات النفسية العادية وفي تشخيص بعض الحالات النفسية المرضية . كما ان لعلماء النفس أيضا اهتمامات اخرى لها علاقة بالمعاني كطريقة اكتساب الطفل للغة ، والفرق بين لغة الانسان والحيوان ، مما اتينا على تفصيل بعضه في الفصل الثالث من هذا الكتاب . .(١)

---

(١) انظر الصفحات ١ ــ ١٣ من الكتاب التالي :
Nilsen and Nilsen : Semantic Theory (Rowley, Mass. : Newbury House), 1975.

أما الصعوبة الثالثة التي تواجه الباحث في علم المعاني فتتعلق بتحديد **طبيعة المعنى** . أي بما يجب بحثه في اطار نظرية متكاملة من جوانب المعنى المختلفة . هل تتركز الدراسة على دالة **الالفاظ المفردة خارج السياق** ؟ أم على تحديد دلالة تلك الالفاظ في اطار **السياق اللغوي** ؟ أم على دراسة **معاني الجمل** ؟ أم على هذه المعاني **ضمن الاطار اللغوي المحض** ؟ أم يدخل عنصر **المقام** ايضا بالاضافة الى السياق اللغوي ؟ وماذا عن **المعنى الاجتماعي** للجملة ؟ أو **المعنى الحضاري** ؟ الى اخر هذه الاسئلة التي تشعب الموضوع بحيث يصبح من غير الممكن حصره .

نستطيع أن نفهم اذا لماذا حاول اللغويون حتى عهد قريب جدا أن يتجنبوا البحث في هذا الموضوع الشديد التعقيد والمتعدد الجوانب . ومع ذلك فهم يحاولون هذه الايام الوقوف أمامه وجها لوجه واخضاعه للدراسة العلمية المنظمة وادماجه في نظرية متكاملة للقواعد اللغوية الشاملة رغم ان هذه المحاولات لم تلاق النجاح الكامل حتى الان نظرا لحداثة عهدها .

لقد قلنا أن دراسة المعاني كانت في القديم **تاريخية** في معظمها باستثناء نقاط مضيئة تشع من هنا وهناك في بعض الاحيان . فقد وصلنا عن أرسطو مثلا بعض الافكار عن تعدد معاني الكلمة الواحدة وتعدد الالفاظ الدالة على المعنى الواحد ، كما وصلنا فصله **للكلمة** وتعريفها على انها أصغر وحدة لغوية ذات معنى ، وكذلك تمييزه بين الكلمات ذات المعاني التامة ــ كالاسماء والافعال والصفات مثلا ــ وتلك التي تنحصر وظيفتها في الوصل بين تلك الكلمات في الجمل واشباه الجمل لتبيان العلاقات بينها ــ كحروف الجر وبعض الظروف وحروف العطف وال التعريف وما اليها ــ بالاضافة الى تقسيمه **للاستعارة** الى انواع مختلفة . كما وصلنا عن غير أرسطو ايضا آراء ودراسات مختلفة بعضها جدي وفيه شيء من الترابط كدراسات **علم المعاني** عند العرب ، وذلك ضمن النواحي البلاغية في اللغة وكالدراسات المتعددة عن **المترادفات والاضداد**

وغيرها . وهنا يجب الا نخلط بين هذا النوع من البحث وبين **المعاجم** التي يرجع تاريخها الى عهود سحيقة ، والتي كانت ولا تزال اجتهادات شخصية لشرح معاني المفردات بطرق مختلفة ، لم تعتمد على **نظرية سابقة** لدلالات المفردات .

ولذلك فان الغربيين يؤرخون **لعلم المعاني الحديث** (Semantics) من الربع الاول من القرن الحالي ، ويعترفون بتأثير **سوسير** الكبير على هذه البداية الجديدة لهذا النوع من الدراسة . وقد ظهر اثر سوسير في ناحيتين :

الناحية الاولى : انه بابتعاده عن الدراسات اللغوية التاريخية التي كانت سائدة في القرن التاسع عشر وبتفريقه بين الدراسة التاريخية والدراسة الوصفية ، لفت نظر الباحثين في علم المعاني الى الاهتمام بالناحية **الوصفية** وفصلها عن الدراسة التاريخية .

اما الناحية الثانية : فهي انه ، بنظرته الى اللغة كنظام متكامل أو كمجموعة واحدة مؤلفة من عدة انظمة متشابكة ومتكاملة، قد ترك اثره الكبير على نشوء المدارس **التشكيلية** (Structural) في علم اللغة في عدد من البلدان الاوروبية مثل جنيف وبراغ وكوبنهاجن ولندن ، كما تأكد هذا الاتجاه بنشوء مدرسة مشابهة لذلك في امريكا بتأثير **بلومفيلد** ، مما كان له اثره الكبير على دراسة المعاني أيضا . فبدأ الاتجاه الجديد قبل الحرب العالمية الثانية ولكن توقف خلالها واستؤنف بعدها في حوالي عام ١٩٥٠ ، وكان ذلك على أسس جديدة تختلف عن الدراسات القديمة من عدة نواح : (١)

ــ فقد اتجهت دراسة المعاني الى الناحية الوصفية وابتعدت عن الاتجاهات التاريخية كما اسلفنا .

---

(١) راجع الصفحتان ١ ــ ١٠ من الكتاب التالي للاطلاع على التطور التاريخي لعلم المعاني :

Stephen Ullmann : Semantics (Blackwell), 1970.

ـ واجرى عدد من الدراسات لمحاولة التوصل الى معرفة التركيب الداخلي أو البنية الداخلية لمفردات اللغة جميعها لاكتشاف العلاقات المعنوية بينها .

ـ كما اصبحت الدراسات هذه تتجه الى معالجة لغات معينة في احيان كثيرة .

ـ وساعد ظهور علم **دراسة الاساليب الادبية** (Stylistics) على اهتمام علم المعاني **بالمعاني الانفعالية للكلام** .

ـ واصبح علم المعاني الحديث يهتم ايضا **بالعلاقة بين اللغة والفكر** تلك العلاقة التي اكتسبت دفعا جديدا بتأثير ابحاث عالم اللغة الامريكي **بنيامين لي وورف** الذي ورد ذكره سابقا . علاوة على ذلك فقد بدات الاستفادة من المناهج المستخدمة في علمي الرياضيات والفيزياء (كنظرية الاحتمال التي ذكرناها سابقا) في دراسة المعاني كما ظهر مؤخرا تغير كبير في علاقة علم اللغة بالفلسفة وبدا الفلاسفة المعاصرون يدرسون مشاكل المعاني من منطلق جديد فاستحدثوا اتجاهات خاصة بهم . فأصبح علم المعاني بالنسبة لاحدى مدارسهم فرعا من فروع **علم المنطق الرمزي** (Symbolic Logic) (١) كما اصبح بالنسبة لفئة أخرى وسيلة للبحث في كيفية تجنب اساءة استعمال اللغة وذلك عن طريق الاهتمام بمعاني المفردات وخاصة ذات الصيغة المجردة منها بهدف تحسين العلاقات بين البشر (٢) . وقام اخرون غير هؤلاء بدراسة المعاني

---

(١) مثال ذلك الكتابان التاليان :

a) R. Carnap : Introduction to Semantics (Cambridge, Mass) 1942.

b) C. Morris : Signs, language and Behavior (N.Y. George Braziller), 1942.

(٢) مثال على ذلك الكتاب التالي :

S.I. Hayakawa : language in Thought and Action (Allen and Unwin), 1968.

من الناحية الادبية والبلاغية (١) ، كما فعل العرب عندما اعتبروا المعاني واحدا من فروع العلوم البلاغية .

ونظرا لتشعب دراسة المعاني الى الحد الذي ذكرناه ، بحيث أصبحت تؤلف فرعا من عدد من العلوم الانسانية ، فنحاول أن نقصر كلامنا هنا على دراسة **اللغويين** للمعاني ، اي على دراسة المعاني من وجهة النظر اللغوية ، مع اننا سنرى في ختام هذا البحث أن ذلك غير ممكن في النهاية لان هذه الدراسة لا بد ان تلتقي أخيرا ببعض جوانب المعنى التي يتناولها الفلاسفة والمناطقة وعلماء النفس وغيرهم .

فلننظر أولا في تأثير المدارس اللغوية الحديثة والمعاصرة على دراسة نظام المعاني في اللغة .

لقد رأينا سابقا كيف استعملت **القواعد التقليدية** المعنى كأحد المعايير في تحديد معاني بعض المصطلحات اللغوية ، وتبين لنا أن هذا المعيار لم يستعمل بشكل منتظم ثابت بحيث يخدم الغرض الذي استخدمه من أجله .

كما رأينا ان أصحاب **المدرسة الوصفية التشكيلية** حاولوا تجنب دراسة المعاني كلية ، ولم يستخدموها الا عرضا عند تحديدهم لما يقصدونه من مفهومي **الفونيم والمورفيم** كأصغر وحدتين للاصوات والمعاني على الترتيب (٢) وقد كان سبب تجنبهم هذا ليس عدم اعترافهم بأهمية المعنى في اللغة بل كان ناتجا عن نظرتهم الى **طبيعة المعنى** ، تلك النظرة التي كانت متأثرة الى حد كامل تقريبا بالمذهب السلوكي في علم النفس . فقد عرف **بلومفيلد** رائد هذه

---

(١) مثال على ذلك الكتاب التالي

Ogden and Richards : The Meaning of
Meaning (Routledge and Kegan Paul), 1946.

(٢) انظر البحثين السابقين من هذا الفصل

المدرسة في أمريكا **المعنى** بأنه « الموقف أو المقام الذي يقوم فيه المتكلم بقول كلمة أو جملة ورد الفعل أو الاستجابة (response) التي يتطلبها ذلك من المستمع » (١) وهو يلجأ في بحثه لدلالات المفردات الى القول بأن الطريقة الى معرفة تلك الدلالات تكون اما بالاشارة الى الشيء نفسه التي تدل عليه الكلمة أو بشرحه لكلمات اخرى أو بترجمته الى لغة أخرى ـ اي هو يشير الى الطريقة المستعملة اجمالا في المعاجم ـ . لقد كان تأثر هذه المدرسة ايضا بالاتجاه العلمي الذي ساد هذا القرن سببا في ابتعادهم عن دراسة المعاني . يتابع بلومفيلد كلامه قائلا : « ان المواقف التي تدفع الناس للكلام تشمل كل شيء وكل حدث في هذا الكون فاذا اردنا أن نعطى **تعريفا علميا دقيقا** لمعنى اي شكل من أشكال اللغة ، يجب أن تتوفر لدينا معرفة علمية دقيقة عن كل شيء في عالم المتكلم . ولكن مدى المعرفة البشرية محدود جدا بالنسبة لهذا الامر . فنحن نستطيع مثلا أن نعرف معنى احد الاشكال اللغوية بشكل دقيق عندما يتعلق الامر باحدى المواد المحسوسة التي توفرت لدينا المعرفة العلمية عنها ، فنستطيع مثلا أن نعرف أسماء المعادن بالرجوع الى الكيمياء أو علم المعادن كأن نقول مثلا معنى كلمة **ملح** هو **كلوريد الصوديوم** ولكننا ليس لدينا طريقة لتعريف معاني كلمات مثل **الحب والكره** لانها تتعلق بمواقف لم تصنف تصنيفا علميا دقيقا وامثال هذه الكلمات تكون الاغلبية العظمى من مفردات اللغة » (٢) .

خلاصة القول ان هذه المدرسة اللغوية لم تساهم في دراسة المعاني ولم تكن لتستطيع ذلك حتى لو ارادت ، بسبب تلك النظرة الى **طبيعة المعنى** .

---

(١) انظر . L. Bloomfield : Language, pp. 139.

(٢) نفس المصدر السابق صفحة ١٣٩ .

اما انصار **المدرسة اللغوية التحويلية** التي بدأها تشومسكي ، فقد رأينا انهم وجدوا ان عليهم في النهاية ان يدخلوا **المعنى** كعنصر أساسي في تحليلهم أو وصفهم اللغوي اذا كانوا يطمحون بالوصول الى نظرية متكاملة تشمل جوانب اللغة المختلفة ، بل ان بعض المعاصرين منهم قد اخذوا يبدأون دراساتهم اللغوية بعنصر المعنى ومن هنالك ينطلقون الى التركيب النحوي والصرفي للجمل ثم الى التركيب الصوتي لها . وهم يحاولون أن يتوصلوا الى معرفة النظام الكامل لدلالات المفردات اولا ، ثم طرق اقتران بعضها ببعض لتكوين الجمل ذات المعنى المفهوم والمقبول ، وذلك من خلال اللغة نفسها ، اي **بغض النظر عن الموقف او المقام** الذي تقال فيه تلك الجمل ، ليس لان المقام ليس بذي اهمية في تحديد معاني الجمل ، بل لان هذا العنصر يضيف صعوبة اضافية لمنهج التحليل اللغوي المنظم ، وهو عنصر تصعب دراسته بشكل علمي ، ولذلك فان دراسته تترك لفئة اخرى من علماء اللغة هم الباحثون في الجانب الاجتماعي منها ، اي فيما اصبح يسمى الان **بعلم اللغة الاجتماعي** .

لقد رأينا في الجزء السابق من هذا الفصل ، عند نظرنا في النظرية اللغوية التي طلع بها انصار **المدرسة اللغوية التحويلية** انهم يحللون كل جملة الى **عناصرها اللغوية الاولية** في مستوى دعوة **بالمستوى او التركيب العميق** (Deep Structure) لتلك الجملة ، كأن نقول مثلا ان الجملة التالية :

الرجال الموسرون العقلاء يتصرفون بحكمة

تتألف في المستوى العميق من العناصر اللغوية التالية :

(اسم + تعريف + تذكير + جمع) + (صفة + مطابقة للاسم) + (صفة + مطابقة للاسم) + (فعل + الزمن الحاضر + ضمير + مطابقة للاسم) + حرف جر (+ (اسم + نكرة + افراد) (١) .

---

(١) هذا التحليل مبسط وغير دقيق تماما ، ولكنه يخدم الغرض الذي نرمي اليه .

وهنا نلاحظ أن هذه العناصر عناصر لغوية مجردة ، تحتاج لكي تصبح جملة حقيقية الى ما يلي :

أولا : قواعد صرفية تجمع كل مجموعة منها موضوعة بين قوسين بحيث تتألف منها كلمة معينة .

ثانيا : قواعد نحوية تربط الكلمات بطريقة تظهر العلاقات بينها .

ثالثا : قواعد صوتية تحول كلا من تلك الكلمات الى مجموعة من الاصوات المتصلة (اي الى طريقة نطق الكلمة فعلا) .

رابعا : قواعد معنوية تعتمد على الكلمات ودلالاتها وعلى العلاقات بينها بحيث تعطينا معنى الجملة الكامل .

وقد نجح أصحاب هذه المدرسة في وضع عدد كبير مترابط من القواعد الاولى والثانية والثالثة ، واضافوا اليها القواعد التي سموها **بالقواعد التحويلية** التي يمكن ان تحول سلسلة العناصر المذكورة الى جمل متشابهة من حيث المعنى ولكنها مختلفة من حيث البنية الشكلية الظاهرة ، كالجمل التالية مثلا :

ــ الرجال الموسرون العقلاء يتصرفون بحكمة .
ــ ان الرجال الموسرين العقلاء هم الذين يتصرفون بحكمة .
ــ تصرف الرجال الموسرين العقلاء تصرف حكيم .
ــ ان التصرف الحكيم هو الذي يقوم به الرجال الموسرون العقلاء .

كما يمكن ان نحولها الى صيغة الاستفهام ، نحو :
ــ هل الرجال الموسرون العقلاء يتصرفون بحكمة ؟
ــ أو : هل يتصرف الرجال الموسرون العقلاء بحكمة ؟
ــ أو : من يتصرف بحكمة ؟
ــ أو : هل تصرف الرجال الموسرين العقلاء حكيم ؟
كما يمكن أن نحولها الى صيغة النفي ، نحو :

ـ الرجال الموسرون العقلاء لا يتصرفون بحكمة
ـ أو : لا يتصرف الرجال الموسرون العقلاء بحكمة

الى غير هذا من الاشكال المختلفة من الجمل ذات المعاني المتشابهة . وقد قال هؤلاء ، أن القواعد الكاملة للغة ، اذا كان لها أية قيمة فعلا ، واذا كانت تعبر عن **النظام الشامل** للغة ، ينبغي أن تتمكن من **توليد** جميع الجمل الصحيحة **التركيب** ولا جمل غيرها ، كما يجب أن تولد الجمل ذات **المعاني** المقبولة فقط .

وقد واجهتهم مشكلة القواعد التي من النوع الرابع أي المتعلقة بالمعاني لان الانواع الثلاثة الاولى من القواعد المذكورة بأعلاه يمكن أن تولد جملا صحيحة لغويا ، ولكنها غير مقبولة من حيث المعنى . وتتفاوت درجة قبولها من جمل لا معنى لها اطلاقا كالجملة التالية ، التي أصبحت الان مشهورة في علم اللغة :

الاحلام الخضراء العديمة اللون تنام بعنف

فهذه جملة تركيبها الصرفي والنحوي والصوتي لا غبار عليه ، الا أنها لا معنى لها اطلاقا مع انها تتألف من كلمات عربية لكل منها دلالتها الواضحة بحد ذاتها ، ولكنها أصبحت بدون معنى عندما انتظمت على الشكل المبين بأعلاه . وليس سبب انعدام المعنى صرفيا أو نحويا أو صوتيا مثلا كما في سلسلة الكلام التالية :

العديمة الاحلام تنام اللون الخضراء بعنف

التي تضطرب فيها العلاقات النحوية . أو كما في الجملة التالية :

الازلار الشفيلة الكريفة العجل ترام بهلب .

أو كبيت الشعر التالي :

قاصى التجين شحاله بتريه ال فاخي فلم يستف بطاسيه البرن(1)

---

(1) تمام حسان : **اللغة العربية : معناها ومبناها** (الهيئة المصرية العامة للكتاب) ، سنة ١٩٧٣ ، صفحة ١٨٣ .

فكل من هذين المثلين يتألف من اصوات مفردة منظومة بشكل معين بحيث تتألف منها كلمات يمكن أن تكون في اللغة ، ولكنها غير موجودة بالفعل .

ليست العلة في جملة :

الاحلام الخضراء العديمة اللون تنام بعنف

من هذا النوع . انها لا معنى لها ، لانه ليس هنالك **توافق** بين معاني المفردات المنتظمة في الجملة . ولكن ماذا تعني كلمة **توافق** هذه ؟ الا تعني ان معنى كل كلمة في اللغة لا يتألف من عنصر واحد ، بل من عدة عناصر او مكونات صغيرة جدا أو بدائية ؛ بعضها مشترك بين كلمات متعددة وواحد منها على الاقل يميز معنى كلمة عن أخرى ؟

لقد دفع مثل هذا السؤال علماء اللغة الى محاولة تحليل معاني كلمات اللغة **الى العناصر الصغرى** التي يتألف منها المعنى الكامل للكلمة ، وحاولوا ان يختاروا تلك العناصر الصغرى بحيث تشمل اكبر عدد من كلمات اللغة التي تنتمي الى جزء معين من اجزاء الكلام ، كالاسم والفعل والصفة وغيرها ، لعلهم بذلك يصلون الى استنباط ذلك النظام الذي يحكم جميع كلمات اللغة والذي كما سبق ذكره ، يمكن أن يكون نظاما عالميا يشمل اللغات جميعا — .

هذا هو احد الاتجاهات الرئيسية في دراسة المعاني ، الذي بدأ يتبلور في النصف الثاني من القرن الحالي . وقد خطا الباحثون فيه خطوات كبيرة ، بل ان بعضهم مثل فودور وكاتس (Fodor & Katz) طلعا بما اعتقدا انها نظرية كاملة للمعنى تكمل نظرية القواعد التحويلية التي بدأها تشومسكي ، وان كانت هذه النظرية تتعرض حاليا للنقد الشديد ، على الرغم من التعديلات الكثيرة التي اجريت عليها في السنوات الاخيرة .

ولا بد هنا من اعطاء مثل على هذا الاتجاه . فهم يقولون مثلا ان كلمة **رجل** يتألف معناها من العناصر الاولية التالية :

اسم / محسوس / معدود / حي / بشرى / ذكر / بالغ
وبمقارنة هذه الكلمة بكلمة اخرى قريبة منها في المعنى مثل **امراة** ، نجد أن العناصر الاولية التي تكون معناها هي :

اسم / محسوس / معدود / حي / بشري / انثى / بالغ
فهي بهذا تختلف عن كلمة رجل بعنصر واحد مميز هو **الجنس** ، بينما تشترك الكلمتان في جميع العناصر الاخرى .
فاذا أخذنا كلمة **أسد** مثلا ، نجد أنها تتألف من العناصر الاولية التالية :

اسم / محسوس / معدود / حي / غير بشرى / ذكر / بالغ
فهي بهذا تختلف عن كلمة **رجل** بعنصر واحد مميز هو **بشرى / غير بشرى** بينما تختلف بالاضافة الى هذا عن كلمة **امراة** بعنصر اخر مميز هو الجنس **ذكر / انثى** .
اما كلمة **حلم** فانها تتألف من العناصر الاولية التالية :
اسم / معنوى / معدود / غير حي / غير بشري / مذكر
وقد استعمل هؤلاء اللغويون الاشارات (+) ، اي زائد ، و (ـ) اي **ناقص** لتسجيل عملية المقارنة والاقتصاد في الكلام كما يتبين من الجدول التالي :

رجل	امراة	اسد	حلم
+ اسم	+ اسم	+ اسم	+ اسم
+ محسوس	+ محسوس	+ محسوس	ـ محسوس
+ معدود	+ معدود	+ معدود	+ معدود
+ حي	+ حي	+ حي	ـ حي
+ بشرى	+ بشرى	ـ بشرى	ـ بشرى
+ ذكر	+ انثى	+ ذكر	ـ ذكر
+ بالغ	+ بالغ	+ بالغ	+ بالغ

ويرون اننا اذا استطعنا تحليل معاني مفردات اية لغة بهذه الطريقة فاننا نستطيع أن نتبين الخلل في معاني بعض الجمل ، كانعدام المعنى في الجملة المذكورة بأعلاه وهي :

الاحلام الخضراء العديمة اللون تنام بعنف

فهذه الطريقة تساعدنا أن تكتشف في الحال أن بعض العناصر الاولية المكونة لمعنى احدى المفردات تتناقض مع عنصر واحد اخر على الاقل ولذلك ينتج **عدم التوافق** بينهما . مثال ذلك أن احد العناصر الاولية لمعنى الفعل **نام** هو (+ حي) بينما احد عناصر معنى كلمة **حلم** هو (ــ حي) ، لذلك فان الكلمتين لا تتوافقان ولا ينتج عن ارتباطهما معا معنى مفهوم ، كما هو الحال في الجملة السابقة . بينما نستطيع أن نقول :

الرجال ينامون / النساء ينمن / الاسود تنام

وبنفس الطريقة نستطيع أن نقول ان أحد عناصر معنى كلمة **حلم هو** (ــ محسوس) بينما من عناصر معنى كلمة **أخضر** (+ محسوس) ولذلك فالكلمتان لا تتوافقان ايضا فلا نستطيع ان نقول : **احلام خضراء** .

لا داعي للاستطراد ، فالنظرية طويلة وفي غاية التعقيد ولكننا اتينا بأمثلة بسيطة وواضحة للغاية ، لنعطي فكرة عن النظرية والمنهج ، وقد فصلنا قليلا لان هذه النظرية لاقت اهتماما بالغا منذ ظهورها وحتى وقت قريب . الا انها اصطدمت بعقبات كبيرة منعتها من ان تصبح نظرية متكاملة للمعاني كما توقع اصحابها أن تكون .

واول هذه العقبات أن اللغة لا تتكون من مفردات كلها أسماء او كلها صفات وهكذا بل هنالك اجزاء اخرى للكلام ليس من السهل تحليل معانيها الى عناصرها بهذه الطريقة ، خاصة اذا كانت بعض تلك العناصر تتعلق بعلاقة هذه الكلمات بكلمات أخرى في الجملة . ولنأخذ **الافعال** مثلا على ذلك .

فبعض الافعال لا يحتاج الى **مفعول به** ، وبعضها الاخر يحتاج اليه . فاذا احتاج اليه فان الاسم الذي يأتى مفعولا به للفعل يجب ان تتوافر فيه مواصفات معينة تتوقف على مواصفات الفعل الذي يتطلبه . كما أن كثيرا من الافعال تتطلب **فاعلا** من نوع معين ، وبعضها يحتاج الى شبه جملة من جار ومجرور وهكذا . ولننظر في مثل سريع على ما نقول :

فالفصل **تفرق** مثلا يحتاج الى فاعل يدل على الجمع ، أي أن احد عناصر معناه (+ جمع) وان كان شكله مفردا فبامكاننا أن نقول مثلا :

ـ تفرق الجمع او الناس

ولكن ليس بامكاننا أن نقول :

ـ تفرق الرجل أو التاجر

اما الفعل **فرق** فيمكن أن يكون فاعله مفردا او جمعا في المعنى ، ولكن مفعوله يجب أن يدل على معنى الجمع ، فنقول :

ـ فرق الجيش الجمهور او المظاهرة

ـ وفرق الشرطي الجمع

ولكننا لا نقـول :

ـ فرق الجيش الرجل

ـ او : فرق الشرطي الفلام

وهذان مثلان في غاية البساطة أيضا من بين الآلاف الاشد تعقيدا بمراحل .

ويتبع هذه المشكلة مشكلة اكبر . وهي انه لا توجد في أية لغة **مترادفات كاملة** . هنالك كلمات متشابهة جدا أو متقاربة في المعنى ، ولكنها لا تحمل **جميع** العناصر الاولية للمعنى التي تحملها اية كلمة أخرى ـ ويمكن للقارىء ان يتأكد من هذا بأن يأتي بكلمتين يعتبرهما مترادفتين تماما ويحاول استعمالهما بالتبادل في جميع السياقات اللغوية المحتملة ، وسيجد ان بعض تلك السياقات تقبل

احداهما وترفض الاخرى — . وما دام الامر كذلك فان ما تطلبه هذه النظرية ومنهجها في البحث هو أن تحلل **كل كلمة** من كلمات اللغة الى العناصر الاولية لمعناها . ولكن الى كم عنصر من تلك العناصر الاولية يجب تحليل معنى كل كلمة بحيث **تتميز** عن جميع الكلمات الاخرى في اللغة ؟ يبدو أن هذا الجهد لا هو بالممكن ولا بالمفيد . وربما كان الافضل منه أن نحاول التركيز على ذلك العنصر الاولي الذي **يميز** معنى كلمة معينة في **سياق لغوي** محدد ، والذي يتنافر مع عنصر مميز اخر لكلمة أخرى تستعمل معها لكي نفسر بعض الاضطراب الذي يمكن أن يحصل في معاني بعض الجمل ، أو نفسر عدم امكانية تركيبها أصلا .

ومع كل ما يقال في هذه النظرية وهذا المنهج فان الاساس صحيح ومعروف منذ القدم وقد استفاد منه الفنانون من شعراء وكتاب ، كما استفاد منه الظرفاء في مجالسهم وعامة الناس في حياتهم العادية . فقد كانت الكلمات التي تحمل معنيين او أكثر مجالا واسعا للاستفادة منها في الادب بأنواعه ، وبين عامة الناس عندما يتلاعبون بمعاني الكلمات المختلفة ، كما استغل بعض الشعراء والروائيين ظاهرة **عدم التوافق** واستخدموها عن عمد لاثارةمشاعر وافكار خاصة عند القراء .

فالظاهرة اذا معروفة منذ أمد **طويل** ، ولكن أصحاب النظرية التي ذكرناها هي أول من حاولوا تعقيد هذه الظاهرة وذلك سعيا وراء تكوين نظرية تفسر النظام الداخلي لمفردات اللغة بشكل علمي منظم ، ودمج هذا النظام في النظام العام لقواعد اللغة الشاملة لجميع جوانبها . وهم ومن تبعهم يأملون أن يخرجوا بنظرية تكون قادرة على ما يلي :

اولا : أن تعرض معاني المفردات والعلاقات بينها بشكل علمي منظم متكامل .

ثانيا : ان تبين كيف يتفاعل نظام معاني المفردات مع العلاقات الصرفية النحوية بحيث تنتج عنها معاني الجمل .

ثالثا : ان تعطى صورة تفصيلية لبنية الجملة من نواحيها المختلفة .

رابعا : (وهذا هدف لم نشر اليه من قبل) أن تتمكن من ايضاح علاقة معاني المفردات والجمل بالعالم الخارجي .
واخيرا

ان التوصل الى نظرية من هذا النوع لا هو بالسهل ولا بالقريب المنال ، ولكن ربما كان أهم ما في الامر في الوقت الحاضر هو أن اللغويين لم يعودوا يحاولون تجنب دراسة المعاني على اعتبار أنها غير قابلة للبحث ، بل هم يواجهون المشكلة على صعوبتها بشجاعة وثقة وايمان بأن من الممكن ايجاد حل معقول شامل لها في المستقبل ، قريبا كان أم بعيدا .

لقد كانت المدرسة اللغوية التي طلعت بهذه النظرية هي اهم المدارس التي تمثل هذا الاتجاه في دراسة المعاني ، ولكنها لم تكن الوحيدة ، فقد كانت هنالك محاولات أخرى متعددة لدراسة العلاقات بين كلمات اللغة .

فمن هذه المحاولات ما قام به البعض من تحديد بعض **حقول المعاني** (Semantic Fields) ، بمعنى دراسة بعض المجالات التي يكون فيها ترابط شديد بين الكلمات التي تنتمي اليها . وربما كان من أفضل الامثلة على ذلك الكلمات الدالة على **اللون** والكلمات الدالة على **اواصر القربى** .

أما **الالوان** ، فقد وجد ان الطيف الضوئي يقسم بطرق مختلفة في لغات مختلفة ففي بعض اللغات مثلا تشير كلمة واحدة الى اللونين الرمادي والبني ، وكلمة واحدة اخرى تشير الى كل

من الازرق والاخضر ، بينما وجدت في بعض اللغات كلمتان للدلالة على اللون الاسود ، احداهما تشير الى سواد الليل والاخرى الى سواد المواد كالفحم مثلا .

اما بالنسبة **لاواصر القربى** ، فان توزيع الكلمات الدالة عليها يختلف اختلافا بينا من لغة الى اخرى ـ ولهذا طبعا اسباب اجتماعية واضحة ، فنحن نعلم مدى تفصيل هذه العلاقات في اللغة العربية مثلا بسبب اهتمام العرب بقضية الانساب ، ولكن هذا موضوع اخر ليس هذا مكان التعرض له ـ . فاللغة المجرية مثلا لم تكن فيها كلمة مستقلة تدل على **الاخ** واخرى تدل على **الاخت** وبقى الامر على هذا الحال حتى النصف الاول من القرن التاسع عشر ، بينما لا زالت فيها حتى الان كلمات مستقلة تدل على **الاخ الاكبر والاخ الاصغر ، والاخت الكبرى والاخت الصغرى** . كما انه لا توجد في اللغة الانكليزية مثلا كلمات مستقلة تدل على كل من **العم والخال** ، ولا كلمات اخرى مستقلة تدل على كل من **العمة والخالة** ، كما أن كلمة (cousin) تدل على عشرات من العلاقات من ابن العم الى ابن الخال الى ابنة العم الى ابنة الخال الى ابن العمة فابن الخالة فابنة العمة فابنة الخالة ، فعدد اخر من الاقارب حتى البعيدين منهم .

وقد جرت محاولات على نطاق أوسع بكثير لتفسير بنية نظام المفردات ، على اساس تجميع المفاهيم أو الافكار العامة ثم تصنيف الكلمات على أساسها .

فقد قسم بعضهم الكلمات الى ثلاثة اقسام رئيسية كبيرة هي :

ـ المفردات التي تشير الى الكون .

ـ المفردات التي تشير الى الانسان

ـ والمفردات التي تشير الى علاقة الانسان بالكون .

ثم فصلوا هذا بحيث شملوا جميع كلمات اللغة التي كانوا يبحثونها . وربما كان افضل مثال على ذلك مما هو في متناول اليد هو ما نجده في **معجم روجيت** المشهور ، (١) الذي قسمت فيه المفردات بحسب المفاهيم التي تشير اليها واجملت هذه المفاهيم تحت ست اقسام كبيرة هي :

١ ـ العلاقات المجردة
٢ ـ المكـان
٣ ـ المـادة
٤ ـ الفكر
٥ ـ الارادة
٦ ـ العواطف

ثم فصلت كل من هذه الاقسام الستة الواسعة الى اجزاء اقل شمولا ، وقسم كل منها الى وحدات اصغر فاصغر ، ثم جمعت المفردات التي يعبر بها عن كل من الوحدات الصغرى ، بحيث تشمل بمجملها جميع المفاهيم التي يمكن ان يتكلم عنها اي انسان يتكلم اية لغة ـ ويمكن لمن شاء الاطلاع على التفصيلات في قائمة المحتويات الموجودة في مقدمة هذا المعجم .

وهذا العمل الجبار الذي تم عام ١٨٥٢ ـ وان كان هدفه عمليا وتعليميا وهو تجميع المترادفات او المفردات المتقاربة في المعنى بحيث يتيسر للطالب او الكاتب اوالباحث مرجع يستخدمه للتعبير عن الافكار التي يريد التعبير عنها ـ يذكرنا بما اوردناه سابقا عن محاولات حديثة جدا قام بها **مكولي وفلمور** في نفس الاتجاه (٢) وان كان غرض هؤلاء مختلفا يهدف الى محاولة اعطاء وصف كامل لقواعد اللغة ـ او اللغات ـ بدءا من المعاني وانتهاء بالاصوات .

لا نعتقد ان هنالك داعيا للخوض في مزيد من التفاصيل ،

(١) عدة طبعـات Roget's Thesaurus (longman)

(٢) راجع الجزء السابق من هذا الفصل .

بالنسبة لهذا الاتجاه في دراسة معاني اللغة الذي كان أكثر من غيره جدية وشمولا واعمالا للفكر .

أما الاتجاه الثاني الكبير فقد عني أصحابه بالنظر الى مفردات اللغة على اعتبار انها **رموز** ، اي وحدات صوتية ذات وظيفة رمزية . وكانت أهم نقطتين ركز هؤلاء عليهما هما :

اولا : علاقة شكل الكلمة بمعناها .

ثانيا : ظاهرة تعدد المعاني للشكل الواحد .

وهذا الاتجاه ليس جديدا في الواقع ، كما رأينا عند تعرضنا لقضية التوقيف أو الاصطلاح في اللغة التي اثيرت منذ أيام الاغريق القدماء بالنسبة لعلاقة الشكل بالمعنى والتي بعثت من جديد في السنوات الاخيرة . كما أن ظاهرة تعدد المعاني من الظواهر التي درست في السابق وتدرس في هذه الايام من جديد .

اما بالنسبة للنقطة الاولى ، فان علماء اللغة يقسمون المفردات اللغوية الى قسمين : الكلمات التي يسمونها **معتمة** (Opaque) اي التي لا يدل شكلها على معناها بأ يشكل من الاشكال ، وهي الاغلبية الساحقة ، مثل ولد ، بنت ، وردة ، بحر ، جمال الخ .

وتلك التي يسمونها **شفافة** (transparent) التي يمكن أن يستشف معناها من شكلها الخارجي الصوتي . وتندرج تحت هذه الفئة الاخيرة ثلاث مجموعات :

الاولى : هي الكلمات التي يشير صوتها الى معناها مثل كلمات Splutter, Splash, bang, growl في اللغة الانكليزية أو الكلمات : طرطش ، بم ، طاخ ، الخ في بعض اللهجات العربية العامية . ولكن يجب أن نقول هنا حالا بأن مدى صحة هذه الملاحظة مشكوك فيه جدا ، لان الكلمات التي من هذا النوع تختلف اختلافا شاسعا من لغة الى اخرى ، وهذا يعني أن هذه الظاهرة اصطلاحية اجتماعية لا تمت بقليل أو كثير الى أصوات الكلمات .

والثانية : هي **المشتقات** التي اذا عرف معنى الاصل عرف معنى الكلمات المشتقة منها . وهذه ظاهرة واضحة ، فكل فعل من الافعال المزيدة في اللغة العربية مثلا يشير الى معنى معروف اضافة للمعنى الاصلي ، وكذلك الصفات المشبهة وأسماء الافعال والمصادر وما اليها .

اما المجموعة الثالثة :

فتشمل التعابير **المجازية** وهي التي تستعمل فيها الكلمة بمعنى مشتق من معناها الاصلي ، وهذه كثيرة للغاية ، وظاهرة منتشرة في جميع اللغات ، **والكناية** في اللغة العربية مثل واضح عليها ، ولكن الكلمات المفردة نفسها يمكن أن تستعمل مجازيا على نطاق واسع ايضا ، كأن تقول :

ــ ذاق الامرين

او ــ احمل هما كبيرا ، وهكذا .

اما النقطة الثانية المذكورة باعلاه والمتعلقة بتعدد المعاني فهي التي كثيرا ما تسبب لبسا في معاني بعض الجمل ، لان المتكلم يستعمل في الجملة كلمة تحمل أكثر من معنى ، يقصد هو أحدها بينما يفهم السامع غيرها . وأمثلة هذه كثيرة وقد اشرنا اليها قبل قليل .

تخلص من هذا الاستعراض السريع جدا لدراسات المعاني بأن هذه الدراسات لا هي حديثة ، ولا هي مقتصرة على علم بعينه ، ولكن ما وصلنا من القديم منها لا يشفي الغليل ــ على كثرته ــ لانه يتالف من محاولات لتحليل ظواهر محدودة ، فلا هي شاملة من ناحية ولا هي استطاعت ان تدمج عملها في نظرية لغوية شاملة . وأن محاولات جدية تجري في الوقت الحاضر للتوصل الى نظرية متكاملة لنظام المعاني في اطار نظرية شاملة للغة ككل . كما اطلعنا على بعض الصعوبات التي تجعل التوصل الى مثل هذه النظرية أمرا بعيد المنال وان لم يكن مستحيلا .

خاتمة

وبعـد ،

فهذا عرض سريع حاولنا أن نعطي فيه فكرة أولية عما يجري في العالم من أنواع الدراسات المختلفة التي يقوم بها علماء الغرب في أوروبا وأمريكا على اللغات اجمالا وعلى لغاتهم القومية على وجه الخصوص . وكلنا أمل أن نكون قد وفقنا في رسم صورة صحيحة ، وان كانت مقتضبة ، لمدى النشاط الذي يدور حاليا في مجال البحث اللغوي .

وهذا العرض يبين بطريقة غير مباشرة مـدى التقصير في الدراسات والبحوث اللغوية المتصلة باللغة العربية . واننا لنأمل ان يكون ما ذكرناه حافزا للقيام بدراسات لغوية جديدة جادة في مختلف الميادين تؤيدها المؤسسات العلمية والحكومية في أرجاء العالم العربي ــ ونحن نعلم أن بعضها قائم بالفعل ــ وذلك لنلحق بركب الامم المتقدمة في مثل هذه الدراسات . فاللغة التي لقيت من الاهتمام والدراسة في العصور الاسلامية الاولى ما لم تلقه لغة اخرى ، جديرة بأن تلاقي مثل ذلك الاهتمام في عصر تيسرت فيه سبل البحث العلمي وتوافرت فيه الاموال التي يمكن أن تدعم مثل هذا الاهتمام بل ان حرصنا على نشر هذه اللغة في البلدان الاسلامية بوجه خاص يجب أن يدفعنا الى اجراء البحوث المقارنة بين اللغة العربية واللغات التي تتكلمها شعوب تلك البلدان تمهيدا لوضع الكتب المناسبة المبنية على أسس علمية لتعليم العربية لابناء تلك البلدان .

مراجع لمزيد من الاطلاع

الفصل الاول :

مادة هذا الفصل موزعة في معظم الكتب المذكورة في الفصول الاخرى وفي كتب علم اللغة التطبيقي مثل السلسلة التالية :

١ – ٤ Allen & Corder (eds.) : The Edinburgh Course in Applied Linguistics. 4 Vols. (O.U.P.), various dates.

أما تطبيقات علم اللغة على تعليم اللغات فهي متوافرة بكثرة في كتب مختصة بذلك مثل :

(٥) W. Rivers : Teaching Foreign Language Skills (Unive. of Chicago Press), 1968.

(٦) G. Girard : Linguistics & Foreign Language Teaching. (Longman), 1972.

الفصل الثاني :

هنالك اربعة كتب اساسية لا بد لكل من يرغب في الاطلاع على اسس علم اللغة الحديث وخلفيته من الاطلاع عليها . وهي :

(٧) F. de Saussure : Cours de Linguistique Generale (Paris : Payot), 5th ed., 1955. (English Translation, by Wade Basking: Course in General Linguistics. New York : Philosophical Library, 1959).

(٨) Edward Sapir : Language. (New York, Harcourt, Brace & World), 1921.

(٩) Edward Sapir : Selected Writings. (ed. by D.G. Mandelbaum) Univ. of California Press, 1949.

(١٠) L. Bloomfield : Language. (N.Y. : Holt, Rinehart & Winston), 1933 : and (London : Allen & Unwin), 1935.

كما ان هنالك عددا كبيرا جدا من المقدمات في علم اللغة يمكن الاطلاع على احدها لاخذ فكرة اوضح عما ذكرناه في الفصل الاول ، نورد بعضها هنا :

(١١) R. Wardaugh : Introduction to Linguistics (McGraw Hill), 1972.

(١٢) D. Crystal : Linguistics. (Penguin), 1971.

(١٣) J. Falk : Linguitics and Language. (Xcrox), 1973.

(١٤) N. Minnis (ed.) : Linguistics at Large (Paladin), 1973.

(١٥) A.A. Hill (ed.) : Linguistics. (Voice of America), 1968.

(١٦) J. Lyons (ed.) : New Horizons in Linguistics (Penguin), 1970.

الفصل الثالث :

مادة هذا الفصل تعتمد بشكل رئيسي على الكتب التالية ، والكتاب الاول منها بوجه خاص كتاب حديث شامل ولكنه ليس سهل القراءة .

(١٧) J. Aitchison : The Articulate Mammal. (Hutchinson of London) 1976.

(١٨) N. Chomsky : Aspects of the Theory of Syntax. (Cambridge, Mass. : M.I.T. Press), 1965.

(١٩) E. Lenneberg : Biological Foundations of Language. (N.Y., Wiley), 1967.

(٢٠) R. Brown : A First Language. (London : Allen & Unwin), 1973.

(٢١) R. Brown : Psycholinguistics. (N.Y. The Free Press), 1970.

(٢٢) J. Greenberg (ed.) : Universals in Language. (Cambridge, Mass. : M.I.T. Press), 1963.

الفصل الرابع :

من افضل المراجع لما ورد في هذا الفصل هي الكتب المذكورة بالحواشي بالاضافة الى بضعة كتب اخرى هي :

(٢٣) أوتوجسبرسن : **اللغة بين الفرد والمجتمع** ، ترجمة عبد الرحمن ايوب ، (مكتبة الانجلو) ١٩٥٤ .

(٢٤) م + م . لويس : **اللغة والمجتمع** ، ترجمة تمام حسان

(٢٥) علي عبد الواحد وافي : **اللغة والمجتمع** ، (عيسى البابي الحلبي ، القاهرة) ١٩٥١ .

(٢٦) محمود السعران : **اللغة والمجتمع** (دار المعارف) ١٩٦٣ .

(٢٧) ابراهيم أنيس : **في اللهجات العربية** (مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٥) .

(٢٨) عبد الرحمن أيوب : **العربية ولهجاتها** (جامعة الدول العربية ١٩٦٨) .

(٢٩) ابراهيم أنيس : **اللغة بين القومية والعالمية** (دار المعارف بمصر ١٩٧٠) .

(٣٠) Martin Joos : The Five Clocks (Bloomington : Research Center), 1962.

(٣١) William Labov : Sociolinguistic Patterns (Univ. of Philadelphia Press), 1972.

(٣٢) Joshua Fishman : The Sociology of Language (Newbury House), 1971.

(٣٣) Joshua Fishman (ed.) : Advances in the Sociology of Language (Mouton), 1971.

الفصل الخامس :

مادة هذا الفصل موجودة بشكل مقتضب في المقدمات المذكور بعضها في مراجع الفصل الثاني ، كما يمكن الاطلاع على مزيد منها في مقدمات او في مثل الكتابين التاليين :

(٣٤) R.H. Robins : General Linguistics. (Longman), latest edition.

(٣٥) J. Lyons : Introduction to Theoretical Linguistics. (Cambridge Univ. Press), 1968.

(أ) علم الاصوات :

(٣٦) ابراهيم انيس : **الاصوات اللغوية** (مكتبة الانجلو المصرية ١٩٧٥) .

(٣٧) كمال بشر : **علم اللغة العام ، الاصوات** (دار المعارف ١٩٧٣) .

(٣٨) A.C. Gimson : An Introduction to the Pronunciation of English (Arnold) 1970.

(٣٩) D. Jones : An Outline of English Phonetics. (Cambridge, Heffer) latest edition.

(ب) النحو والصرف : المدارس المختلفة

(٤٠) C.C. Fries : The Structure of English (Longmn), 1969.

(٤١) H.A. Gleason : An Introduction to Descriptive Linguistics. (N.Y. Holt, Rinehart and Winston), 1966.

(٤٢) N. Stageberg : An Introductory English Grammar. (Holt, Rinehart and Winston), 1965.

(٤٣) J.P. Broderick : Modern English Linguistics. (Thomas Crowell), 1975.

(٤٤) Jacobs & Rosenbaum : English Transformational Grammar. (Blaisdell) 1968.

(٤٥) B.L. Liles : An Introductory Transformational Grammar. (Prentice-Hall), 1971.

(جـ) المعاني أو الدلالة :

(٤٦) ابراهيم انيس دلالة الالفاظ (مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٣) .

(٤٧) S. Ullman : Semantics. (Blackwell), 1970.

(٤٨) F.R. Palmer : Semantics. (Cambridge Univ. Press), 1977.

(٤٩) G Dillon : Introduction to Contemporary Linguistic Semantics. (Prentice-Hall), 1977.

المحتوى

صفحة

صدر في هذه السلسلة

١ ـ الحضارة	تأليف : د. حسين مؤنس
٢ ـ اتجاهات الشعر العربي المعاصر	تأليف : د. احسان عباس
٣ ـ التفكير العلمي	تأليف : د. فؤاد زكريا
٤ ـ الولايات المتحدة والمشرق العربي	تأليف : د. احمد عبد الرحيم مصطفى
٥ ـ العلم ومشكلات الانسان المعاصر	تأليف : زهير الكرمي
٦ ـ الشباب العربي والمشكلات التي يواجهها	تأليف : د. عزت حجازي
٧ ـ الاحلاف والتكتلات في السياسة العالمية	تأليف : د. محمد عزيز شكري
٨ ـ تراث الاسلام (القسم الاول)	ترجمة : د. زهير السمهوري
٩ ـ اضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة	تأليف : د. نايف خرما

من الاعداد القادمة

● جحا العربي	تأليف : د. محمد رجب النجار
● تراث الاسلام (القسم الثاني)	ترجمة : د. حسين مؤنس احسان صدقي العمد
● تفسير العالم	تأليف : د. انور عبد الملك



المؤلف في سطور

د. نايف خرما

- ولد في صفد بفلسطين عام ١٩٢٥
- انهى دراسته الثانوية بالكلية العربية بالقدس .
- حصل على البكالوريوس في الادب الانجليزي من لندن والماجستير في الاداب وطرق تدريس اللغة الانجليزية من الجامعة الامريكية في بيروت ، والدكتوراه في التربية (تطبيقات علم اللغة على تعلم اللغات الاجنبية) من جامعة لندن.
- حضر عددا من المؤتمرات العلمية وكتب عددا من المقالات في المجلات العلمية العربية والاجنبية .
- له خبرة طويلة في تعليم اللغة الانجليزية وتحضير المواد والامتحانات .
- عمل موجها عاما للغة الانجليزية بوزارة التربية حتى عام ١٩٧٤) ومديرا لمركز اللغات بجامعة الكويت حتى عام ١٩٧٥ .

يقوم حاليا بتدريس علم اللغة والترجمة بقسم اللغة الانجليزية بجامعة الكويت .



الكويت	٢٥٠ فلسا	ليبيا	٢٥ قرشا	عمان	٤ ريال
السعودية	٥ ريال	المغرب	٥ دراهم	اليمن الجنوبية	٤٠٠ فلس
العراق	٣٠٠ فلسا	تونس	٥٠٠ مليم	اليمن الشمالية	٤٫٥ ريال
الاردن	٢٥٠ فلسا	الجزائر	٥ دنانير	البحرين	٤٠٠ فلس
سوريا	٣ ليرات	مصر	٢٥٠ مليما	قطر	٥ ريال
لبنان	٢٫٥ ليرة	السودان	٢٥٠ مليما	الامارات العربية	٥ درهم

الاشتراكات : يكتب بشأنها الى المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب ،

ص.ب ٢٣٩٩٦ — الكويت



★ الاشتراك السنوي

يشمل اجور البريد

البلد	القيمة	العملة
الكويت	٣	دينا
السعوديه	٦٠	ريال
العراق	٦٠٠ر٢	دينا
الاردن	٣	دينا
سوريا	٣٦	ل.
لبنان	٣٠	
ليبيا	٤٢٠	
المغرب	٦٠	دره
تونس	٦	
الجزائر	٦٠	
مصـر	٣	
السـودان	٣	جنـ
عمـان	٤٨	
اليمـن الجنوبيه	٦٠٠ر٣	
اليمن الشمالـة	٥٤	
البحرين	٨٠٠ر٤	
قطـر	٦٠	ر
الامارات العربية	٦٠	د.

الاشتراكات .

يكتب بشانها الى

المجلس الوطني للثقافة والفنون والادا

ص.ب ٢٣٩٩٦ ـ الكو

★ **يدفع رسم الاشتراك السنو على النحو التالي :**

ـ حوالة بريدية ، أو مصرفيـ مسحوبة على احدى البنـو بدولة الكويت بالنسبة للمشترك من خارج الكويت .

ـ نقدا / أو شيكا مسحوبا عا احدى البنوك بدولة الكويت بالنسبة للمشتركين من داخـ الكويـت .



سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت

السيد الأمين العام

تحية طيبة وبعد ،

أود الاشتراك في سلسلة « عالم المعرفة » لمدة عام

مرفق طيه حوالة / شيك بمبلغ بتاريخ مسحوب على

الاسـم :

العنوان

يرجى الكتابة بخط ...


٢٥٠
فلسًا